وفود المهتدين

إلى خاتم النبيين والمرسلين

صلى الله عليه وسلم

إبراهيم حسن خلاف

دار الأمين
DAR AL AMEEN

وفود المهتدين

إلى خاتم النبيين والمرسلين

دار الأمين
DAR AL AMEEN
طبع نشر توزيع
١ شارع سوهاج
خلف قاعة سيد درويش
الهرم ـ الجيزة

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الإيداع ١٩٩٣/٢٣١٧
I.S.B.N.
977—5424—15—1

إهـــداء

إلى روح أمي وإلى روح أبي اللذين ربياني صغيراً وإلى زوجتي الحبيبة التي ما تزال ترعاني كبيراً .

* أهدي هذا الكتاب .

إبراهيم حسن خلاف

تمهيد

منذ بعث الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله نبيا ورسولا للناس كافة، وهو يعمل بلا كلل أو ملل من أجل تبليغ رسالة ربه، ونشر دعوته التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

ولم يكن الطريق مفروشا بالورود.. أبدا، ولا كان خاليا من العقبات، والمتاعب والآلام.. ولم يكن الناس وبخاصة قريش يستقبلون دعوة الرسول إلى عبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الأصنام بالرفض.. وإنما كانوا يعاندون، ويجاهرون بهذا العناد، وكانوا يعادون رسول الله، ويعلنون على الملأ هذا العداء.. وكانوا يؤذون رسول الله، ويعلنون بهذا الإيذاء، وكانوا يطاردون المسلمين، ويتلذذون بهذه المطاردة.. ثم يدخلون في مواجهة مع رسول الله والمسلمين، ينتج عنها شهداء من الجانب الإسلامي.. وقتلى من الجانب الآخر.. وتشريد أسر، وضياع أموال، وتصفية لوجود مجتمعات بالكامل، وترحيلها إلى ديار غير الديار!!

وكان هذا إيذانا بالتغيير الشامل في كل مناحي الحياة.. بدءاً بالعقيدة.. وانتهاء حتى بالخطوة يخطوها الإنسان.. لا في الجزيرة العربية فحسب، ولكن في العالم كله..

بدأ الرسول الدعوة وحيدا، وليس معه غير ربه.. يناصره، ويرعاه، ويؤيده بالجيل الأول من المؤمنين.. ذلك الجيل الرائع من أمثال أبي بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وخديجة أم المؤمنين.. وبلال الحبشي، وياسر وسمية، وابنهما عمار، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي.. بدأ الرسول الغرس الصالح في مكة يواجه جبابرة الزمان، وصناديد الكفر من أمثال أبي جهل، وأبي لهب وغيرهما من أعداء النور والحق!

يواجه هؤلاء الطغاة وحده لكنه يصر على رعاية الغرس فيرويه من عرقه ودمه، وصبره، وكفاحه، وحلمه.. ويفلح الغرس بأمر الله، وتمتد جذوره وتذهب بعيدا بعيدا، ثم يصلب عوده، ويفرع في المدينة ويكون له أغصان وأوراق وظلال، ثم ثمار.. هي من إبداع المبدع جل جلاله.. هي نصر من الله وفتح مبين.. هي دخول الناس في دين الله أفواجا.. هي تسبيح من الرسول الكريم، واستغفار لربه على ما منحه من فضل، وما أسبغ عليه من جود بزوال دولة الكفر وميلاد دولة الإيمان.. دولة الإسلام.. دولة التوحيد ، والحب، والألفة والحق والعدل، والسلام.

... وكان صلح الحديبية حدثا جليلا في حياة الدعوة، من يراه بعين بصيرته، وينفذ إلى أعماقه بعقله، يدرك أن الشرك فى طريقه إلى النهاية، وأن الحياة الدينية الجديدة تفرض وجودها .. وتتشكل تبعا لذلك الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية.

ثم يتوج صلح الحديبية في معناه القريب بفتح مكة، وفي معناه البعيد بهزيمة هوازن وثقيف.. وفرض الهدوء.. يشمل الجزيرة التى تتفرغ في ظل النظام الجديد للدعوة وما تشتمل عليه من معان، وقيم، ومبادئ، ومثل ، هى قوام حياة الإنسان في كل زمان، وكل مكان.. ولا يكون بعد هذا الفتح العظيم إلا بعض جيوب هنا، وبعض جيوب هناك..

لم تعد هناك قوة في الجزيرة تستطيع أن تواجه محمدا. وعم السلام.. وأتاح هذا السلام الفرصة للعقل يعمل . وأعد رسول الله ﷺ جيشه وذهب إلى تبوك فألقى الله الرعب في قلوب أعدائه من الروم فلم يخرج منهم أحد لمواجهته.. وكانت هذه الحملة رسالة قوية الدلالة فهمها العرب فى الشام، والعراق، والبحرين، واليمن .. ومن بقوا على فكرهم داخل الجزيرة..

وعاد رسول الله ﷺ بعد أن صادقه أهل الشام من الملوك ورؤساء القبائل، والعشائر وتحالفوا معه سواء من أسلم منهم أو من بقي على نصرانيته.. وقد فقدوا جميعا الثقة في حليفهم القديم «الروم».

ثم كان أن دانت الجزيرة كلها من أقصى الشمال في الشام وأقصى الشرق فى البحرين والعراق.. وأقصى الجنوب فى اليمن، وأقصى الغرب حتى سواحل البحر، إذ أخذ ما تبقى من قبائل لم تسلم توفد وفودها للقاء محمد فور عودته من تبوك وتبايع بالإسلام.

وكانت مظاهرة لم ير التاريخ لها مثيلا، والمدينة تستقبل وفود العرب للنبى ﷺ من ثقيف، ومن تميم، ومن طيئ، ومن البحرين وحضرموت، وقبائل الأزد ومراد وهمدان، وبنى سعد، وبنى عامر ... ومن كل مكان.

بعض هذه القبائل جاء إلى رسول الله ﷺ وهى تغرق في بحار من الندم لأنها تأخرت فى قبول الدعوة.. وبعضها جاء بدافع المصلحة وحماية النفس والمال بقبول

الدعوة، لكنهم ما يكادون يصلون إلى المدينة، وتحتويهم روحانياتها، ويلقون رسول الله ﷺ حتى تتلاشى المصلحة الخاصة ودوافعها، ويصبحوا وقد نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله، ثم يكون وقعهم أشد على الكفار من أى شيء آخر..

ولقد تناولت فى هذا الكتاب جانبا من هؤلاء الوفود، وخصوصا من جاءوا إلى النبى فور عودته من تبوك يحدوهم الأمل فى أن يقبلهم رسول الله ﷺ وهم يخلعون حياة الكفر، ويلبسون حياة الإيمان.. يقبلهم رسول الله مسلمين.. مؤمنين .. موحدين.. مجاهدين فى سبيل الله راجين أن يكفر الله بهذا العمل عما بدر منهم فى أيام سابقة من عداء للإسلام والمسلمين، وما كان منهم من تأخير فى قبول الدعوة.

وإسوف أعود، بإذن الله، إلى هذا الموضوع ذاته أجلى موقف وفود أخرى وفدت على رسول الله ﷺ منذ كان في مكة قبل الهجرة، وحتى ذهابه إلى تبوك.

وهذه الوفود كلها تمثل جانبا خصيباً من جوانب الدعوة، تناولتها كتب السيرة بأسلوب علمى مقتضب، يجد القارئ وبخاصة الشباب بعض العسر فى الوصول إلى فلسفتها التى بنت عليها ذهابها إلى المدينة ومبايعة النبى ﷺ بالإسلام.

ولقد حاولت قدر الطاقة تجلية هذه الوفود التى وفدت على رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك وبيان فلسفتها التى قامت على اقتناعها.. أو اقتناعها الذى قام على فلسفتها فى قبول الإسلام بطريقة.. وأسلوب .. وصيغة فنية، ما قصدت من ورائها إلا تيسير الأمر على أجيال القارئين من مختلف الأعمار والثقافات، مع التزامى الدقيق بالخط التاريخى كما ورد فى أهم مصادره وهو سيرة ابن هشام.

فإن أكن وفقت فهذا غاية ما أمّلتُ وما قصدت، وإلا فلقد حاولت وبذلت غاية الجهد، وأنا مطمئن إلى أنه على المرء أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح.

والله أدعو أن يجعله خالصا لوجهه الكريم

إبراهيم حسن خلاف

رئيس قسم التربية الدينية واللغة العربية

بمدرسة ناصر الثانوية للبنات

الصدفة .. واللؤلؤة..

وفـــد ثقـيف

أخذ نفسا عميقا.. ثم صعده في ألم

ما أقرب الزمن!!

كم مر على هذا الحدث من سنين ؟!

وهز رأسه في أسى عميق...

لاشك أن الحدث كان شائنا، يتنافى وأبسط قواعد كرم الضيافة على الأقل، ونحن قوم لم نكن نحتاج إلى من يذكرنا بهذه القواعد، أو أبسط بسائطها!

وسرح «عبد ياليل» بفكره.. ثم أردف وهو يحدث نفسه

ماذا كان يغلف العقل ، والقلب أنئذ عندما ذهبت منا حرارة الرحمة، وتوارت سمة الإشفاق من الصدور؟

ماذا ران على العقل، والقلب، آنئذ فلم نبسط له رداء المودة، وهو يفد علينا بالرحمة ولم نعامله بما يليق به، وبدعوته التي ما خرجت في مضمونها على مفهوم العشيرة النقية، والفطرة السليمة، وهي تتناول الحياة !؟

.. قال الرجل

«لاتسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تربوا» وكلنا يعلم أن السرقة مزرية بالمرء، مخلة بالشرف، وأن القتل خطيئة، وأن الربا أخذ مال بغير حق .. كلنا يعلم أنها نقائص .. خطايا.. كلنا يعلم عن يقين في قرارة نفسه أن ما قاله محمد حق!

.. وقال الرجل:

«ارحموا الضعيف.. ووقروا الكبير، ولا تنهروا السائل، ولاتقهروا اليتيم»

والله ما أنكرنا، ولا أنكرت التقاليد النقية هذه الدعوة !!

.. وقال الرجل:

«استوصوا بالنساء خيرا.. فما أكرمهن إلا كريم.. وما أهانهن إلا لئيم» وما عرفنا المرأة إلا أما، وأختا، وابنة، وزوجة! رضعنا منها الحياة، وعرفنا منها الإباء، والشمم، والشرف، والنخوة، ووجدنا فيها السكن، وبجانبها الأمل وبقربها السلوى، وفي جوارها المسرة، وفي رحابها البشر والسعادة!!

وكنا نصدقه، ولا نجد غضاضة فيما يدعو، ويحبذ:

.. وقال الرجل:

«أقيموا الصلاة، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر».

وما جهلنا الصلاة، بل كنا ننشدها في لحظات كربنا، وأوقات شدتنا:

.. وقال الرجل:

«آتوا الزكاة، وحجوا البيت، ولم يقل إنه إجباري على كل واحد، وإنما قال: «إن استطعتم إلى ذلك سبيلا».

وكنا ننفق على الشعراء أكثر مما يطلب منا.. ما يأخذه الشعراء في كلمات قليلة يقولونها أضعاف أضعاف ما يطلب منا إنفاقه زكاة.. مع كامل علمنا أن الشعراء لا يستحقون شيئا مما يأخذون.. فقط ننفق عليهم لأننا غاوون، أما الحج فنحن نقر به، ولا نجهله ونعظم البيت ونقدسه.

.. وقال:

«غياث الملهوف، والسرعة عند الصريخ».

وكنا نباهي بهما، ونعدهما من المفاخر عندما نحتج بالأنساب، وجليل الأعمال.

ما اختلفنا في شيء مما يدعو له، وما وجدنا فيه إلا نظاما جديا في ظل معبود واحد، وهو ما اختلفنا عليه!!

كان يريد في ظل هذا المعبود الواحد أن تأتلف الحياة، وأن تنتظم مفرداتها في

سلك واحد.. هو سلك التوحيد، يجعلها كالدر النظيم..

نعم.. ما اختلفنا فى شئ إلا أنه كان يريد الحياة منتظمة، وعلى أسس ، وما كنا نريدها إلا على حالها من الفوضى، ونحن ندرك فى يقين أن حياة الفوضى لا خير فيها، ولا أمل يرجى من ورائها.

وينكث «عبد ياليل» الأرض ببقايا سهم فى يده، ثم يستطرد:

ماذا كان يريد لنا عندما دعانا إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لا شريك له، ولا أب ، ولا زوجة، ولا ولد؟

وإن اختلفنا معه ظاهريا، إلا أننا كنا نعى مدى صدقه، ومن خلال تعاملنا مع آلهتنا ، وازدرائنا لها كنا نصدقه، فما كانت آلهتنا إلا حجارة جامدة، لا تدفع شرا ولا تجلب خيرا، صنعها واحد منا فى زمن، واختفى ، وترك نمانجها أمام أعيننا.. نراها ولا ترانا، نحس بها مثلما نحس بأديم الأرض من تحت أرجلنا، ولا تحس بنا، ونفزع إليها وهى فى غيبة عنا، لا تبصر ، ولا تسمع، ولا تحس!

حتى هذا المتخذ الذى أثار عليه تراب الصحراء ، وأهال عليه حجارة الجبال، ما كنا فى أعماقنا نكذبه فيه.

آه!! لقد سبقتنا قريش فى فهم المغزى من هذه الدعوة، عندما انطوت على نفسها تفكر في الخسارة التى ستلحقها عندما يتوحد العرب فى ظل معبود واحد، وضللتنا، وهى تحارب محمدا... وإلا فلماذا عرضت عليه أن تجعله ملكا لو كان يريد الملك، وتعطيه مالا كثيرا لو كان يريد المال ... لماذا فعلت قريش كل ذلك فى مراحل الدعوة الأولى؟!

وهز «عبدياليل» رأسه يمينا، وشمالا فى أسى وحسرة !!

ماذا دهانا بيت «عبد ياليل» آنئذ ومحمد يلوى إلينا، وترفضه؟ ويلجأ إلينا ونتخلى عنه؟ ويحتمى بنا ونخذله؟ ويطمع فى كرم ضيافتنا، وحسن استقبالنا، وجميل استماعنا، ونهينه بين جدران بيوتنا، وأمام حريمنا، وذرارينا، وعلى مشهد من الجيران، والعشيرة.. ثم نطرده، ونغرى به السفهاء يزفونه بفاحش القول، ولاذع السخرية، ويقذفونه بالحجارة، ويطاردونه، ولا يتركونه حتى يغيب هناك فى الفلاة بعيدا عن

الأنظار، ولا يكلون من ملاحقته إلا عندما تباعد بيننا وبينه المسافات؟!

ويطرق «عبد يا ليل» في حزن صامت، وحيرة مفجعة:

أية رجولة بقيت لنا؟! بل أي لؤم، وأية مشأمة حاقت بنا ونحن نستقبله في دارنا هذا الاستقبال؟ وأية نخوة عربية، وأية شهامة، ونجدة، يمكن أن نتمدح بها، ونحن نرفض تأمين روعته بين ظهرانينا، وقد خرج من مكة رافضا املك قريش ومالها، حاسر الرأس تحت وقدة الشمس الحارقة، ويكاد يكون عارى البدن إلا من ثياب بسيطة تستره في قيظ الصحراء المهلكة، وقد تحمل وعثاء السفر، وآلام الغربة، وجفاء الأهل، والعشيرة، وفقد الزوج والسكن في خديجة بنت خويلد، والمظلة الوحيدة الواقية غدر الطبيعة القرشية في عمه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وليس له من رفيق يؤنس وحشته في هذه الدنيا الغادرة الماكرة إلا مولاه زيد بن حارثة، وقد تنكرت له الدنيا، كما تنكرنا لكل قيمة، ولكل مثل شريف رفيع، وقد أظلمت أمامه كما أظلمت في كل ناحية من نواحيها هنا، وهناك، وفي كل مكان:

وضرب «عبد ياليل» رأسه بيديه:

– أى بشر نحن.. وأى أناس نكون؟!

يختار بيتنا دون بيوت ثقيف والطائف عامة.. يختارنا دون أهل ثقيف كلهم، وينزل علينا مُكَرِّما لنا بنزوله، فلا نكرمه نحن؟ يأتي لضيافتنا مشرِّفاً لنا.. فلا نستضيفه، ولا نشرفه، ولا يكفينا أن نخرج على نواميس الشرف، ومواثيق الإباء العربي، وطبيعة النجدة البدوية والهمة، والنخوة الإنسانية، فنتنكر له، ونخذله، ونطرده.. بل ونحقره ونطعنه في كبريائه، وصميم فؤاده بإغراء سفلة الناس به لتجهز عليه، ونمزق منه العظم واللحم، حتى تسيل دماؤه.. دون أن نتذكر حتى مجرد ذكر ما بيننا وبينه من صهر ونسب!!

واحتبست في صدر «عبد ياليل» زفرة توشك أن تتقطع لها نياط القلب، وشعر كأن البيت تضيق جدرانه، وتلتئم على عظامه فتحطم منه الضلوع ولا يقدر على التنفس.

وجعل يدور ببصره دون أن يبصر، أو يرى شيئا كبر أم صغر ، حتى صنمه القابع في ركن من أركان البيت.. كأن خيمة سوداء احتوته.. أو طمرته الرمال تثيرها رياح الصحراء المشئومة.

تململ في مجلسه كمن يبحث عن فرجة في قبر يرى من خلالها النور..

وكاد يصرخ.. بل صرخ، ولم يكن لصرخته أي رجع لصدى.. كأنه في بئر عميقة مظلمة.. مخيفة، وهو في قاعها لا يجد من ينقذه!!

★ ★ ★

وانتفض واقفا كالمذعور يعدو خارج البيت.

لا يعرف كيف سار، ولا يعلم ماذا رأى وهو يسير، ولا يظن مجرد ظن كم قطع من مسافة في جوف الصحراء بعيدا عن البيوت.. وريح يحسها جديدة تلطم وجهه وهو يشعر كأنه يعلو من الأرض، ولم يتوقف حتى صار على قمته، وعلى صخرة هناك جلس.

وتحولت الريح إلى نسمات رقيقة.. ماذا؟

أكان كابوسا .. أم حلما مفظعا؟!

لا .. لاكابوس.. ولا حلم..

إنه واقع مر.. واقع غير صحيح.. عليه هو أن يصححه، ولا يحتاج منه إلا إلى شجاعة في اتخاذ القرار!!

ونظر إلى السماء يتأملها..

في الآفاق نجوم تلمع..

ما زال يرى.. وقد كان خال نفسه لا يرى!

ودار ببصره يمنة، ويسرة.. ورأى على البعد نيرانا تشب.. هذه هي بيوت ثقيف.. لم يبعد كثيرا إذن.

وجال مع بصره بفكره في آماد سحيقة..

فكر في كل شيء دون أن يعلق بذهنه شيء.. إلا محمدا.. احتواه في كل شيء.

منذ ردىناه هذا الرد الفاحش المنكر، وهو يدمي جسمه، وتدمع عيناه دون أن يفوه بكلمة يشتفي بها لنفسه، أو توعد يحفظ به ماء وجهه.. يكون فيه دركه لثأره.. ولو فعل فلا أحد يلومه.. فهذا حقه المشروع في الدفاع عن النفس.. وليته فعل؟!

★ ★ ★

ترى .. أكان إمساكه عن الكلام عن الرد علينا ترفعا منه، وكبرياء؟!

إن كان كذلك فما أشد ما يوقع بذلك علينا من إيذاء!!

أم كان إشفاقا علينا.. وإدراكا منه أننا في عماية جاهليتنا لم تكن نرقى إلى مستوى الإنسانية في الإنسان.. والآدمية في الآدمي؟!

إن كان كذلك فما أفظع هذا العقاب وما أقساه!! ونحن نستحقه.

ولاريب أن دموعه التي ذرفت .. ودمه الذي سال، لم يكن منا.. بقدر ما كان علينا رثاء وترحما!!

ألا ما أقواك يا محمد رغم ضعفك!

وما أضعفنا أمامك رغم قوتنا!

وما أكرمك.. وأسخاك رغم قلة الزاد والراحلة!

وما أفقرنا، وأتعسنا، والمال عندنا لا يعده عاد، ولا يحصيه محص؟!

كنا نظنك ، وأنت تقتحم بيوتنا علينا، لتعرينا لأنفسنا.. أنك تقتحم عرين الأسود واعتقدنا، ونحن لا نملك أمامك إلا هز ذيولنا أننا الذين نعريك، وكنت تنبهنا في جهالتنا إلى مبلغ ضعفنا، وقلة حيلتنا.. وكنا نعتقد أننا الذين نلعب معك لعبة الأقوياء مع من لا حول له، ولا حيلة، ولا رجاء!!

ألا ما أشد غباءنا!! بل ما أشد ضلالنا، وتيهنا في حياة خلت من كل مقومات الحياة ما أشد ضلالتنا، ونحن ننهش اليد الممتدة إلينا بالحياة على طبق من نور!!

* * *

هزمت يا محمد قريشا في بدر.. ثم في أحد رغم ما بدا على السطح.. ثم هزمت الأحزاب، ومن تصدى لك من العرب في كل مكان.

وكنا لا نظنك تنتصر أبدا، وأن إلهك سيخذلك، وستنتصر العرب آلهتهم، فلم يتخل عنك إلهك.. وقد تخلت عن العرب آلهتهم!!

* * *

أدرك الآن لماذا تركت ذيول الأسود.. وتعاملت مع رؤسها، وكنت تصر عندما يواجهونك ما داموا قد بدأوا العدوان: إما أن تتصلح هذه الرؤس أو أن يطاح بها! حتي عندما اعتقد العرب بصلحهم معك في الحديبية، وبما وضعوه من شروط للصلح أنهم نالوا منك.. كنت أنت الذى تنال منهم، وتنتصر عليهم بشروطهم، وبتودهم التى وضعوها!!

أية قوة قاهرة تساندك!؟

فتحت مكة المعقل الأخير لصناديد العرب، فخضعت مكة، وقانون الحرب يمنحك سوق مكة كلها فى السلاسل، والأغلال، والإطاحة برؤس .. واسترقاق رؤس.. ولكنك أعلنت العفو الشامل.. وحكمت التسامح الذى ما بعده تسامح، وقد شخصت إليك أبصارهم فى رعب ليس مسبوقا بمثيل ، وهم يتساءلون:

ماذا أنت فاعل بنا!؟

وتعلنها مدوية تهتز لها جدران الدنيا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

من أنت!؟

★ ★ ★

وكان يجب أن ينتهى مسلسل الكره، والحقد، والثأر..لكن هوازن عادت تثير ما عفا عليه الزمن.. وعبأت قواها .. وحشدت حشودها ضدك.

وقادنا الطيش والعمى فاشتركنا مع هوازن في حنين، وكنا فى حنين أسودا لا تدرى أن عقولها فى ذيولها، وذيولها فى عقولها!!

جاءت هوزان ومن تحالف معها..

ونحن تحالفنا معها..

جاءت هوزان بقضها، وقضيضها..

ولقيتنا،أثبتٌ أننا فى هديرنا الفارغ الأجوف لم نكن إلا ثغاء كثغاء الشياه، وها هى ذى طوابير الأسرى ممن واجهوك بالألوف من الرجال، والنساء، والشباب.. من الأشراف .. ومن غير الأشراف.

والغنائم يتركونها لك كالجبال ضخامة..

ومن بقي على قيد الحياة ولم يقع في الأسر.. من فر هاربا هائما على وجهه.. من نجا برأسه من سيوف أصحابك، وأخذ يضرب في الصحراء بلا نصير، ولا دين، ولا أهل ، ولا ولد، وقد خسر كل شيء ، ولم يكسب شيئا.. عاد بالعار، وخزى الدهر!!

وكان لا بد أن تأتينا في ثقيف غازيا.. لا.. بل مؤدبا..

هذه المرة كان معك جيش .. وجيش لا يدرى مبلغ قوته، هو جيش ينتصر أبدا، وكنا، وما زلنا في عماية من أمرنا، ومن كثرة عَدَدِنا، وضخامة عُدَدِنا، ووفرة المال لدينا، وتوهمنا الشرف، والسيادة والحسب!!

اعتقدنا أننا المنتصرون، وكنا نحن الخاسرين!!

حاصرتنا .. وقبعنا في دورنا.. وخلف أسوار حصوننا كالعجائز أو كالإبل البهم في الحظائر..

اعتقدنا أنها تصفية حساب قديم..

وأشهد يا محمد أنك أوجعتنا في حصارك لنا، وضربك إيانا من خلف الأسوار ، وقتلك لنا !!

وأشهد أيضا أنك كنت تستطيع إبادتنا، ونحن لا نملك إلا الاستتار خلف وهم القوة الكاذب..

وما كنا نمتنع عليك مهما أوتينا من قوة.. فما كانت قوتنا إلا جعجعة بدون طحن.. إن هي إلا أرقام صماء تحصي عدد ما عندنا من إبل وشاة وخيل.. وهي الأرقام ذاتها التي نحصي بها عدد الرجال، وما معهم من أسياف، ونبل، ورماح!!

وكانت قوتك المحيرة.. والتي أعجزتنا في فهمها، وإدراكها تسوق أمامها قوتنا الرقمية.. ثم تأخذها غنيمة بعد النصر.

أشهد يا محمد أنك أوجعتنا، وجعا لم تحس به الدنيا كلها من قبل، ولن تحس به من بعد، وأنت تنصرف عنا.. وكان في إمكانك على الأقل أن تسوقنا في الأغلال إلى المدينة تضحك الدنيا كلها علينا كما سقت هوازن، ومن جاء معها في حنين!!

لكنك مرة أخرى توجعنا بتركك لنا، وانصرافك عنا، وكأننا لسنا أهلا لمنازلتك؟

★ ★ ★

لماذا تركتنا يا محمد.. وأبقيت على حياتنا، ولم تبدنا!؟

واعتصر «عبد ياليل» ذهنه:

لنتعذب في ضآلتنا أمام عظمتك، ونشقى بضعفنا أمام قوتك.. لتثبت أننا جبناء رعاع في الحرب كما أثبت من قبل أننا رعاع، وجبناء في السلم!؟

لتقول لنا إننا أحقر من أن تتصرف إلينا قوتك، فتركتنا إلى تبوك حيث لا عدل لقوتك على هذه الأرض إلا قوة الروم الخرافية!؟

واستند «عبد ياليل » إلى حجر على هذا المرتفع، ولم يكن هذا الحجر إلا نموذجا لمعبوده «اللات».

وعندما تبينه اتجه إليه متسائلا في حيرة ، وحنق شديدين:

هل تستطيع أن تقول لي: لماذا فعل محمد ذلك!؟

وتأمل وجه الصنم على ضوء النجوم الباهت، وهو يردد في سخرية:

أحذرك أن توقع في روعي أنك أخفته.. أو أن قوتك هي التي ردته.. أو أن لك سحرا أثر فيه!!

ثم ضرب بيديه وجه الصنم في غيظ:

هلا تقول شيئا !؟ قل إن كان عندك ما تريد قوله!! قل إن كنت تستطيع القول.. ألا ما أغباك من إله، وما أبشعك!!

★ ★ ★

وتلمست أذناه، وقدماه على الأرض وقع حوافر خيل،

فترك مكانه.. وهرع إلى بيته يتكفا في طريقه، ويتعثر في الحصى والرمال مفزعا وخال نفسه يصيح:

إنها خيل محمد.. لقد عاد محمد من تبوك.. إنه الغزو من جديد!!

ودخل داره وهو يكاد يهذي:

يا ويلنا من محمد إن لم نفهم محمدا.. ونعرف كنه ما يدعو إليه.. ونقدره حق قدره فلا منجاة من محمد إلا محمد نفسه!!

وقبل أن ينتظر «عبد ياليل» ليرى صدى صياحه المزعوم بين قومه.. دخل بيته، وأغلق عليه بابه.. ودار في صحن الدار حول نفسه كمن به مس؛ فلم يستقر بعد على قرار،

ثم استند إلى أريكة صادفته، وألقى بجسمه عليها خائر القوى، ولم يتنبه إلا على صوت يقتحم عليه خلوته.. إنه صوت رسول عمرو بن أمية أحد أصحاب، «عبد ياليل» وأحد دواهي العرب المعدودين!!

* * *

واقتضب «عبد ياليل» حديثا سريعا مع الرسول ، فهم منه أن صاحبه يريد أن يلقاه..

وسمح للرسول بالانصراف ليبلغ الصاحب العزيز أنه في انتظار مقدمه الكريم، وقد أحس بعض الهدوء.. وبعض الراحة.

فلم تكن حوافر خيل الغزو إلا من نسج خياله..

ثم تهيأ للخروج لاستقبال صاحبه، والترحيب به، ودعوته إلى ضيافته.. فما أحب لقاء الأصحاب فى هذه الأوقات، وما أكرمهم يملأون فراغا تحس به النفس ساعة الوحشة!!

خرج للقاء صاحبه، وكأنه يجد فى مقدمه طوق نجاة من بحر حيرته، وخوفه وشقائه وتعاسته.. ولم يفكر للحظة واحدة فيم وراء هذا الصاحب، وما الذى يدعوه إلى زيارته فى هذا الوقت المتأخر من الليل؟

ولو كان فى موقف غير هذا الموقف، ووقت خلاف هذا الوقت لامتشق حسامه، وتنكب قوسه، وامتطى جواده.. فمثل هذه الزيارة فى هدأة الليل دعوة للنجدة.. هى صريخ بغير صريخ.. والعربى العربى يُدعى دون دعوة لأن يسرع النهضة في الصريخ!!

* * *

- والتقيا.. وكان السلام قصيرا، والترحيب أطول قليلا من السلام.

ودار بين الاثنين حديث .. لا هو بالطويل، ولا هو بالقصير.. إنها زيارة عمل.. قصد

الصاحب منها توصيل رسالة.. بل نصيحة.. هي من صديق لصديق.. يتوقف عليها إما بقاء ثقيف كلها إن هي استجابت لها، ولم تعرض عنها.. أو أن تهلك ثقيف كلها كذلك إن هي تجاهلتها، وطرحتها وراءها ظهريا!!

وصادفت البذرة الطيبة أرضا معدة.. فقط هي في حاجة إلي الرعاية.. فبكثير من الجهد، وقليل من الصبر تصير البذرة شجرة، وتؤتي أكلها.. عندما أشار «عبد ياليل» إلى صاحبه أن يلقي بما عنده طوق نجاة كان أو حبل بقاء.. وأن يبسط له القول فيما جاء له، فقد ضاقت عليه السبل، ويقينه صراحة أن لا منجاة من محمد إلا محمد.

وتبسم الصاحب تحت ضوء النجوم الشاحب أمام البيت، وقد أدرك أن وفادته لن تذهب سدى، وأن كلامه سوف يكون ملء السمع والبصر، ونصحه سيجد عقلا متفتحا، وقلبا واعيا.. فقال:

– قد علمت يا صديقي ما كان عليه أمر محمد وما صار إليه.

فقال «عبد ياليل»:

– لا تزد همي!!

فقال عمرو بن أمية:

– وهل هناك ما يشغلني، ويشغلك.. بل ويشغل الدنيا كلها سواه؟

أتذكر يوم أن جاءكم هنا أول مرة .. وقدماه متورمتان، وقد نال منه التعب والمسير.. ودخل داركم: أمنع دار في ثقيف.. بل أمنع دور العرب.. وليس معه إلا زيد بن حارثة.. لا أهل، ولا ولد.. ولا مال، ولا رجال ولا سلاح..

جاءكم وليس معه سوى كلمة الله يدعو إليه، وألا يعبد في الأرض سواه!!

فأشاح «عبد ياليل» بوجهه في حزن عميق:

– قلت لا تزد همي!!

فأردف عمرو بن أمية:

– لقد رأيت من حاله الآن ما رأيت.. فمحمد لم يتغير، وقد تغير العرب جميعا..

ومحمد لا يزال يدعو لإلهه الواحد وألا يعبد في الأرض سواه!! وصار العرب يدينون لإلهه، وله بالطاعة والولاء.. وها هو ذا الإسلام الذي نبت في الجزيرة غريباً، تمتد جذوره في الأعماق، وتنتشر فروعه في كل الأصقاع ... وغدت تظلل راياته القبائل العربية والعشائر والأحياء.. أينما وليت وجهك، وحيثما يممت بصرك.

وصمت لحظة.. ثم أردف:

وها هو ذا محمد الذي جاءكم أول مرة وحيداً، يجيئكم هذه المرة بجيش لم تعرف العرب من قبل له نظيراً... لا في عدده ولا في إعداده، ولا في إيمان وقوة رجاله.. فيدك حصونكم، ويوشك أن يقتلعها من جذورها اقتلاعاً ثم ينصرف عنكم بعد أن كادت تذهب نفوسكم!!

ألم يسأل أحد منكم نفسه: لماذا فعل محمد ذلك؟! لماذا ترككم ، وكان إزهاقكم وشيكاً؟! ووالله ما علمت رغم ذلك أنه يريد بكم سوءً ولا شرا .. وإنه كان وما يزال يرجو لكم الخير!!

فتمتم «عبد ياليل»:

– الخير؟!

وأكمل عمرو بن أمية:

– قد تجدني غير منطقي فيما أقول أمام واقع الحصار المر، وما صحبه من قتل ، وحرق وتخريب فماذا كنت تنتظر من حرب غير هذا؟! لكن ستذهب دهشتك عندما تعرف هذا الخير!

فاعتدل «عبد ياليل»:

– هاته إذن، فلقد اعتاش على الأمر، وكأنني أمام لغز جعلني لا أستطيع فهمك ياصاحبي!!

فقال عمرو بن أمية:

– إذن فاسمع باهتمام، وفكر جيداً فيما تسمع مني قبل أن يصلني جوابك.. ومحمد يحكم الحصار حولكم طلب منه أحد أصحابه أن يدعو الله عليكم ليهلككم فقد ثبت

لأصحابه أنه لو دعا ربه فإنه يستجيب له، ولو فعل محمد فإنكم ستهلكون لا محالة.. بلا ضرب.. و بلا كر أو فر، ويستريح منكم، ويريح أصحابه من عناء حرب يوفرون طاقاتها ومشقاتها، والجهود المبذولة فيها لميدان آخر ولقوم سواكم!!

وها أنت ذا ترى ما صار إليه.. فلقد ذهب بعد الانصراف منكم بجهده كله ليواجه الروم.. ألا تقول لك هذه المسيرة شيئا؟!

لقد وعت العرب كلها مغزاها، وخصوصا أنه لم تواجه حملته أية مشاكل من أي نوع لا في الذهاب، ولا في طريق العودة!!

وعلى حدود الروم صنع محمد صلحا.. وأقام أحلافا مع عرب غسان، وقد عجزت الروم بقوتها الخرافية عن أن تواجهه، وكان عجزها أكبر أمام ما صنع من صلح، وأمام ما أقام من أحلاف مع صنائعها في المنطقة.. وجاء وصيحة لا إله إلا الله محمد رسول الله تفزع الوثنية هناك خلف التخوم!!

وصمت «عمرو بن أمية» لحظة، وهو يتفرس ملامح صاحبه الغارق في بحر متلاطم من الأفكار وسيل لا ينقطع من الموازنات ثم قال:

– ألا ترى ياصاحبي أن محمدا بخروجه للقاء الروم قد صفى الموقف العربي تماما!!

وألا ترى أن العرب قد انتهى أمرهم عند محمد ؟!

وأثق تماما أن من بقي في الجزيرة ولم يلقه محمد.. فسيسعى هو إليه يبايعه مسلما موحدا غير مشرك، وغدا تنبئك الأخبار!!

وقال «عبد ياليل»:

– وبم أجاب محمد صاحبه؟! هل دعا علينا؟!

وأشرق وجه عمرو بن أمية:

– لا يا صديقي.. لقد دعا لكم، ولم يدع عليكم!!

فقال «عبد ياليل» في اهتمام:

– وكيف!؟

أجاب عمرو بن أمية:

– قال محمد في جواب صاحبه: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم».

فاتجه «عبد ياليل» إلى صاحبه، وعيناه تلمع ببريق غريب:

– أوقال محمد ذلك حقا!؟ إن هذا يفسر سر رفع الحصار عنا!؟

فقال عمرو بن أمية:

– أولم أقل لك: إن محمدا ما كان يريد بكم إلا الخير!؟

فقال «عبد ياليل»:

– وبم تشير علي..!؟

ووجد عمرو بن أمية الفرصة سانحة، فألقى بآخر ما عنده، وما دعاه إلى المجيء في أحشاء الليل وتحت جنح الظلام:

لقد أسلمت العرب كلها يا صاحبي.. وأنتم لن تواجهوا محمدا بعد اليوم وحده بل ستواجهون من ورائه كل العرب.. وأنتم وحدكم ليس لكم بحرب محمد طاقة، فانظروا في أمركم!!

فقال «عبد ياليل»:

– أسلمت العرب جميعا.. ذاك صحيح، وليست لنا بحربهم طاقة.. وذلك أيضا صحيح. وكفى ثقيفا ما حاق بها بسبب عنادنا وكبريائنا الزائف.. وهذا أيضا صحيح! ثم بسط يده لصاحبه، وهو يودع كبرياء زائفا، وهو يتخلى عن عناد كثيرا ما أوردهم موارد الهلكة، وقد شع من عينيه ضوء مثير.. انعكس على كل المرائي، فبدت في ثوب جديد، وشعر بهدوء يتسلل إلى عقله، وقلبه.. هدوء لم يألفه من قبل، وأحس براحة ذات مذاق مثير.. وقال لصاحبه:

– نعمت.. ونعمت مشورتك، وإني والله منذ اللحظة فاعل!

* * *

وتهيأ لثقيف أن تجتمع حول دار «عبد ياليل» بعدما سمعت من وقع حوافر الخيل، وبعد أن انتشر بين ربوعها من خبر وفادة عمرو بن أمية على بيت «عبد ياليل» وطرح الأمر بينهما.

وجعل الجميع يتدارسون كل الظروف، والملابسات، وعقد الموازنات في دقة متناهية، وأن تخرج ثقيف كلها باقتناع يكاد يكون تاما، وهو أنه لا أمن، ولا أمان بعد اليوم إلا في ظل الدين الجديد، وأنه لا بد من الانقياد الذي تأخر زمنا ليس باليسير... ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى محمد بالمدينة وفدا يمثلهم يعلن أمامه بيعتهم بالإسلام واعتناقهم الدين الجديد، وإقرارهم بربوبية الإله الواحد في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

* * *

وقع اختيار القوم على «عبد ياليل» من ثقيف كلها.

وكان هذا متوقعا، تفرضه طبيعة الظروف، وموقع «عبد ياليل» من ثقيف كلها.

ولم يرفض «عبد ياليل» الاختيار.. فهو له بلا مراء.. فقط .. هو لا يذهب وحده إلى محمد وليكن معه ثلة تمثل ثقيفا كلها بكل شعابها، وبطونها ، وأحيائها.

فلا تزال صورة «عروة بن مسعود» الثقفي ماثلة أمام عينيه.. كأنها لم يمر عليها سوى لحظة من الزمن.

فبعد أن أنهى الرسول ﷺ حصاره للطائف.. وقفل بجيشه عائدا إلى المدينة يجهز للخروج لتبوك تخلص «عروة بن مسعود» من قومه، وترك ثقيفا خلفه يتبع أثره. وظل يغذ السير وراءه حتى أدركه في طريقه، قبل أن يصل إلى المدينة، وأسلم على يدى رسول الله الشريفتين.. ثم طلب من الرسول أن يأذن له في العودة إلى ثقيف كرة أخرى. وكان «عروة بن مسعود» ظنه بقومه حسن، فذكر لرسول الله ﷺ ما يطمئنه عليه، وعلى إسلامه، مبينا أن منزلته من قومه تجيز له ذلك.

وكان «عروة» فيهم مجابا مطاعا، بل كان كما قال أحب إليهم من أبكارهم ومن نور أعينهم، وعاد الرجل راجيا إن هو دعاهم إلى الإسلام ألا يخالفوه.

ومسعد مرتفعا بينهم.. وفي وسطهم، ونادى فيهم بنداء الإسلام، ودعاهم بدعوة التوحيد، مظهرا لهم دينه، محرضا لهم ليتبعوه.. وسلموا

والتفوا حوله من كل ناحية.. وفاجئوه لا بالإسلام وإنما بأن أمطروه من كل اتجاه بسيل من السهام حتى قتلوه، و «عروة» لا يعبا لهم، ولا لسهامهم.

فقد أسلم، وحسن إسلامه، واحتسب مالاقاه في سبيل الله.

ولما سئل وهو في النزع الأخير لشدة إصابته:

«ما ترى في دمك؟»

قال:

«كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم».

ونفذت عشيرته وصيته، ودفنته مع شهداء المسلمين في حصار ثقيف.

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا ﴾ ﴿ الأحزاب: ٢٣ ﴾

* * *

لا تزال صورة «عروة بن مسعود» ماثلة في ذهنه.. ذهن «عبد ياليل» تسترجع مخيلته خيوطها .. وحروفها.. خيطا خيطا.. وحرفا حرفا، ولا تزال ألوانها رغم تقادم العهد بها كأنها تصطبغ في اللحظة، وخشي إن هو ذهب إلى الرسول ثم بايعه، وعاد وحده معلنا إسلامه وداعيا قومه إلى ما آمن به أن ينكلوا به كما نكلوا بـ «عروة» من قبل.

والموقف دقيق بالغ الدقة.. حساس أشد ما تكون الحساسية.. لذا كان طلبه الوحيد ألا يذهب وحده، وألا يعود من عند رسول الله وحده.. بل لابد من فريق معه في الذهاب والعودة.. فريق يمثل ثقيفا كلها.

ومادامت المسألة منذ بدايتها قائمة على الحسابات الدقيقة، والموازنات المتناهية في

الثقة فلتكن هى فى النهاية بنفس حسابات البداية وموازناتها.

وقدر إن حدث له من قومه ما حدث لـ «عروة» من قبل ألا يكون وحده مستهدف القوم ولسوف يشغل كل فريق من ثقيف بمن كان منهم فى الوفد، وينجو «عبد ياليل» إن لم ينج من معه!

واختار القوم وفدهم معه.

فكان من الأحلاف: الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن مسلمة ابن معتب.

ومن بنى مالك: عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان «أخو بنى يسار»، وأوس ابن عوف «أخو بنى سالم بن عوف» ونمير بن خرشة بن ربيعة «أخو بنى الحارث».

وتأمر عليهم «عبد ياليل» وقاد مسيرتهم إلى المدينة.

★ ★ ★

واعتدل الميزان.. الطالب يصير هو المطلوب، ومن رفض «عبد ياليل» وقادته يوما، ولم يحترم ضيافته فى بيته، ورده ردا لئيما خبيثا، وأهانه بإغراء السفهاء به، يطاردونه حتى يخرجوه من بينهم، وهو يضرع إلى ربه داعيا:

«اللهم اهد قومى، فإنهم لا يعلمون» يقوى عوده، ويشتد ساعده، ويطارد الكفر فى مواقعه، ويعود يطلب «عبد ياليل» وقومه، ويشدد عليهم الحصار وعلى كفرهم، وعندما يضيق الخناق عليهم، ويصل الضيق بهم مداه، وتبلغ الروح منهم الحلقوم، يفك الحصار ويعود وهو يدعو لهم: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم».

وقد اعتدل الميزان بهدايتهم، ووفادتهم على رسول الله ﷺ.

نعم: يعتدل الميزان صوب الإنسانية، ويدنو الركب من المدينة، ويتلقاهم «المغيرة بن شعبة» وينزلون عليه فى جانب من جوانبها، وهو يرعى ركاب الرسول ﷺ وأصحابه فى نوبته.

ويسعد المغيرة لمقدمهم.

ويرحب بمجيئهم ترحيب محب صادق فى حبه.

ولفرط سعادته يترك الركائب.. وينطلق على عجل يخبر الرسول ﷺ باستجابة الله لدعائه في ثقيف.. ينطلق في سرعة الريح.. ليبشر الرسول بقدوم ثقيف.

وتتلاحق الأحداث.. فليقاه في طريق عَدْوِه أبو بكر الصديق، ويعلم منه الخبر، فيقاسمه سعادته، ويشاطره فرحته، فقد كان وفد ثقيف هذا هو أول وفد يصل إلى المدينة مبايعا بالإسلام بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك، ويطلب أبو بكر من المغيرة أن يسمح له ليكون هو مبلغ الرسول الكريم بشأنهم.. ويتنازل المغيرة عن رضا وسماحة، فما يهمه أن يكون هو أو أبو بكر محدث الرسول فيهم.. ما يهمه هو أن ثقيفا جاءت، واستجاب الله دعاء نبيه الكريم فيهم: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم».

* * *

ها هي ذي ثقيف أتت.. يحدث أبو بكر رسول الله ﷺ ويخبره خبرهم.. بينما يرجع المغيرة يلازمهم، ويكرم وفادتهم في انتظار ما قد يأمر به الرسول ﷺ بشأنهم.

ومنذ اللحظة الأولى لقدومهم يدخلون المدرسة الإيمانية..

وها هو ذا المغيرة يهيئهم للالتحاق بها.. فيعلمهم الدرس الأول في المنهج الإيماني، ويشرع يعلمهم تحية الإسلام، وكيف يحيون بها رسول الله ﷺ عندما يشخصون أمامه تاركين تحية الجاهلية!!

* * *

بعض الرجال جاء صادق الرغبة .. مخلص النية.. وبعضهم لازال في أعماقه بذور شك.. لا بأس : فقد جاءوا إلى الهدى والنور، ولسوف يذهب النور بكل أثارة لظلمة، ولسوف يقضي طبيب القلوب والنفوس، على كل نبتة شيطانية لا تزال في القلوب ، والضمائر ، ولن يفلتهم الخير أبدا.

ويهش الرسول ﷺ لمقدم القوم.. ويبش لهم، ويكرم وفادتهم ، ويرون جميعا من السماحة والود، والحب الصادق ما لا عهد لهم به، ويحسون في حضرته، وبلا استثناء هدوء بال، وراحة ضمير ، وطمأنينة نفس لم يألفوا مثلها أبدا ، ولو للحظة واحدة في حياتهم الماضية!!

مشاعر فياضة بالرحمة، والإخاء، والحنان، كانت هي الزورق الجديد الذى وجد «عبدياليل» نفسه، ومن معه، داخله، يعبرون به بحر الحياة المتلاطم!!

مشاعر فياضة بالرحمة، والحنان ، والإخاء أخذت تتفجر ينابيع حب، وود وإنسانية، من قلب «عبد ياليل» فتتلاشى معها مشاعر الحقد، والكراهية، والغطرسة، والكبرياء الزائف... ونور يتسلل إلى قلبه، شيئا فشيئا، حتى أحاطه، وقشع عنه، وإلى الأبد، ظلمة الجاهلية

ألا ما أكرمك يا محمد وأنت تبدو وكأن شيئا لم يحدث .. فلا عتاب، ولا ذكر لما مضى، ، وكأنه لم يكن.. وكأنك لم تُهَنْ في بيوتنا، وكأنك لم تجد مرارة الطرد من دورنا!!

ألا ما أكرمك يا محمد، وأنت تنسى كل إساءة، ولا تتذكر أية سيئة، وتعاملنا، وكأنك تلقانا لأول مرة، وكأننا لم نتصد لك، ولم نحاربك.. ثم تشعرنا كأننا عندك أحسن مما نكون في دورنا وبين أهلنا وولدنا!!

ألا ما أكرمك يا محمد وأنت تبدى من السماحة، والود ما يجعل ألم الذكرى .. مجرد ألم الذكرى، يتلاشى أمام عظمتك، ولأنت يا محمد رسول الله حقا وصدقا.. ولنحن كنا المكذبين الضالين!!

* * *

وكان «عبد ياليل» أراد طلب الصفح ، وطلب المغفرة، وتكاد تجأر عقيرته بما يحتبس في داخله أوتعفو عنى يا رسول الله؟!

وما يمنعه سوى مهابة من سماحة الرسول، ووده وتجاهله.. بل تسيانه ما مضى وكأنه لم يكن شيئا مذكورا.

ما يمنع «عبد ياليل» سوى مهابة لفته فى أرديتها المعبقة بعطر الإيمان، شغلته عن كل شيء حوله، وفى داخله.

ولم طلب الصفح.. وقد صفح؟

ولم طلب المغفرة.. وقد غفر؟!

ولم طلب العفو.. وقد عفى؟!

ويكاد «عبد ياليل» يذوب ألما، وأسفا، وحسرة على ما بدر منه، وما كان من قومه، ومن ثقل إحساسه بالذنب فى ساحة السماحة والعفو يوشك أن ينهار لولا أنه يولد من جديد!!

نعم: بالإسلام يولد «عبد ياليل» من جديد، ويصير مخلوقا جديدا يشعر لأول مرة بقيمته.. وكيف لا؟ والرسول الكريم يقول: الإسلام يجب ما قبله؟!»

* * *

واقتضى الحال أول الأمر طرفا ثالثا ينقل للرسول ﷺ أفكار الثقفيين.

ويوصلهم من الرسول دعوته، وتعاليم الإسلام.. فكان الذى يمشى بين الرسول وبينهم خالد بن سعيد بن العاص.

وتتوالى الدروس الإيمانية، إلا أن ثمة هنات حدثت من الوفد مدعاها، كما سبق آنفا، بعض شكوك لا تزال عند بعض أفراد من الوفد لقرب ما بينهم وبين جاهليتهم فكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من رسول الله ﷺ إلا إذا أكل منه خالد بن سعيد.. لا بأس، فليأكل خالد مبتدئا.. ثم يأكلوا.. ولسوف تمتلئ بطونهم طعاما، هو طعام الرحمة!! ويسألون رسول الله أن يترك لهم «الطاغية» وهو اللقب الذى كانوا يطلقونه على «اللات» يتركه لهم رسول الله ثلاث سنوات يهدمها بعد ذلك إن أراد هدمها بعد هذه المدة..

ويأبى رسول الله ذلك.. ويعلمهم عبادة الواحد الأحد.. ونبذ الشرك.. والكفر فى أى شكل كان أو مسمى!!

ويتدرجون فى الطلب حتى يطلبوا أن يترك لهم الطاغية شهرا بغية أن يكون فى تركها سلامة لهم من سفهاء قومهم، ومن ذراريهم ونسائهم:

والمعلم الأول صابر عليهم.. يلقنهم الدرس تلو الدرس فى حكمة، وموعظة حسنة وهو يرفض فى يقين ذلك المطلب أيضا.

* * *

ويسألون رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة.. ويعلمهم نبى الرحمة أنه لا خير فى دين لا صلاة فيه»

وتتهاوى الحيل، وتسقط المعاذير، ولا يكون ثمة حجج.. ثم يسلمون، ويبايعون بالإسلام.

* * *

ويعلمهم بلال وهو يأتيهم بطعام رسول الله كيف يكون الصيام، فقد كان وفودهم على رسول الله في رمضان .

يعلمهم بلال كيف يكون الصيام في رمضان .. متى الفطور؟ ومتي السحور؟ ومتى الإمساك عن الطعام؟. ومن لطيف ما حدث أنهم كانوا يقولون لبلال وهو يأتيهم بالسحور:

«إنا لنرى الفجر قد طلع» فيقول بلال.. «قد تركت رسول الله ﷺ يتسحر، وذلك لتأخير السحور» وكانوا يقولون عندما يأتيهم بالفطور: «ما نرى الشمس كلها قد ذهبت بعد» فيقول بلال:

ما جئتكم حتى أكل الرسول صلى الله عليه وسلم».. ثم يضع بلال يده في الإناء حتى يكون أول من يأكل!

* * *

ويطلبون من رسول الله ﷺ ألا يكلفهم بهدم أصنامهم بأيديهم إن هم عادوا إلى أقوامهم، ويوافقهم الرسول العظيم، ويستجيب لهم نبي الرحمة.

أليس الإسلام يسرا؟ و﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ ﴿ البقرة: ٢٨٦ ﴾.

ثم يكلف رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، وهو من ثقيف، وأبا سفيان. ابن حرب أن ينطلقا مع الوفد في طريق العودة، ويحطما الأصنام، والأوثان، ولا يتركا لصور الشرك أثرا هناك، وأن يتحفظا على ما لهذه الأصنام من وقف عليها، ومن نذر وقرابين قدمت لها، وما في حوزتها من أموال ذهبية وخرز!!

وينتهي الوفد من البيعة بالإسلام بيعة كاملة، ويكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم يؤمنهم فيه على ديارهم، وأموالهم، وأنفسهم!!

ويؤمر عليهم في عودتهم أحدثهم سنا.. يؤمر عليهم «عثمان بن أبي العاص» الذي

قال فيه الصديق أبو بكر:

«إنى قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام، وتعلم القرآن»

ويعهد الرسول الكريم ﷺ إلى الأمير الجديد بآخر عهد قبل الرحيل:

« يا عثمان.. تجاوز في الصلاة.. واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير، والصغير، والضعيف وذا الحاجة».

ويقر الوفد الإمارة بلا شحناء، وبلا ضغينة.. وبلا حقد!!

* * *

ويعتدل الميزان صوب الإنسانية.. فلا تكون قيمة الإنسان بما عنده من ذهب وفضة ولا بما له من غزوه ، وبعدد رجال وعُدَد وسلاح.. ولا يكون تفاخر بالأحساب والأنساب فمنذ اللحظة ... الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، والعمل الصالح».

ويعطيهم نبى الرحمة شروطهم، ويكتب لهم كتابهم، ويأذن لهم في العودة.. تكلؤهم عناية الله، وتحوطهم رعايته وتحف بهم ملائكة الرحمة!!

وينطلق الوفد ظافرا إلى ثقيف.. نورهم يسعى بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، والسكينة تغمر أرواحهم، والرحمة تهز أعطافهم ، وتوقظ فيهم شمائل الإنسانية الرفيعة، وتقترب قافلة النور من ثقيف، ويوشك الجمع على إيتاء القوم..

وتنبثق من أعماق اللحظة الجادة بعض الطرائف.. فيحاول المغيرة جريا على عادة القوم أن يقدم أبا سفيان لكبره، ومنزلته لما اختاره الرسول له: يضرب بمعوله جسد الشرك، فيهدم الأصنام، ويحطم الأوثان.

ويحتال أبو سفيان على المغيرة زاعما أن القوم قومه، وهو أولى بالدخول عليهم، ولا ضير إن هو أعمل فى الأصنام معوله.

ويقبل المغيرة غير هيابه، ولا وجل ، ويعلو «الطاغية» من فوره، يطؤها بحذائه، وهو

يُكبّر، ويعمل فيها معوله، ومن دونه بنو معتب قومه يحيطونه من كل جانب خشية أن يرمى أو يُصاب كما أصيب من قبل عروة».

* * *

ومن طرائف اللحظة كذلك أنه لم يتحسر على هدم «الطاغية» ولم يحزن على زوالها إلا أبو سفيان، ونساء ثقيف.

فقد خرجت النساء ينحن، ويولولن، ويبكين، ويقلن محرضات الرجال لحمايتها، وإعتاقها من معول المغيرة:

لتَبكينْ دُفَّاعْ ** أسلمها الرُضَّاعْ
لم يُحسنوا المِصَاعْ (١)

---

(١) المِصاع: الضرب والقتال، أي أسلمها اللئام حين كرهوا القتال.

وأبو سفيان الذي جاء مكلفا بمشاركة المغيرة في هدم الأصنام يتنحى، ويقف على البعد ينظر إلى «اللات» والمغيرة يعلوها بجسده، ويطؤها بنعله، ويعمل فيها معوله هدماً، وتقويضا .. أبو سفيان يقف على البعد ، وينظر إلى «اللات» وهى تتقوض فى تحسر قائلا:

«واها لك.. آها لك!!».

ولا عجب .. فربما حنين لا يزال يشده إلى الماضي.. إلى الجاهلية، فقد كان له فيها دور وأى دور!! سيادة في قومه.. وقيادة لجيوشهم.. وحماية لقوافل تجارتهم، وثراء أى ثراء من تجارته، ومخصصاته من الربا، وعوائده.. كانت لأبى سفيان في الجاهلية كلمة فى السلم، وفي الحرب، فى نظام اجتماعى تعلو فيه كلمة السيادة.. والأغنياء.. والأقوياء، ولا ترتفع فيه سوى صيحة القوة تصطك لها أسنان الضعفاء!!

وأبو سفيان رجل يحب الفخر، وقد جعل رسول الله ﷺ له يوم فتح مكة شيئا تتضاءل بجانبه كل ما كان لأبى سفيان فى كل حياته الماضية.

وها هو ذا طبيب القلوب يجعل له شيئا آخر يكون فى التاريخ لو صدقت السرائر، وحسنت النوايا ما بقى التاريخ.

* * *

فى موقف واحد.. ولحظة واحدة من هذا الموقف تحظى ثقيف كلها بما يتلاشى بجانبه كل ما أنفقت من أجله حياتها الماضية كلها.

تحظى ثقيف بالهدى والنور، وينجح المغيرة في أن يجعل هذه اللحظة خالدة على الزمن، فقد شهدت ميلاد حياة، وانتشار حياة، وتبدل فيها مجتمع من النقيض إلى النقيض إذ خرجت من الصدفة لؤلؤة.. كانت مخاض البحر الهائج.. المتلاطم موجه.. جاءت من الأعماق .. لؤلؤة مشرقة.. معجبة.. شع ضوؤها على الموج فهدأ، وتعاظم لألاؤها على البحر فسكن.. تسعد من يصادفها، وتصادفه، وتبهج من يراها وتراه.. هى عقيدة سمحة.. جاءت من أحشاء الزمن.. خلاصة ما حوى الزمن فى الماضي منذ الخليقة الأولى للحاضر، والآت.. سيطرت على الزمن فانتظم.. وعلى الكون، فانضبط، واستعد بها يستقبل الإنسان لصالح الإنسان.. ما فهمها الإنسان!! عقيدة من صنع الخالق.. هى حبه لمخلوقه، ويسره لعابده، توقظ فى الآدمى الآدمى.

وتحيي في الإنسان الإنسان.. تشعره بكرامته، وتفتح عقله وقلبه على عظيم سر المبدع فيه.. وتفضيله على كثير ممن خلق ليؤدي رسالته التي خلق لها، وغيبته عنه جاهليته عندما غيبته عن فهم السر فيه.. فلا سادة، ولا عبيد، ولا أقوياء ولا ضعفاء.. ولا أغنياء ولا فقراء.. الكل أمام الله سواء.. سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح».

لا فضل لإنسان على آخر بسبب اللون، أو الجنس، أو الدم، أو الحسب، والنسب أو الموقع.. بل الفضل كل الفضل بالتقوى والعمل الصالح..

﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ ﴿ المطففين: ٢٦﴾.

* * *

النخيل .. وثمار الجنة!

وفد بني تميم

(١)

ما كاد الرعاة يعودون من المراعي، ويطمئن كل واحد من بني تميم إلى أن ماشيته قد سكنت حظائرها مع غروب شمس هذا اليوم من أيام الصيف القائظة حتى دبت في الناس حركة غير عادية!

لم تشب نار أمام دار مع هذا الغروب، وقد خلت الدور أو كادت من سكانها! فقد هرع الجميع يحضرون الاجتماع الذي تصدره في ساحة القبيلة العربية الهائلة، المترامية الأطراف، نفر من أشرافها يمثلون غالبية بطونها، وعشائرها.

ودار بين المجتمعين حوار كان يرق حينا، ويعنف حينا آخر، ومع الحوار الرقيق، والحوار العنيف مؤيدون، ومعارضون، يصخبون في تأييدهم، ومعارضتهم.. وقد بدا الاجتماع من خلال هذه المظاهر الحادة غاية في الأهمية، وكيف لايكون كذلك، ومحوره الاتفاق على تكوين وفد يذهب إلى المدينة ليلقى محمدا، ويبايعه بالإسلام قبل أن يفوت الأوان، وخصوصا أن القبائل أخذت تتوافد على المدينة، وتبايع بالإسلام، وتحقن بذلك دماءها، وتحمي مالها وحريمها، وتحافظ على ترابها، ومصالحها بين القبائل الأخرى!!

وبدأ الحوار عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي:

إذ وقف في أشراف بني تميم وقال:

– يا قوم، تجتمع اليوم، وقد علمتم ما كان من أمر محمد، وما صار إليه.

ومهمتنا تقليب وجوه الرأي بأمانة، وإخلاص لا لنرى ما يمكننا عمله، ولكن لنتخذ القرار الصعب.. نذهب إلى محمد ونبايع؟ أم نقبع هنا خلف بيوتنا، تفزعنا النياق، وحيث لا نجني من وراء هذا غير الندم عندما يدهمنا محمد؟!

وساعتها لن نكون بين يديه سوى أسرى، أو قتلى، يعفر جباهنا التراب، ويلعننا أبناؤنا، وتمتهن كرامتنا حريمنا وهن يجررن أذيال خزينا وعارنا وراءهن ومحمد

يسوقهن سبايا كما ساق من قبل نساء هوازن؟!

وكان الأقرع بن حابس...

ولأهمية الموضوع لديه، برك على ركبتيه وقال:

– يا قوم.. دانت الجزيرة كلها أو كادت تدين لمحمد. ومحمد اليوم، وبعد فتح مكة، وانتصاره على هوازن غير محمد بالأمس ... إنه وبكل المقاييس قوة يمكن أن يصل مداها إلى أبعد من مواقعنا!

فعلق عمرو بن الأهتم:

– وإلا فما معنى أن يذهب إلى تبوك؟!

ما معنى أن يذهب إلى الروم ليواجههم في عقر دارهم؟

وكما تعلمون.. بقي هناك أياما يؤذن فيها للصلاة، يعبد ربه، ويدعو له، وصياح أذانه يصك آذان الروم، ومن والاها في مواجهة أخزت الجميع، وتحد لم يستجيبوا له مما جعل أبناء عمومتنا في الشام يصالحونه، ويصادقونه، ويقيمون معه الأحلاف، وقد فهموا الرسالة، ووعوا الدرس.

وها هو ذا يعود مكللا بالنصر والفخار!

فقال نعيم بن يزيد:

– إن ذهاب محمد إلى تبوك.. وعودته ظافرا رسالة لنا جميعا في كل مكان على الأرض العربية، فهمها أبناء عمومتنا في الشام فهادنوا محمدا، وصادقوه، وقد أيقنوا بما لا يدع مجالا للشك أن الروم، وقد تقاعسوا أمامه لن ينفعوهم، ولن يعصموهم من محمد إن أراد بهم سوءًا!!

إذا كان هذا أمرا لبعيد عن محمد.. فما بالكم بالقريب منه؟!

يا قوم: لن نكون أقل وعيا، ولا إدراكا بما يحيط بنا من أبناء عمومتنا في الشام.

وخصوصا أنه لم تعد لنا بمحمد طاقة!!

وكان في جانب من المجلس قيس بن الحارث...

كان يتململ في مجلسه قلقا ضائقا، فابتدر المجتمعين في حدة:

– يا قوم.. والله لكأنني أشم في كلامكم ريح الهزيمة والاستسلام، ما بالكم يا قوم!؟ وقد بدوتم ترشحون لأمر محمد يسوقكم سوق الأغنام، وكدتم تنسون من نحن، ولا من آباؤنا، ولا من فوارسنا، ولا ما أيامنا التي خلدت آباءنا وشممنا، وسجلت بطولاتنا!؟

فقال عطارد في هدوء:

– ليست الهزيمة يا قيس..

وقال نعيم بن يزيد:

– ولا هو الاستسلام يا قيس...

وقال عمرو بن الأهتم:

– إنها المسئولية يا قيس.. لقد سودنا قومنا، وأولونا الشرف، ومهمتنا أن نحافظ عليهم، ونصون هذا الشرف بالمحافظة على العرض، والنفس والمال!

ولا مجال للجرى وراء العواطف، والانخداع بالوهم.. وهم القوة والمنعة الذى نخلقه نحن بأنفسنا لأنفسنا!

نعم يا قوم: دانت الجزيرة كلها أو كادت تدين لمحمد، وما بقي غير بعض جيوب هنا وبعض جيوب هناك، ولا مفر من الرضوخ للواقع، وبخاصة إذا كان يترتب على هذا الرضوخ الحفاظ على النفس، والمال، والولد، وصيانة التراب!

فقال نعيم بن يزيد:

– لقد باءت كل محاولات المواجهة مع محمد بالفشل: لقد فتحت مكة.. سلمتها قريش صاغرة.. بلا مقاومة، وها هي ذي هوازن تسلم أيضا مقهورة، ومن يرَها وهي تحشد حشودها ومن معها من الأحلاف لمواجهة محمد.. فإنما يعتقد أنها كانت تسوق رجالها ونساءها، وأموالها لتسلمها إلى محمد.. وأنتم تعرفون جميعكم كم بلغ عدد الأسرى فقط من هوازن لدى محمد!؟

لقد بلغ رقما مخيفا لم تعرف العرب له مثيلا في حرب من قبل.. لقد بلغ ستة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة، ناهيكم عن عدد القتلى والجرحى، ومن تشردوا وأخذوا

يضربون في الأرض بلا مأوى، ولا نصير، تاركين وراءهم العرض، والأرض والتراب، والدمار، ومن ضاقت بهم الأرض ولم يجدوا مفرا من التسليم والإذعان!

فقال قيس بن الحارث في حدة:

– ونسلم له لأنه دخل مكة، وصعرت قريش!؟

ولأنه هزم هوازن، وأحلافها!؟

إذا كانت هوازن قد هُزمت فليس هذا يعيبها، وهي تدافع عن تراث العرب جميعا، وأرادت أن تحمي الآباء والأجداد.. إن ما كان يعيبها هو أن تتقاعس ، وتفر من الميدان!

فقال عمرو بن الأهتم:

– ونحن لن نفر يا قيس.. فقط نحن مقتنعون بأن تجربة المجرب ندامة، فليست الحكمة في أن تدخل حربا تعرف مسبقا أن نهايتها هزيمة منكرة.. إنما الحكمة في أن تعرف كيف تتجنب هذه الحرب صيانة للأهل، والمال، والولد.

ولو كانت هوازن فكرت مثل ما أفكر الآن لما أصابها ما أصابها، ولكانت استنقذت نفسها قبل المعركة مع محمد بمثل ما استنقذت به نفسها بعد المعركة، وبعد أن حدث لها ما حدث من قتل، وأسر ، وتشريد!!

· تعلمون جميعكم أن رؤساء هوازن أجمعوا أمرهم بعد الهزيمة المرة، وذهبوا إلى محمد، وعرضوا عليه الإسلام، فقبله منهم، ثم سألوه أن يرد إليهم ما أخذه منهم، فخيرهم بين أبنائهم ونسائهم، وبين أموالهم فقالوا: بل ترد إلينا أبناءنا ونساءنا فهو أحب إلينا.

وكان محمد غاية في الكرم معهم، فرد إليهم أبناءهم، ونساءهم، وأعاد الجميع معززين مكرمين.

ولا يخفى على أحد منا ما حدث من مالك بن عوف، وتلك قصة مشهورة إذ لحق بمحمد يطلب أهله، ويطلب ماله معا، فرد عليه محمد أهله ورد عليه ماله.. بل وأعطاه زيادة.. مائة من الإبل على ما كان له!!

ثم اتجه إلى أشراف تميم:

– يا قوم: لسنا مسئولين عن أنفسنا فحسب. ورب الكعبة لو كان الأمر بيدي، ولو

كنت أحمي نفسي، وما يلحقني ما سلمت حتى تُفصل الروح عن الجسد، إنما نحن نحمي من سودونا ، وقلدونا زمام أمرهم، ولن نفعل بذهابنا إلى محمد، ومبايعتنا له شيئا لم نسبق إليه، فها هي ذي ثقيف تسلم لتحمي نفسها، ثم تعود وقد أخذت من محمد كتابا تبسط به سلطانها على أرضها، وديارها ، ويحقق لها الأمن، والاستقرار والأمان بين العرب جميعا.

فقال قيس بن الحارث، ومازالت تلازمه بعض حدته:

– ليس بهذه البساطة يا قوم.. فوالله لا أسلم حتى أساجله، فإن غلبني فقد قضيت حاجة نفسي، وإن غلبته عدت مرفوع الرأس، موفور الكرامة، وقضيت بقية عمرى كما أرادنى قومي سيدا مهيبا جليلا، وآلهة قومي مصونة لم تُمس بأذى أو تحقير!!

فقال عطارد بن حاجب:

– بل هي المفاخرة.. فقد لا نقدر على مساجلة محمد، إنما نستطيع أن نفاخره، فإن غلبنا كان كما تقول يا قيس.. وإن غلبناه عدنا، ولا سلطان لأحد علينا!!

وانفرج الموقف عند هذا الحد..

فقد همهم القوم بكلمات غير مفهومة، وإن كانت وجوههم تفصح عن استحسان الرأى والموافقة عليه.

وإذ أحس قيس بن عاصم...

وكان لا يزال صامتا، فقد خرج عن صمته قائلا:

– نعم.. والله لهي المفاخرة، نأخذ في وفدنا خطيبنا، وشاعرنا، فيخطبه خطيبنا، ويلقي إليه شاعرنا بشعره، فإن أجابنا محصنا القول، وإلا عدنا ولا ملام!

فقال قيس بن حارث، وقد زالت قليلا تلك الحدة التي كانت تسيطر عليه:

– وأنا معكم على أى أمر تعزمون!

فقال قيس بن عاصم:

– إذن نرى وفدنا، ونعلنه على الملأ

ثم نادى:

يا قوم هذا عطارد بن حاجب بن زرارة، وهو خطيبنا، وهذا الزبرقان بن بدر، وهو شاعرنا، ثم نظر إلى القوم متفحصا:

فمن غيرهما سيكون معنا في وفدنا لمحمد؟

فتقدم على الفور:

الأقرع بن حابس...

ونعيم بن يزيد...

وقيس بن الحارث...

وعمرو بن الأهتم...

والمبحاب بن يزيد ...

وانضم إليهم عيينه بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ..

وكان الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن قد شهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة، وحنينا، والطائف.

* * *

تهيأ الوفد للسفر، واستعدوا له، وجهزوا الرحل والراحلة.

وقبل أن ينطلقوا فى طريقهم للمدينة لملاقاة محمد صلى الله عليه وسلم لم ينسوا زادهم، ولا شرابهم، ولم ينسوا أن يصطحبوا معهم بعض الخدم ليعدوا لهم الوجبات في ساعات الراحة أثناء السفر.

وطوال سيرهم، أو أثناء راحتهم لم يكن لهم من حديث إلا ما سيقولونه أمام محمد.. كل واحد كان يرتب كلاما يقوله، وكان هذا الكلام لا يعدو الفخر بنفسه، وبعشيرته ثم بقومه، وبقبيلته!

وكان الخطيب يعد خطبته، فيها من بلاغة القول ما يتغلب بها على كل بلاغة، ومن الفخر بما يبز به كل فخر، ولا مانع وهو يفخر بنفسه من أن يتطاول على الآخرين فيبخسهم حقهم، ويسرق محامدهم، ويحيلها مثالب تخزى.

ولأن الخطبة تختلف عن الشعر فلا بد من أن يكون فيها ما يعوضها، ويحدث لها تأثيرا أقوى وأشد من تأثير الشعر، ولا شيء إلا أن يزيد الخطيب جريمة التحدى على محمد وأصحابه.. يتّم محمد وفقره، وقلة عزوته، واعتماده علي أناس هم أشد منه فقرا.. وهم بدو، من كل قبيلة جمع، ومهما كثروا فلا يشكلون مجتمعا كمجتمعهم، ولا قبيلة كقبيلتهم!!

وكان الشاعر يجهز أنغامه، ويعزف من آن لآخر بعض معزوفاته، فيطرب القوم ويزيد من حماستهم للقاء محمد ومفاخرته، ويضرب وهو يوقع توقيماته على أوتار العصبية فيزيدها شدة وحدة، ويحرك في النفوس حنينا إلى الأهل، والمأثور من العادات والتقاليد، وعبادة الآلهة الموروثة!

* * *

فى ذروة الشد والجذب أهمل القوم بعض ما ألفوه وصار من كثرة ما اعتادوه وامتزج بكيانهم يجرى فى نفوسهم مجرى الدم في العروق.. وهو شرب الخمر!

نسوا الخمر أو تناسوها تماما..

لم يقربها واحد منهم خلال ساعات السفر أو ساعات الراحة..

أهملوا الخمر، وكأنهم أرادوا أن يلقوا محمدا فى تمام وعيهم وإدراكهم، فإن الأمر جلل، ويحتاج إلى يقظة، ووعى تامين!!

يا الله!! لو عقلوا لأدركوا أن الحال، وقد تغيرت بهم، فلا بد من أن يتغيروا، وأن تغيرهم بات وشيكا، وترك الخمر لو فهموا ليس إلا إرهاصا للزمن الجديد .. لكن بقى عليهم وقت يقطعونه فى الشقوة، ولابد من أن يستوفوها!!

* * *

وصل القوم إلى المدينة.. وصلوا مجهدين، لكنهم كانوا مدركين.

بهرتهم المدينة، بعضهم رآها من قبل فهاله ما حدث لها من تغيير.. وأحس روحا جديدة تسرى فى كل ركن من أركانها.. تلون كل حجر بلونها.

ليست هذه هى المدينة القفراء المجدبة.. إنها مزهرة مثمرة.. بهذا تنطق شوارعها

وأحجار مبانيها..

ما هذا البهاء، وهذا الجلال!!

* * *

وقبل أن يستولي عليهم الانبهار بالمدينة حاولوا أن يقاوموا بهاءها وجلالها ويقاوموا روحها التي أخذت تحلق فوق رءوسهم، وتقترب منهم شيئا فشيئا.

* * *

دخلوا مسجد رسول الله، وتعمدوا الخشونة، وربما رطبة تستقبلهم في شدة حر الصيف.. واندفعوا بأقدام حافية يضربون الأرض في هلع وكان شيئا ما يطاردهم.. ونادوا رسول الله من وراء حجراته.. نادوه في جفاء وغلظة، ودعوه في صياح يصم الآذان، وجلبة لا تطاق.. أن اخرج إلينا يا محمد:

وإن كان ذلك آذى رسول الله ﷺ ، وآذى أصحابه من حوله إلا أن محمدا لم يتأخر عليهم، وما كان ليتأخر وهو يصدع عن أمر ربه، وما كان ليتأخر وهو القائل:

«أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».

وما كان ليتأخر وهو القائل:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ولأنهم تصرفوا بما لا يليق بمقام النبوة، وبأدب الرسول ، فلقد نزلت في هذا سورة الحجرات، وفي بدايتها درس شديد للذين جاوزوا حدود اللياقة في مخاطبة صاحب الرسالة كما أن فيها تعليم، وتوجيه لمن وراءهم من المسلمين:

يقول تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ۞ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم ۞ وأنتم لا تشعرون ۞ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ۞ لهم مغفرة وأجر

عظيم ● إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ● ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم﴾ (الحجرات:١-٤)

* * *

.. ونظروا إلى محمد وهو يخرج عليهم.. أخذتهم جميعا بساطته، واستولى عليهم وقاره، وتوقير أصحابه له، يلتفون حوله، دون أن يتقدم أحد منهم عليه.

هزتهم رجفة.. أهذا محمد اليتيم؟

لم يعد يتيما كما تصوروا..

أهذا محمد الفقير؟!

لم يعد فقيرا كما زعموا..

فيه غنى لم يعهدوه من قبل.. ولم يسمعوا عنه فى زمن من الأزمان!!

غنى ليست له مظاهر مادية..

ليست له مظاهر الغنى المعهود..

غنى لا يدرك بالبصر.. وإنما يدرك بالبصيرة..

غنى أروع من أى غنى فى الوجود..

وإن كانوا لم يصلوا بعد إلى كنهه إلا أنهم أدركوا بعض معالمه.

هذا محمد، وحوله أصحابه، تدب فيهم روح تجعلهم كالبنيان المرصوص، فيهم صلابة ولهم مضاء، وعزم لا يلين..

انبهروا.. فلم يستطع واحد أن يوجه إليه كلمة..

قالوا معا، وهم يتساندون على بعضهم البعض:

– يا محمد.. جئناك نفاخرك، وجئنا معنا بخطيبنا، كما جئنا بشاعرنا، فأذن لهما.

فقال محمد رسول الله ﷺ :

«قد أذنت لخطيبكم .. فليقل ما عنده».

فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، وهو يعالج نفسه معالجة، وحاول أن يواجه محمدا.. يريد أن يقول ما كان قد استحضره طوال الرحلة.. لكن أين ما كان قد استحضره من فن القول، ومن بلاغة الكلم، ومن الصفات، والأوصاف في مدح قومه، والفخر بهم، وثلب محمد وأصحابه يلقى بها على محمد وأصحابه؟!

اعتاص عليه الأمر.. نظر إلى القوم، ونظر إليه القوم.. ونطقت عيونهم عكس ما همست به شفاهم.. أخذته الحيرة، واحتوته الدهشة، وسيطر عليه قلق شديد.. مرت دقيقة.. دقيقتان.. ثلاث دقائق.. انخلع فيها قلبه، وكاد يسقط بين ركبتيه دون أن تتفرج شفتاه عن كلمة هي أمل الجميع، وكانت هذه الدقائق دهرا من الألم والمرارة، لم يشعر بمثل بشاعتهما من قبل قط..

وبعد لأى قال:

– «الحمد لله»

نطقها لسانه، ونفسه تهمس إليه بعكس ما نطق به..

وكأنما يقول له شيطانه: «ليس هذا ما أردت» لكن لسانه ينطلق، وشيئا فشيئا تختفي همسات نفسه حتى يكمل القول:

– «الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله ...الذى جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددا، وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برءوس الناس، وأولى فضلهم؟!

فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا».

ثم جلس.

سكت القوم من بني تميم، وهم ينظرون إلى خطيبهم نظرة غامضة . لا تعبر عن استهجان و لااستحسان، وإن كانوا في أعماقهم يشعرون بأن خطيبهم لم يشف غليلهم

فى التفاخر على محمد، وخيب ظنهم عندما لم يأت بما كانوا يتوقعون!!

★ ★ ★

وفى جلال، ووقار قال رسول الله ﷺ لمن اختاره خطيبا يرد على خطيب بنى تميم.. قال لثابت بن قيس الشماسى أخى بنى الحارث بن الخزرج كلمة هادئة هادية ... كلمة توازنية:

«قم فأجب الرجل فى خطبته».

فقال ثابت ورنة صوته توحى بالثقة، وأفاض الله عليه.. فقال:

– «الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ولم يك شئ قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، فكان خيرة الله فى العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكرم الناس حسبا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا... ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن، فنحن أيضا والله وزراء رسوله ، منع بنا ماله، ودمه، من كفر جاهدناه فى الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولى هذا، واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ... والسلام عليكم».

وخسر خطيب بنى تميم، وخسر من ورائه قومه أمام خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أما كيف خسر، فهذا ما تنطق به الموازنة بين ما احتواه قول عطارد، وما احتواه قول ثابت والموازنة فى هذا الزمن ليست صعبة، وإنما هى من السهولة بمكان فهذه لغتهم، وهم أدرى الناس بأسرارها، وبإشاراتها، وشياتها، وجمالها، ومضامينها.. فهى ليست مجرد قول، وإنما هى عالم كامل له قوانينه التى لا تختل ، ولا تنقصهم الدربة فى استعمالها إفصاحا عن مكنوناتهم، أو فهمها كأداة تعبير ذكية قادرة..

الجانب المعنوى نفذ إلى أعماقهم.. هالهم.. استولى عليهم.. لم يستطيعوا أن يقاوموه لأنه توفر بكثرة فى خطبة ثابت خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أما الجانب

المادى فقد انهزموا فيه أيضا.

ولقد بدت الموازنة التى لم تستغرق من الوقت سوى وقت إلقاء الخطبتين على النحو التالي:

خطيب بنى تميم يحمد الله ثم يعدد أسباب الحمد، ويحصرها في : أن جعلهم ملوكا، وأعطاهم مالا، وأنهم أرباب حسب، وأن عددهم كثير، وهذا القول لا يفصح إلا عما هو مألوف من منطق الجاهليين.

أما خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعدد أسباب الحمد لله فى الآتى:

أولا: يجارى خطيب بنى تميم فى أن الله جعلهم ملوكا، ثم يزيد ما لم يستطعه خطيب بنى تميم فيقول متمدحا، مثنيا على الله بما حبا به الأمة العربية من شرف عظيم، وخير عميم حين اختار لها رسوله محمدا ﷺ من خير خلقه، أكرمهم حسبا، واصطفاه بأن أنزل عليه قرآنه، وجعله الأمين على الناس، وأن الله ميز أصحاب رسول الله ﷺ بميزات منها: إيمان المهاجرين وهجرتهم، وموقف الأنصار، وانتصارهم للرسول ﷺ فى ساعات الشدة.

ويختم خطبته بالاعتزاز بمقدرة المسلمين من أمة محمد على قهر كل متجبر، وعلى ردع كل من يقف فى طريق الحق، أو يعطل مسيرته.

وإذ أحس القوم بقصور خطيبهم أمام خطيب الرسول الكريم لا لنقص فى بلاغته، أو قدرته الكلامية، وإنما مفاهيم جديدة، وقيم ثرية لاعهد لهم بها انتقلت بالناس زمنا متقدما تخلفوا هم عنه زمنا طويلا، وانعكست هذه المفاهيم، وهذه القيم على قول خطيب رسول الله، فبدت روحا جديدة لا قبل لهم بوقفها أو اعتراض طريقها.

نظر القوم إلى شاعرهم كأنهم يستنجدون به في محاولة يائسة.. هب على أثرها عازما على أن يتلافى فى شعره القصور الذى خلفته خطبة الخطيب.

قال متحمسا:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ★ منا الملوك وفينا تنصب البيعُ (١)

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ★ عند النهاب وفضل العز يتبعُ

ونحن يطعم عند القحط مطعمنا ★ من الشواء إذا لم يؤنس القزعُ (٢)

بما نرى الناس تأتينا سراتهم ★ من كل أرض هويا ثم نصطنعُ (٣)

فننحر الكوم عبطا في أرومتنا ★ للنازلين إذا لم أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حي نفاخرهم ★ إلا استفادوا فكانوا الرأس يقتطعُ(٤)

فمن يفاخر في ذاك نعرفه ★ فيرجع القوم والأخبار تستمعُ

إنا أبينا، ولا يأبى لنا أحد ★ إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان بن ثابت الأنصاري غائبا عندما قدم الوفد، فاستدعاه رسول الله ﷺ ليجيب شاعر بني تميم.

وجاء.. جاء على عجل.. جاء مسرعا، وهو يدمدم بكلام حلو. يوقع به، وهو يرقص قلبه فرحا، استجابة لنداء رسول الله ﷺ.

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ★ على أنف راض من معد وراغم

منعناه كما حل بين بيوتنا ★ بأسيافنا من كل باغ وظالم

ببيت حريد، عزه، وثراؤه ★ بجابية الجولان وسط الأعاجم (٥)

---

(١) البيع: مواضع الصلوات والعبادات، واحدها: بيعة بكسر الباء

(٢) القزع بالتحريك: السحاب الرقيق. يريد إذا لم تمطرهم السماء فأجدبت أرضهم.

(٣) هويا: سراعا.

(٤) الكوم: جمع كوماء وهي العظيمة السنام من النوق، عبطا: أي من غير علة، وفي أرومتنا: هذا الكرم متأصل فينا.

(٥) البيت الحريد: الفريد الذي لا يختلط بغيره لعزته. جابية الجولان: بلد بالشام. يريد أن النبي ﷺ نزل وسط حي من الأنصار ذوي منعة، وجاههم قديم متصل بجاه الغساسنة ملوك الشام.

ياجلال الشعر حين يقال في موقف كهذا الموقف!! وياعظمة الشاعر حين ينتدب ليدمدم بشعره في معركة كهذه دفاعا عن الحق، ودفعا للباطل!! ويالروعة الموقف وحسان يرى نفسه شاعر الرسول يبعث في طلبه إذ كان غائبا، وقد أتى القوم يفاخرون رسول الله!! أتى القوم في مظاهرة رتبوا لها، وهيئوا أنفسهم لما ينجم عنها، فإما أن يكسبوا محمدا ويعودوا إلى ما كانوا عليه، ولا حرج .. أو ينتصر عليهم محمد ويكونوا قد بذلوا أقصى ما عندهم، وحينئذ يبايعون بالإسلام ولا حرج أيضا!!

هي معركة إذن.. نعم وايم الحق معركة لا تقل شراسة عن معارك السيف والرمح.

ويصل حسان في الوقت المناسب.. يصل والزبرقان يهم ليقول ما قال.

وما أن ينتهي الزبرقان حتى يتسعد حسان في انتظار إشارة من الرسول الكريم ويقول الرسول وهو يشير إلى حسان: «قم يا حسان فأجب الرجل»

ويقوم حسان فيقول على نحو ما قال الزبرقان لكنه غير ما قال:

يقول حسان:

إن الذوائب [1] من فهر وإخوتهم ★ قد بينوا سننا للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ★ تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ★ أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة ★ إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهم ★ فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرقع الناس ما أوهت [2] أكفهم ★ عند الدفاع ولايوهون مارقعوا

---

(١) الذوائب: السادة

(٢) أوهت: هدمت

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ★ أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا(١)

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ★ لا يطبعون ولا يرديهم طبع

لا يبخلون عاجسار بفضلهم ★ ولا يمسهم من مطمع طبع (٢)

تسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ★ إذا الزعانف (٣) من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ★ وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

كأنهم في الوغى والموت مكتنع ★ أسد بحلية في أرساغها فدع (٤)

خذ منهم ما أتي عفوا إذا غضبوا ★ ولا يكن همك الأمر الذى منعوا

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ★ إذا تفاوتت الأهواء والشيع

أهدى لهم مدحي قلب يؤازره ★ فيما أحب لسان حائك صنع

فإنهم أفضل الأحياء كلهم ★ إن جد بالناس جد القول أو شمعوا (٥)

وبهت القوم من بني تميم فقد أدركوا بعد الموازنة السريعة أنهم خسروا المعركة ولا عليهم سوى التسليم.

إلا أن الزبرقان تهتاجه قصيدة حسان فينشئ قصيدة أخرى لعله أن يجبر بها ما أصاب السابقة والذى أظهره حسان عندما تفوق عليه وفاز فوز مؤزرا:

يقول الزبرقان:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ★ إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

بأنا فروع الناس في كل موطن★ وأن ليس في أرض الحجاز كدارم(٥)

إنا ابالمرباع في كل غارة ★ نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

لكن حسان يمتشق سيف شعره ويقرع الزبرقان فيسكته:

(١) متعوا: زادوا

(٢) طبع: دنس

(٣) زعانف الناس : الأطراف فيهم

(٤) مكتنع: قريب – حلية: مأسدة باليمن

(٥) شمعوا: هزلوا والأصل اللهو والطرب

يقول حسان:

هل المجد إلا السؤدد العود والذى •

وجاه الملوك واحتمال العظائم

نصرنا وآوينا النبي محمدا ★ على أنف راض من معد وراغم

نصرناه لما حل وسط ، ديارنا ★ بأسيافنا من كل باغ وظالم

جعلنا بنينا، دونه وبناتنا ★ وطبنا له نفسا بفيء المغانم

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ★ على دينه بالمرهفات الصوارم

ونحن ولدنا من قريش، عظيمها ★ ولدنا نبيَّ الخير من آل هاشم

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ★ يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ★ لنا خول ما بين ظئر وخادم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ★ وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ★ ولا تلبسوا زيا كزى الأعاجم

★ ★ ★

فرغ حسان من قصيدته، ومن قبل أفرغ الزبرقان كل ما فى جعبته، ومن قبلهما أفاض الخطيبان..

لكن بنى تميم لم تفرغ بعد..

لقد اكتشف القوم أنهم تخلفوا عن زمنهم دهورا طويلة، فاتهم فيها الكثير والكثير، وأنهم كانوا فى قوقعتهم هناك ليسوا إلا أناسا من البشر لا يعيشون إلا ليأكلوا.. لا هدف.. لا رسالة.. لا شئ ذا قيمة يحصلونه..

بعد أن استمعوا إلى ما استمعوا.. وبعد أن رأوا ما رأوا.. هالهم الفارق.. فارق لا يدرك بالبصر، قدر ما يدرك بالبصيرة!!

أى نعمى تحتوى هذه القلوب تلتف حول محمد !!

إنه ليس بملك.. فلا والله ما للملوك هذه المهابة، ولا هذا الجلال!!

ويا ويل من وقف في طريق من كانت له هذه المهابة بين أصحابه وهذا الجلال!

وينظر القوم إلى محمد في صمت، لكنه صمت المتوسلين المعجبين.. بل صمت التائبين.. ويدرك الأقرع بن حابس ما تجيش به الأفئدة، فيقف من فوره يخاطب قومه هاتفا:

- « وأبي .. إن هذا الرجل- يعني محمدا- لمؤتى له.. ولخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا».

ويضطرب القوم في مجلسهم، وعيونهم تكاد تخترق الأقرع بن حابس: «قلها.. قلها ولا تخف.. أعلنها واكسر طوق العبودية في قلوب غلفتها الجاهلية زمنا طويلا.. أعلنها مدوية.. فوالله لم يعد الخوف الآن من محمد.. بل الخوف من أن نأخذ طريقا غير طريق محمد!!»

ويصل التصاوح مداه.، وما يكاد الأقرع ينتهي من كلمته، وينكسر الطوق.. وتتحرر الأفئدة ، وتصحو الضمائر، وتحيا الإنسانية في داخل الإنسان، وترقص الآدمية شوقا إلى الحق في داخل الآدمي، وتنقشع ظلمات الجهالة، وتشرق أضواء الهداية من ثنايا النفس الحائرة..

يخف القوم دفعة كما جاءوا دفعة.. وكما هجموا على المسجد دفعة.. وكما صاحوا مجتمعين يطلبون من الرسول أن يأتيهم ليفاخروه دفعة..

يخف القوم..

ويبايعون بالإسلام!!

اليتيم وذو العقيصتين!!

وفـــد بني سعد

ما كاد الفتى القادم من الديار البعيدة إلى حى «بنى سعد» يبحث عن عمه، بعد أن تقطعت به وبها الأسباب، وهلك الأهل في حروب طويلة بين القبائل بعضها، وبعض، وبين القبائل ، ومحمد، ولم يبق إلا هو وعمه، بعد أن علم بفقد والدها في آخر معركة اشتركت فيها «بنوسعد» إلى جانب هوازن ضد محمد بن عبد الله:

ما كاد الفتى يصل إلى ديار بنى سعد يعانى من وعثاء السفر حتى فوجئ بحالة غريبة مخيفة، تبعث على الريبة والشك:

هرج، ومرج، يسود الحى..

أناس يجرون شمالا، وآخرون يجرون يمينا..

همهمات هنا، وأصوات هناك..

ولايجمع بين الناس إلا الشك، والقلق، والحيرة، والاضطراب، والخوف القاتل الرهيب.

ماذا حدث لهذا الحى!؟

ما الذى أفزع الناس حتى لم يعد يستقر بهم قرار، أو يهدأ لهم بال، أو يستريح لهم خاطر ووجدان!؟

أية ريح صفراء تبدر بوادرها، وتقدم نذرها تثير الرعب، والخوف فى نفوس الناس، حتى بدت حركاتهم عشوائية بلا شكل، وبلا هدف!؟

لم يستطع الفتى أن يتبين وجها تفصح ملامحه عن سبب لهذا، ولم يقدر على سبر عين يمكن أن تبوح عن سر يفسر له ما غمض من مجريات الأمور فى الحى!

وكلما اقترب من جماعة لم يتبين شيئا..

وبعد لأى عرف من همهماتهم أنهم يبحثون عن رجل منهم له مكانته، وقدره، وله

اسمه وسمعته، يبحثون عن ضمام بن ثعلبه.

ترى ماذا يريدون منه؟ ماذا حزبهم، وشغلهم عن نفوسهم، وهما حولهم إلى هذا الحد!؟

يسمع الفتى عن ضمام بن ثعلبة، وقدره، وعميق رأيه، وقدرته على التبصرة، ويعرف كم لجأ إليه الناس يطلبون الرأى والمشورة، ويبغون العون، والمساعدة!!

ويسمع عن بنى سعد أنهم فى غمرة الأحداث، لم يكونوا بهذه اللهفة، ولابهذه الحيرة.. فكم مر بهم من خطوب، وكم فجعتهم كوارث، لكنهم كانوا أرسخ قدما، وأثبت جنانا مما هم عليه الآن!

وبدأ الشك يتسرب إلى نفس الفتى.. وأخذت الحيرة تعرف طريقها إلى قلبه، واحتوته الجموع، فوجد نفسه يجرى فى داخلها إلى حيث تجرى.

وصعد الناس تلا على مشارف الحى.. وهناك ألفوا ضمام بن ثعلبة، ينتجع مكانا هادئا، بعيدا عن الضجيج والغبار المثار.. يجلس مستندا إلى صخرة.. يحدق فى الأفق البعيد فى صمت ، وسكون تامين.

وجعل الناس يتوافدون عليه، وكلما يقتربون منه تخف الحركة، ويهدأ الضجيج، واكتمل عنده جمع غفير، وخلق كثير، وهو ثابت ثبوت الجبال دون أن تزيغ منه نظرة واحدة تجاه القوم.

وقطع الصمت رجل ذو لحية بيضاء.. انحنى ظهره أو كاد:

– يا ضمام.. ألا بالله استجبت لهذه الجموع!؟ فوالله ما يقدر على هذا الأمر سواك.. وإن بني سعد كلها لتسلم إليك الزمام والقياد، بعد أن هرب من كنا نملكهم أمورنا إثر هزيمة هوازن وثقيف أمام محمد.

لم يبق إلا أنت.. ولن يعترض أحد على قرار تتخذه طالما ارتأيت فيه مصلحة أهلك، وعشيرتك، وقبيلتك.

وفى وقار صارم تلفت ضمام، وفى نظرة عميقة حدجه بها ، وفى رنة صوت واثقة قال:

– لقد تغير الناس أبا عبد العزى..

– لكنك لم تتغير يا ضمام..

– وهل يقدر الناس علي حكمي إن استجبت لهم؟

– ومنذ متى خرج القوم علي حكمك، وأنت أثير لدى الجميع، وهم يقدرون مكارمك التي لا تحصى ، في الحرب أو في السلم، في السراء أو في الضراء، في الأمن أو في الخوف على السواء.

– إذن فليقولوها.. ليعلنوا رضاهم بقسمي لهم، واختياري بشأنهم وحكمي في أمرهم.

– أوتشك في هذا يا ضمام؟

لقد انخلعت بنو سعد من جذورها إليك.. أولا تعني هذه المظاهرة لك شيئا؟!

– وماذا ترى في حياتنا غير الشك يا أبا عبد العزى؟!

لقد صار الحاكم لحياتنا في هذا الزمن الشك والخوف، والحيرة والقلق!

– وماذا دفع بهذه الجموع إليك الآن غير الرعب الذى يستولي على كل كيانهم؟

تريد هذه الجموع أن تعيش حياة هادئة، فيها أمن، وأمان، تتخلص فيها من صخب هذه العيشة وضجيجها، وظلامها الذى طال أمده.. ودمائها التي روت ثرى الصحراء بلا سبب معقول.

– وماذا تريد مني هذه الجموع؟

وقد تنفس أبو عبد العزى الصعداء:

– لقد أصبت المحز يا ضمام.. تريد هذه الجموع أن تذهب إلى محمد، وتعقد معه اتفاقا يضمن لها الأمن والأمان بين ربوعها، وعلى أرضها.

– في تهكم:

– وعند اللزوم تنضم هذه الجموع إلى فريق يحارب محمدا.. وتدخل في دوامة حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل.

– كأنك يا ضمام ما زلت تحمل من قومك أن خالفوك بانضمامهم إلى هوازن وثقيف في حربها محمدا!؟

– وما يدريك يا أبا عبد العزى أنهم لن يخالفونى إذا ذهبت إلى محمد، وعقدت معه اتفاقا!؟

لقد غدر بى قومى، وكان يمكن ألا يحدث لهم ما حدث لو أنهم عقلوا موقفى، وأحسوا حدبى عليهم!

– ياضمام.. لكل جواد كبوة، ولكل أصيل هفوة!!

– الغدر ليس أصالة يا أبا عبد العزى.. وإن واجهت الحقيقة ستقول لك: إن الغدر سمة حياتنا، وما خنوع الضعيف، وسيطرة القوى، وما أكل أموال الناس بالباطل، وشيوع الفحش والفجور، إلا من أثر الغدر فى حياتنا!

وصمت لحظة، وقد عاد إلى هيئته الأولى:

– لا تقل إذن كبوة وهفوة، فهذه تبريرات لا سند لها، ولا أساس.

وسادت فترة صمت كانت على الجموع دهرا من المرار، والخوف،

وإذ وقفت الجموع تترقب الرد.. شقت الناس امرأة فى اتجاه ضمام.. وعلا صوتها متوسلة فقطع الصمت المطبق رغم ضعف جسدها، ووهن قوتها، وتقدم سنها.

وقبل أن يصيح الفتى مناديا لها، إذ كانت هى عمته، لفه إعجاب بها، وانبهار شديد بموقفها، وجعل ينصت أولا لما يمكن أن تقول.

ودون أن تراه أو تحس به.. اندفعت ناحية ضمام قائلة:

– بأبى أنت وأمى ... هلا استجبت يا ضمام!؟ إنها رغبة كل أم ثكلت كل من ولدت.. ورغبتى وقد ثكلت آخر أبنائى.ورغبة وكل أم لا تحب أن تثكل ولدها فى حرب قادمة..

ورن الصوت فى أذن ضمام.. ونقل إليه من المعانى ما تزدحم بها الخواطر، ومن الأحاسيس ما تجيش به النفس، وتفيض عن الوجدان!

رن الصوت في أذن ضمام فاعتدل في مجلسه، وتلقى صاحبته، وهش لها، وإن كانت بشاشته احتجبت خلف صرامته فلم يبد منها غير القليل!

وبسط ضمام جانبا من عباءته التي تدلت من فوق كتفه يجلس عليها القادمة...

– أقبلي أم همام .. فدتك نفسي.

وأم همام هذه فقدت ولدها في الحرب القريبة.. أقرب حرب دارت بين العرب وبين محمد عندما شاركت بنو سعد هوازن وثقيفا، وخالفت عن رأي ضمام ونصيحته، وهي في الوقت ذاته من أخلص صديقات حليمة السعدية.

ولمعت في ذهن ضمام فكرة، وفي لمح البصر رتب عليها موافقته:

وإذ ذاك طلب من الجموع أن تنصرف، وأن تدعه يتدبر أمره بطريقته.. وحتى يهدأ الناس أعلن موافقته على الذهاب إلى محمد شرط أن يقتنعوا بما اقتنع به.

وانصرفت الجموع على هذا الأساس، وبقي ضمام.. كما بقي معه أبو عبد العزى وأم همام وابتدر ضمام أم همام:

– أريد أن ألقى حليمة..

– ما تريده منها..؟

فقاطعها:

– أعرف منها أمر محمد.. لقد أرضعته.. وحضنته، ولا شك تعرف عنه شيئا أي شيء!!

– بل تعرف عنه الكثير الذي لو قالته في حينه لاتهموها بالجنون أو أنها أصابها مس من الشيطان.

– وأين أجدها!؟

– لن تستطيع أن تلقاها.. فقد برح بها المرض، وأستطيع أنا أن أجيبك فيما تريد الإجابة عليه.

لقد كنت معها طوال حياتها.. عشنا معا أيام الجدب، وقاسينا أهوالها، كما عشنا

أيام الرخاء، واقتسمنا ظلالها. وأسرار محمد معها عندي.. وستكون راضية بلا شك عن حديثي معك.. وما جئت إلا لإحساسي بأنك ستسأل عن محمد.. فأنت رجل حصيف وسترتاد الطريق الصحيح يا ضمام.

– إذن.. احكي لي.. أقصص عما تعرفينه عن محمد..

فاعتدلت المرأة في جلستها.. وخطت بأصابعها في الرمل تحت قدميها عدة خطوط ثم قالت:

– لاأدري إن كان ما سأقوله لك ذا أهمية أم لا.. لكني سأقوله.. حكاية حليمة بل حكاية محمد منذ التقت به حليمة في مكة، وأخذته من جده عبد المطلب، وعادت به إلى الديار يتيما فقيرا لا ترجو من ورائه نفعا كثيرا.

فقط عادت به لأنها لم تجد غيره ترضى به.. أو إن شئت فقل: عادت به لأنها لم تجد من يرضى بها ورضى هو بها، ولو لم يرض بها لعادت فارغة اليد.. خاوية الوفاض... بينما من كن معها عدن ومع كل واحدة منهن صيدا ثمينا.. طفلا غنيا تغتني من ورائه.

وسكتت هنية..

فقال ضمام:

– إيه يا أمه..

فقالت وهي تحاول أن تسترجع ذكرياتها:

– كانت سنة مجدبة.. أصابنا فيها القحط، لا زرع، ولا ضرع.. ووفدت حليمة على مكة حيث الثروة والجاه والسلطان تبحث عن وليد من ولدان قريش الأغنياء ترضعه..

ثم نظرت إلى ضمام نظرة ذات مغزى كبير وأردفت:

– لم تكن حليمة وحدها التي وفدت على مكة في هذا الشأن.. بل كان معها مرضعات كثيرات من بني سعد جئن إلى مكة لهذا الغرض ذاته.

وكان الإرضاع وسيلة من وسائل التكسب في بيئتنا، وفي زماننا لمن ضاقت بهن السبل ، للتكسب في تلك الأيام التي وصل فيها التفاوت بين الأفراد والقبائل في المناقب والثروة، والجاه، والسلطان حدا، انقلبت به كل الموازين لحياة آمنة ، مستقرة.

وتنهدت تنهيدة عميقة...

– ومن أين يأتي الاستقرار للأفراد أو للجماعات، والجهالة قد استفحل أمرها، واستفلظ حتى خرجت الحرائر، وبعضهن في صحبة أزواجهن يبحثن في حضن الثروة، وعلى هامشها عن فتات يقتتن به، ويقدمن في مقابله من صدورهن حلب الحياة للآخرين، ومن أرواحهن رحيقها وأنسها وبهجتها، ومن ينحنين على الولدان الساعات الطوال من الليل أو من النهار في دأب ومثابرة، وعزم لا يلين، وصلابة لا تعرف الضعف إلا من أجل هؤلاء الأبرار، الأطهار، وهم يفتحون عيونهم على هذه الحياة دون أن يدروا عنها ولا منها شيئا إلا أن يأخذوا.. ويأخذوا فقط، وهذا حقهم ليوم آت لا يعرفون فيه إلا مصيرهم عندما يكبرون، ويشبون عن الطوق، ويصيرون مهيئين لأن يعطوا للحياة في مقابل ما أخذوا منها، ويقدموا شيئا مما حصلوا عليه سلفا.. وسكت ضمام، وهو يلمس جبهته بأصابعه، ويعقد ما بين حاجبيه.

فقالت أم عمام:

– ذهبت حليمة إلى مكة، وكنت معها في هذه الرحلة.. وكان من عادة سادة قريش، وقد تركزت في أيديهم الثروة، والسلطة بين العرب جميعا أن يرضع أولادهم مرضعات من غير أمهاتهم من البادية حيث الجو النقي، أصفى من جو مكة.. وفي هذا الجو النظيف السليم ينمو الوليد أول ما ينمو في صحة وعافية.. ناهيك عن الوجاهة، والفخر بأبهة الترف و الرخاء..

ذهبت حليمة إلى مكة تقاسي وأهلها شظف العيش، ما لم يحس به ولا بثقله ومهانته سواها، وقومها حيث الكل حولها مهموم بهمه، وحيث الكل لا يرى في الكل إلا ضباعا، وأسودا، انتصبت على قوائمها لتنهش، وتفترس، وحليمة تبحث عن وليد ترضعه إنما تطلب الحياة بجانبه لنفسها ولوليدها الجديد الذي أنجبته، وعجزت بسبب القحط والجفاف أن تمد له حتى مجرد يد المساعدة لينمو ويترعرع ويشب كما يشب لداته في المهد عندما تتهيأ، وتتوفر لهم سبل الحياة في ظل عيش كريم. لم تجد حليمة الضروري.. الحد الأدنى من الضروري لترضع وليدها، فقد حاقت بها وبقومها سنة جدباء، أصابتهم فيها مجاعة، فلا ضرع لديها تعتمد عليه لتقتات، وتقيت، ولا زرع لما بقي من ضرع، وما كان لديها سوى ناقة عجفاء، وبعض الماعز، وأتان تعتمد عليها في تنقلها.

حياة أقل ما يقال عنها: إنها غاية في الصعوبة.. حياة عندما توصف بصفتها الحقيقية يقال فيها: إنها افتقدت كل عناصر ومقومات الحياة.

والإنسان يا ولدي جواد بكل شيء، رضي أو كره، ماعدا شيئا واحدا لا يجود به إلا من أجل الحياة، وهذا الشيء هو الحياة ذاتها.

لذا ذهبت حليمة إلى مكة رغم عدم الزاد، وهلاك الراحلة، ووعثاء السفر، مخاطرة بحياتها، تبحث عن الحياة لوليدها، ولنفسها ولقومها، في وليد قرشي ترضعه، وتتبلغ من ريعه لتبقى الحياة!!

ولا يستطيع قاص أن يصور مبلغ معاناتها وزوجها في هذه الرحلة.. بل في هذه المغامرة القاسية، وهي تقطع الطريق من ديار بني سعد إلى مكة علها تبلغها على أتانها تحملها، وهي في حاجة إلى ما يحملها، وناقتها تهتز، وتضرب في مشيتها من ضعفها في بحر الصحراء، كشراع تلعب به الرياح، والأنواء في خضم الصحراء المخيف.

وكان من معها من نسوة بني سعد أحسن منها بعض الشيء.. كن يسبقنها آناء وأنا يتمهلن، وما تمهلهن إلا ضرورة المسافر في الفلاة الموحشة يحتاج تكأة من غيره، ليعبرها بسلام.

وحسب حليمة وزوجها أن يبلغا على ناقتهما وأتانهما أملهما، ولو قطعا عليهما دهرا في الفلاة!!

وتسرح أم همام منيهة.. ثم تعاود حديثها:

– وتصل حليمة مكة، وتقبل مع المرضعات، ويُعْرَضُ عليهن اليتيم القرشي..

فقاطعها ضمام: اليتيم؟!

– نعم اليتيم.. قالوا إن أباه مات في إحدى رحلاته التجارية، وهو لم يولد بعد.. وكفله جده..

– إيه يا أمه..

– يُعْرَضُ عليهن الوليد محمد بن عبد الله اليتيم الذي يوجد في كنف جده عبد المطلب، ويطلب الجد منهن مرضعة له، فيُعرضن جميعهن ليتمه وكفالة جده، وعدم

السعة لديه.. زاعمات أن الجد لا يمكن أن ينفق بسخاء كما ينفق عليه أبوه، وزيادة فهذا الجد ليس في يسر غيره من القرشيين، ولا فائدة من ورائه، و لاغناء فيه، وما قطعن الصحراء واجتزن الفلاة مضحيات بأرواحهن ليعدن صفر الأيدى إلا من يتيم فقير لا يملك أهله له ولا لهن شيئا!!

كن يعرضن عنه بسبب فقره وإن كن لم يصرحن، والتلميح يغني عن التصريح، حتى حليمة نفسها أعرضت عنه أول الأمر كما أعرض غيرها.

★ ★ ★

وتمسك أم همام حصاة.. ثم تقذف بها بعيدا:

- وتصادف كل مرضعة مبتغاها، ويحصلن على ولدان عائدهم مضمون من الثروة والرخاء، ما عدا حليمة.. تعرض نفسها فلا تصادف قبولا، وكان جواب الآباء والأمهات الرفض، والامتناع، لأن الفقر والجوع عضاها أكثر من غيرها، فبدا ضعفها جليا لا يخفى على ذي عينين، والضعف، والهزال، ينبئان بالخبر اليقين، إذ كيف تمنح الحياة، وهي تفتقد أبسط عناصر الحياة؟!

وتبلغ الرحلة غايتها..

ويهم الجميع بالعودة..

ويتهيأ الركب للرحيل..

وتهم حليمة في حزنها مسايرة الجميع.. صفر اليدين، ما كسبت شيئا في هذه الرحلة وقد خسرت كل شيء.. إذ كانت حصيلتها من هذه المغامرة ضعفا جديدا تضيفه إلى ضعفها، وقنوطا تضيفه إلى رصيد حياتها التي ما حلمت فيها حلما مشرق الملامح في يوم ما!!

وقر في ذهن حليمة أنها النهاية المحتومة، ولا بد أنها ملاقية هي وزوجها حتفهما في طريق العودة..

وفكرت بسرعة.. وهداها تفكيرها في اللحظة الحرجة، وهي تزمع الرحيل:

وإن كان ولا بد من الحرمان فشيء يسير خير من لا شيء ، وطفل يتيم.. فقير.. خير

من عمه، وإن كان قسم له كسرة خبز فسيبقى لها نصفها تمد به وليدها المسكين الذى جاء مجهول المصير!!

وتحس حليمة بالهدوء، ولأول مرة تشعر بخفقان قلبها الذى كاد يهدأ هدأته الأخيرة، ثم يعقب هذا الهدوء نبض منتظم!

هكذا حدثتني.. نعم.. نبض منتظم له إيقاع، ورنين هو رنين الحياة بعينها، وكأنه نشيد العافية.

وصارت يحدوها الأمل فى غد حلو، وحياة تجد فيها دبيب الحياة وحرارتها، وهفت نفسها إلى اليتيم، وأسرعت تستحث الخطا إليه فى دار جده، ورحبت به رضيعها، وتمنت، ورجت ألا يخيب هذا التمني، وألا يذهب الرجاء سدى، وكأنها موفدة إليه تسترضيه أن يقبلها وأن يرضى بها.. وجاشت عاطفتها فتمنت أن تضمه إلى صدرها.. لا يهم أن تجد ما ترضعه إياه.. هذا ليس من شأنها.. ستجود ما وسعها الجود، المهم أن ترضعه ما صارت تملكه الآن، وبقوة، ترضعه حنانا، وعطفا وحبا.. ترضعه كيانا خاصا لا يتمثل للعين فتراه، ولا الحس فيلمسه، كيانا غير مجسد يفوق في جدته أى جديد.. يفوق في روعته أى كيان رآه، أو سمع به بشر من قبل، وقد لا يراه أو يسمع به بشر من بعد.

أحلام كثيرة قفزت إلى سطح حياتها الجديدة..

قطعا سترضعه..

وستجد لديها ما تمنحه له..

وما قدرت حليمة أن المانح سيكون هو الممنوح.. كما لم تقدر من قبل أن الطالب سيكون هو المطلوب، والمرغوب فيه.. بل والمنى فى وقت عز فيه المنى !

وبقدر ما كانت حليمة تواقة إلى محمد.. والعودة به إلى ديارها فلقد عز فراقه على جده إذ لم يعرف الكون أحدا آثر ابنا لديه كما آثر عبد المطلب محمدا.

ويشهد عبد المطلب انهيار المقاييس فى البيئة.. واستحداث موازين جديدة على يد ابنه..

وحليمة التى عاشت فى ظل ميزان معوج مائل زمنا ليس باليسير تحس اعتدال هذا الميزان على يدى هذا الرضيع الفقير اليتيم.

وتنهار المقاييس في توصيف البشر.. فلم يعد المطلوب هو الغنى وحده.. بل والفقير أيضاً، ولم يعد المرغوب فيه من له أبوان يعيش فى كنفهما.. ويتمرغ في خيرهما، ويتربع على عرش مالهما، بل واليتيم الفقير كذلك.. ولم يعد من يقدم الجود، ويقبل على المكرمة هو من يملك أسباب الجود، ويقبض على ناصية المكرمات.. بل والمعدم كذلك!!

ويعتدل الميزان صوب الإنسانية..

ستأخذ حليمة هذا اليتيم..

تأخذه وحسب..

ونسيت حتى كسرته الوحيدة التي يمكن أن تحصل منها على نصفها لابنها المسكين الذى يعيش بين أبويه، وفي حضنهما، وقد عجزا العجز كله عن منحه الحياة، ومن يدرى... لعله يجد فيمن هشت له، وهفت نفسها إليه، ونبض به قلبها.. لعله يجد فيه وفيه فقط الحياة!!

والحياة ليست كسرة خبز..

ولا.. قطعة من قديد...

ولا.. شربة ماء.. أو رشفة من حليب..

يالله!! ما هذه الحكمة؟!

هى لا تعرف الحكمة..

بل، ما هذا الشعور الجديد.. الغريب؟!

نعم.. هى أدرى به.. وهى فى فطرتها تدركه جيداً..

* * *

وتنظر أم همام إلى ضمام.. وتبرق عيناها ببريق مثير وهى تردف:

– تحتضن حليمة الوليد وجده يسلمه لها، وتتملى منه عيناها فى وله كتوم، هو وله

العاشق، وعشق حبيس هو عشق الصوفي معبوده يبثه لواعج حبه في محرابه.

ما أحلى هذا الوله!!

وما أروع هذا العشق يسيطر على حليمة.. تجلجل أصداؤه الحلوة في النفس الكسيرة فتقوى كأروع ما تكون القوة، وتشتد كأعظم ما تكون الشدة، وتصفو كأنقى ما يكون الصفاء!!

روح جديدة دبت في حليمة..

بل وسرت في نفس ، وعقل، وقلب صاحبها، وهو يوافق راضيا مغتبطا بصحبة اليتيم عائدين به إلى ديارهما.

ولقد سرى شطر من هذه الروح في الكون كله، فغدا مشرقا غاية الإشراق، ولم تعد الصحراء هي الصحراء.. ولا الرمال هي الرمال.. ولا السماء هي السماء.. بل ولا الهواء هو الهواء!!

كسيت الصحراء ثوبا جديدا لم تألفه العين من قبل.. وتلونت السماء بلون جديد لم تستطعمه النفس من قبل.. وصار الهواء نسمات رقيقة تهب بشذا جديد!!

والدابة الهرمة لم تعد هرمة.. والناقة العجفاء لم تعد عجفاء.. حملاهما والوليد، وانطلقوا معا فأسرعوا في الانطلاق..

بزوا الجميع سرعة في طريق العودة..

سبقت دابتا حليمة كل الدواب في مشية لا خشونة فيها ولا قلق.. مشية هي في سرعتها أقرب إلى هدهدة المهد للوليد بيد حانية.

ويزداد الطلب على الطالب.. ويصل الجميع إلى الديار.. وتدهش الدنيا للحدث..

في بني سعد.. بلا زرع يدر الضرع!

فتشرب حليمة حتى ترتوي، ويرتوي معها صاحبها من ناقتهما التي كانت بالأمس مجدبة ويرضع اليتيم، ولأول مرة يشبع معه أخوه في الرضاع.

ويهطل المطر غزيرا فتخضر الدنيا في قاحل الصحراء.. وتتوه الجبال، وتتفجر

ينابيع الخير من قلب الجدب.. ويستنير الكون في حالك الظلام!!

وتتوالى البراهانات..

وتكثر الإرهاصات..

ولا تدرى بنو سعد أن الوليد اليتيم الذى عافته المرضعات يوما لفقره، ويتمه وقلة موارده الملموسة، وصامت حوله حليمة ضرورة.. ثم أخذته رغبة وحبا وجاءت به «بني سعد» وجاءت معه الخضرة تغير وجه الصحراء القاحلة.

جاء يدر الضرع في البهم العجماء.. يسقى الظماء، ويشبع الجياع.

لاتدرى «بنو سعد» أن الذى جاء لهم بالحياة وهو طفل في مفهومها المادى البسيط، سيجيئهم يوما بالحياة فى مفهومها الواسع الرحيب.. حياة العقل والقلب.. حياة الجسد والروح.. حياة الدنيا والآخرة فى ظل خالق الحياة وواهبها، يستقونها مرة أخرى بفكر جديد، وقلب جديد، ويعبون منها ما كفاهم العب، وماقدروا عليه... فقط ما عليهم إلا استرجاع شريط الذكريات، واستعادة الظواهر، واستيضاح البرهانات من وراء الأحداث، واستقرائها.

ما عليهم إلا اليقين بالإرهاصات، واستجلائها من وراء سدف السنين الطويلة، فتقتنع «بنو سعد» أخيرا كما قنعت به أولا، وتؤمن به نبيا ورسولا كما آمنت به من قبل طفلا يتيما لا حول له ولاقوة، وما من عناية كانت ترعاه، وترعى ما حوله ومن حوله إلا عناية ربه الواحد الذى لا شريك له ، والذى بعثه يدعو له، ويبلغ رسالته، وينشر دينه.

وصمتت أم همام، وهى تسرح فى الأفق البعيد..

ويستغرق ضمام بن ثعلبة فى فكر عميق..

.. إن كانت «بنو سعد» تأخرت زمنا ليس باليسير في الإيمان بنبوة محمد، واعتناق دينه، وكان الأجدر بها دون غيرها ألا تتأخر هذا الزمن ، بل كان الأجدر بها، ولها بمحمد صلة معرفية يقينية أن تسرع إليه قبل غيرها، تؤمن به، وتؤازره وتناصره، ولو لم يكن هناك غير شق صدره بين ظهرانيها لكفاها فى أن يجعلها ترقبه، ولا تغفل عنه، وتتابع تطوره حتى يأتى يومه الموعود، وغدها المأمول.

إلا أن «بني سعد» ركبت، أو ركبتها موجة الكفر السائدة في ذلك الزمن الغابر، فشذت ، وعاندت كما عاند غيرها، وحاربت محمدا في مواقع كثيرة كما حارب غيرها، وضاع من يدها مفتاح خلدها.. وخلودها.. حتى جاء الزمن الذى استعادت فيه رشدها، ومحت كل ما مضى!!

واستعادت بصيرتها نور اليقين..

فآمنت بمحمد وصدقت به..

وهى بسبيل أن ترسل وفدا آخر غير وفد حليمة.. وفدا يبايعه بالإسلام.

وما كان محمد اليتيم.. الرضيع المرضع فى «بنى سعد» والنبى والرسول فى المدينة، وبنى سعد، وكل أقطار الدنيا ينتظر منها، ولها أقل من ذلك.

وضمام يقبل أن يذهب إليه نيابة عنها ..

توفد إليه رجلا واحد..

أمينا فى وفادته..

صادقا في كلمته..

حصينا فيما سأل..

وموفقا فيما أجيب به..

* * *

تهيم الراحلة بالمرتحل.. ويرقص قلب المرتحل على توقيع الراحلة، وهما ييممان وجهيهما صوب المدينة لينعما بلقاء الرسول .. رسول الله ﷺ .. محمد بن عبد الله.

لحظة من الزمن.. هى الزمن كله .. يستعجلها ضمام ليصل إلى المدينة، ويلتقى فيها برسول الله ﷺ .. لحظة من الزمن.. هي الزمن كله .. يرى فيها ضمام محمدا، ويتحدث إليه.. فقط يتحدث إليه، ولو جملة ، ولو كلمة، فقط يستقبلها سمعه، وعقله، وقلبه، وهى تخرج من بين ثناياه الشريفة..

ويصل ضمام إلى المدينة، ويقدم على مسجد رسول الله ﷺ، ويريح بعيره فينيخه على بابه، ثم يعقله، ويدخل المسجد، ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه.

وكان ضمام رجلا جلدا، أشعر ، ذا غديرتين [1] ويقبل حتى يقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسأل في صدق:

– أيكم ابن عبد المطلب؟ يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويرد رسول الله، ويخبره أنه ابن عبد المطلب.

ويقول ضمام:

– أمحمد أنت؟

ويقول الرسول الكريم: نعم

ويقول ضمام:

– يابن عبد المطلب.. إني سائلك، ومغلظ [2] عليك في المسألة، فلا تجدن [3] في نفسك.

ويقول الرسول الكريم: لا أجد في نفسي.. سل ما بدا لك.

ويقول ضمام:

– أنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا؟

ويقول الرسول الكريم: اللهم نعم.

فيقول ضمام:

– فأنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده، لانشرك به شيئا، وأن نخلع هذه الأنداد[4] التي كان آباؤنا

---

(١) الغديرة: الذؤابة

(٢) مغلظ : مشدد ومثقل

(٣) تجدن: تحملن

(٤) الأنداد: الآلهة المزعومة

يعبدون معه؟

ويقول الرسول الكريم: اللهم نعم.

ويقول ضمام:

– فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك.. الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس!.

ويقول الرسول الكريم: اللهم نعم.

ويتحدث ضمام.. فرصة العمر.. في لحظة من الزمن يخاطب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقف الزمن كله عندها.. ويذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة.. الزكاة.. والصيام.. والحج.. وشرائع الإسلام كلها.. ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها.. حتى إذا فرغ قال:

– فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد، ولا أنقص.

ثم انصرف.. انصرف إلى بعيره الذي أناخه قبل على باب المسجد.. راجعا إلى قومه في بني سعد.

فيقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

« إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة».

أتى ضمام بعيره، فأطلق عقاله.. وما زال يغذ السير راجعا حتى قدم على قومه.. وما أن وصل حتى اجتمعوا عليه، فكان أول ما تكلم به:

«بئست اللات والعزى».

قالوا:

– لا تقل هذا يا ضمام ، فقد تخرسك الآلهة أو تصيبك بالبرص أو الجنون.

ويجيب ضمام:

– ويلكم يا قوم.. إنها ليست سوى هياكل من حجارة أو طين وهي لا تنفع ولا تضر.

إن الله قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه..

فماذا أنتم فاعلون؟

وكأنه يذكرهم بما كان من أمرهم، وهم يرجون وفادته..

وتستنير القلوب..

فما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما [1]

* * *

(١) ابن هشام جـ ٢

أبواب الجنة

وفـد همدان

لم يترك قيس بن مالك الهمداني شيئا من أفعال الجاهلية إلا فعله!!

شرب الخمر.. فما يكاد يفرغ من كأس حتى يعب أخرى!!

ولعب الميسر.. فقد كان ذا يسار.. ورغم صغر سنه في هذا الزمن إلا أنه كان كبيرا في أهله وذوى قرباه.. وكان سيدا مطاعا في قومه .. وكانوا يفيئونه من دخولهم أيا كانت هذه الدخول : غنائم.. أو تجارة.. أو سطو ونهب واغتصاب.. أو زراعة.. أو صيد وسواه.. كانت له ميزة يمتاز بها، وكانوا لا يقصرون في شئ معه!!

وطارد النساء.. فقد كانت له أكثر من زوجة، كما كانت له كذلك أكثر من خليلة.. هذا من كن ينزو عليهن لرغبة أو نزوة في لحظة مجنونة.. وكل لحظاته في هذا الزمن كانت مجنونة.. ولا حساب، ولا عقاب . فهو الكبير وصاحب الهيمنة والسلطان!!

وتعامل بالربا.. ولا حرج فقد كان التعامل بالربا هو التعامل السائد في المال، لا بين قبائل اليمن وحدها.. وإنما بين كل القبائل العربية في كل الأماكن العربية.. في الجزيرة.. والشام.. واليمن.. والعراق.. كان هذا هو نظام التعامل السائد في المال!!

وعبد الأصنام.. والأوثان.. ولم يكن له ليعبد آلهة غيرها، فلقد شب عن الطوق ولم يجد أمامه إلا هي.. يتقدم لها الآباء بعد الأجداد بطقوسهم، ويتقربون لها بالقرابين.. وينذرون لها النذور.. وكان يجد في حوزتها الحلي، والدراهم الذهبية، والياقوت.. واللؤلؤ.. والمرجان.. ولايجرؤ أحد أيا كان على الاقتراب منها وأخذ شئ مما في حوزتها!!

اليست آلهة؟ والآلهة قادرة على فعل أى شئ؟!

وكان يجفل .. وتصيبه رعدة وهو يفكر في أن يمد يده ولو لمجرد التجربة.. لأنهم كانوا يشيعون أن الآلهة تصيب من يعصيها بالبرص.. وتصيب بالمرض، وتصيب بالجنون.. وتهلك من يثير حفيظتها.. وليس هناك ما يثير الحفيظة قدر التعدى على

الملكية الخاصة، وهذه القرابين.. وهذه النذور.. وهذه الحلى.. وهذه الدراهم.. والجواهر في حوزة الآلهة ملكية خاصة لها.. لا يجوز لأحد الاقتراب منها أو التعدى عليها.

وتصادف أن دخلت في عينه بعوضة، وهو يدور ببصره حول الحلى فى حوزة صنمهم الإله فجفل.. وأصابه الهلع.. ولم يسترح إلا بعد أن قدم قربانا يفوق كل هذه القرابين التى كانت فى حوزة هذا الإله!!

فعل كل ما كان يمكن فعله من ترهات، وأباطيل الجاهلية.. قاد قومه في الإغارة على القبائل الأخرى.. وعلى قطع الطريق.. والخطف والنهب.. والسلب.. وأقرب إغارة تلك التي قامت بها همدان كلها على مراد، وقتلت منها من قتلت.. ثم نهبت.. وسلبت وخربت، ودمرت ما بقى من الديار، وساقت من انهزم أمامها ممن بقى من مراد سوق العبيد، بل وباعتهم فى سوق النخاسة!!

لم يترك قيس بن مالك شئ من أفعال الجاهلية إلا فعله.. ولم يكن يفكر أو يسأل نفسه وهو يقدم على فعل شئ أى شئ ... لم يفعله!؟ ما الدافع!؟ وما النتيجة!؟

ما كانت تتوارد على خاطره هذه الأسئلة.. فلم تكن لحياته فى ظل هذا النظام فلسفة.. كما لم يكن لها هدف.. ولا غاية تصل إليها.. اللهم إلا ما توارثه الأبناء عن الآباء من هذه الحياة!!

وذات يوم.. وكان يقود فريقا من الشباب.. وليس فى ذهنهم شئ محدد فى هذا اليوم حتى بدت من بين ثنيات الوادى ظعينة.. فتواروا خلف الصخور.. واستعدوا للانقضاض عليها وهى تعبر المنحنى أمامهم..

وحانت الفرصة.. ودنت اللحظة.. وخرجوا من بين الصخور كنمور.. أو أساد كشرت عن أنيابها تنتزع بها القلوب من بين الضلوع!!

وكانت المفاجأة التي لم يحسب لها أى حساب.. فردا واحدا من القافلة أخذ يناوشهم في محاولة لاستدراجهم بعيدا عن القافلة وهى تسير..

وعندما صار المكان ميها له الكر والفر.. أخذ يكر، ومع كل كرة يصيح: «الله أكبر» ثم يجندل فارسا من المهاجمين.

ويفر بما يغري بالاستعداد له للنيل منه.. والثار لمن قتل.. وهو فيكر..

وكان قيس ومن معه يرونه ، وهو يكر عليهم.. ولا يرونه فى الوقت ذاته.. كانوا يرونه كتلة مندفعة كجلمود صخر قذف به السيل من أعلى.. فلم يكونوا من سرعته .. ولا عنفه، وشدته يتبينون شيئا من ملامح تدل عليه!!

كان جواده لا يكاد يلامس الأرض بجوارره.. ثم تغلفه عاصفة ترابية وهو يقترب فما كان يرى فيه غير لمعة سيفه، وهى التى تدل على وجوده.. ثم لا يلبث حتى يخطف سيفه عمرا آخر من أعمار الرفاق.. ويزهق روحا من أرواحهم!!

وحدثت قيس بن مالك نفسه بالانسحاب.: بل بالهروب والفرار من هذا الموت المحدق.. والذى لا سبيل إلى وقفة أو مكافحته..

لكن حماس الشباب معه، واندفاعهم، وعدم تفكيرهم فى المصير الأسود، والذى جرهم هو إليه كان يثنيه.

واحتوت الجميع عاصفة ترابية لم يكن فى أثنائها يستطيع أن يتبين وجه من بجانبه.. وما كان يرى غير كفه.. ويستطيع قيس بن مالك فى هذه العاصفة أن يعد الصيحات التى صاحها هذا الفارس الغريب.. صيحات: «الله أكبر» فهى بالضبط بعدد الفرسان الذين جدلهم وأرداهم ، وأطاح برؤسهم من فوق أجسادهم..

هذا كله، والقافلة تسير، وكأن شيئا لم يكن.

وراوغ قيس بن مالك محاولا أن يستجمع فى المراوغة من بقى من الشبيبة معه.. ويهدئ من ثائرة هذا الغريب الشرس.. المتعطش للدماء، والذى لا يضارع جبروته فى أى مكان، وعند أى إنسان من الناس الذين تعامل معهم فى حياته على امتدادها فوجد أنه لم يبق من الشبيبة أحدا على قيد الحياة!!

وأجبره الفارس على الالتفات إليه.. وصيحته تأخذه من جميع أقطاره.. فيستولى عليه الفزع ويصيبه الوجل حتى ليسقط السيف من يده، وكأنه ماء خانته فروج الأصابع.. ثم ينتزعه الفارس من فوق جواده، ويهوى به إلى الأرض.

وفى ثوان يجد نفسه مقيدا بحبال غليظة.. مغلولا فى يديه، ورجليه، ورقبته.. يجد نفسه مربوطا فى ذيل بغل من البغال التى تحمل عليها القافلة بعض أثقالها مع الجمال

والخيول.. وتقترب القافلة من تل.. في سفحه بعض الخمائل.. والحشائش.. وتحين لحظة الراحة في القيلولة، فتأوى إلى الظل الظليل.

ومادام هناك خضرة.. فبالضرورة هناك ماء.

وعثرت القافلة على ماء نمير.. وتحلق الرجال وأشعلوا نارا لإعداد الطعام.. ونزلت النساء في أردية .. وخُمُر غير معهود لبسها بين نساء همدان، ولا غيرهن من القبائل الأخرى.. وقيس بن مالك هناك بين البغال يرسف في أغلاله.. وأنساه ذله من لقوا مصرعهم من خيرة الشباب في همدان، ومن فتنتهم عجبهم بأنفسهم، وأنساهم الكبر ما يمكن أن يلقوه من مصير محتوم كذلك الذى كان ينتظرهم في هذا اليوم المشئوم ، وهذه الساعة السوداء، انساه ذله ما سوف يقوله لقومه إن أتيح له أن يفك قيده.. ويتخلص من أسره.. ويعود لحياته التى كان يحياها جليلا مهيبا، له فى قومه كل شئ.. وليس عليه أى شئ.. وتمنى وهو في معطن الإبل.. ومربط الخيل والبغال.. تمنى لو يضربه أحد ضربة واحدة شديدة تزهق روحه، وينتهي فيها عمره.. ويتلاشى وللأبد.. فهذا أهون عليه ملايين المرات من مصابه.. ومصيره!!

وقد عز المنال بعد أن أكل القوم.. وبعد أن شربوا قاموا وغسلوا بعض جوارحهم .. ثم اصطفوا يتقدمهم واحد منهم.. وأخذ يتلو كلا ماله ترانيم، وإيقاعات رطيبة.. وهم جميعا يتجهون وجهة معينة.. ثم يأتون بحركات فيها قيام.. وركوع.. وسجود .. وسمع ضمن ما سمع الصيحة التى كان يصيحها الفارس، وهو ينقض عليه، ومن معه: «الله أكبر» رددوها كثيرا مع كل حركة يتحركونها.. ثم انتهوا بالسلام!!

ودخل النساء بعد ذلك أخبية صنعوها لهن.. وهدأوا جميعا كأنهم أووا إلى مخادعهم في سكينة، وفى هدوء، وغطوا جميعا في نوم عميق.. وقضوا في راحتهم بقية النهار، وليلة ذلك اليوم!!

لم تغفل لقيس بن مالك عين فى هذه الليلة.. وسرح به الخيال فيما يمكن أن يفعل به.. فيجد نفسه مرة يقطع بسيوف القوم تقطيعا، وخال جوارحه تمزق، وتنتزع منه جارحة جارحة.. ثم خال نفسه مرة أخرى مع التفاؤل الشديد.. والظن الحسن ملقى به فى وهدة من وهاد الصحراء المتسعة الفسيحة دون أن تفك قيوده يلقى مصيره مع

لدغات الحيات والأفاعي، وما أكثرها ، وما أبشعها في هذه المناطق الوعرة، والتي يعرفها جيدا ..

وإن نجا من الحيات والعقارب والأفاعي ،فلن ينجو من مخالب الوحوش ، وأنيابها الحادة، وفي أحسن الأحوال لن ينجو من حرارة الشمس، والعطش القاتل في هذه المفازة المهلكة.

ووجد نفسه تهجم عليه حية شديدة الخطب.. لها صوت كصوت الجرس، وقد ظهرت نواجزها، وهي تقترب منه.. ثم تنشبها في جسده بلا رحمة، وهو يصيح في أغلاله صيحات هيستيرية.. ثم تخفت صيحاته، وهو يحس سمها يسري في جسده حتى يصيبه بالشلل التام، فيستسلم للقضاء، وهو تمر بذهنه حياته كلها.. وما فعله فيها.. وما فعله بها.. ويدرك أن هذه الحياة باطل.. في باطل!!

* * *

ويصحو علي صوت رقيق.. يصحو وقد انحشرت الكلمات في حلقه، وخبا صوته، والعرق يتصبب منه غزيرا بلا حساب.

ويتأكد أنه لم يمت.. وما هو إلا يهذي من هول ما تصور.. وما هو واقع بالفعل في حياتهم التي يحيونها.. يتأكد أنه لم يمت.. والفارس الذي واجههم بالأمس يحدثه، ويتأمله جيدا.. إنه لايعرفه.. قد يكون هو فارس الأمس، وقد يكون غيره!!

يقول له الفارس في سكينة، وطمأنينة نفس لم يعهدها في إنسان قط:

– لا عليك ياسيد همدان.. إن هو إلا كابوس من أثر القيد.. وعطن الإبل والبغال!!

ثم يتقدم منه، ويقتاده بعيدا إلي مكان أرقي.. وهو يتأرجح في مشيته، ولا تستطيع قدماه أن تحملاه كأنه ينوء بأحمال ثقال!!

ويفك الفارس قيده، ويقدم له الطعام والشراب.. ثم يقول له بعد أن ينتهي من طعامه وشرابه:

– يا سيد همدان.. لا شك أن حملك ثقيل..

فيجيب قيس بن مالك، وقد اطمأن بعض الشئ بعد أن فُكت قيوده، وقُدم له الطعام

والشراب.. يجيب وصوته يحمل من ملامح الإجهاد، وما لا يقوى على حمله الرجال الأشداء:

- نعم.. أنت محق وحق الآلهة.. إن ثقل حملي يجعلني أناشدك أن تزهق روحي ... أن تقضي علي.. أن تضربني ضربة واحدة لا أسغب بعدها، ولا أظما!!

فيجيب الفارس:

- هذا لن يكون .. ﴿ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ ﴿ البقرة: ٢٨٦﴾ ، لكن ورب محمد لو عدت لمثلها، ولو كانت من ورائك همدان كلها فلن يعود من همدان إلا أنت.. حتى تحس بفداحة ما فعلت ، وتقتلك الحسرة أشد وأنك من قتلك بسيفي. وترن الكلمة في أذنه: «ورب محمد».. إذن هؤلاء قادمون من مكة.. وهؤلاء لا شك مسلمون!!

لقد سمع الناس وبخاصة من يفدون بالتجارة من مكة يتحدثون عن محمد.. محمد النبي القرشي.. لكن بعد المسافة عن مكة، وقلة وصول الأنباء عن الأحداث فيها .. وربما قريش، وما تفرضه من تعتيم حتى لا يصل الخبر الصحيح عنه.. كل هذا وغيره من ملابسات جعل المعلومة عن محمد ذاته تبدو ضئيلة.. إنما خبره كنبي وصله.. وهو يعرف هذا الخبر.. لكنه لا يعرف شيئا عن نبوته، ولا عن دعوته.. ولا عن شخصيته.

وتكبر قليلا: أيمكن أن تكون هناك علاقة بين الفارس وما فعل وبين ما يعتقده؟! وهز رأسه: قد تكون هذه الأسئلة سابقة لأوانها.. لكنه رغم فداحة ما به انغرس في وجدانه شئ اسمه محمد.. وانطبعت في ذهنه حاجة اسمها دعوة.. ومحمد ودعوته باتا يطغيان في وجدانه وذهنه على كل ماعداهم!!

أكل ، وشرب.. وقد فك قيده.. وأيقن من النجاة.. والعودة سالما للديار..

وسأل:

- وهل تعلمني من أنتم؟ وإلى أين تسير بكم الطريق؟!

- إذا كنا سنلتقي .. ستعرفنا.. وإن كنا لن نلتقي فليس بك حاجة إلى أن تعرف عنا شيئا .. نحن عابرو سبيل وكفى!!!

اذهب يا سيد همدان.. ولكاني والله أرى لك شأناً غير الشأن .. وموقعاً غير الموقع!! ولقد كان أسهل على من قيدك ضرب عنقك.. وإن القضاء عليك خير من أن افك قيدك ، فإنك إن لم تستفد من هذه اللحظة ستمضي وفي قلبك ثأر علي!!

ولكني أقول: اذهب يا سيد همدان ، ولسوف يميتك الله على مصابك، وعلى أن تواجه قومك!!

وقدم له الفارس جواده.. وأعطاه سيفه.. ورآه متعثراً ضالاً، فأرشده إلى الطريق الصحيح..

وانطلق.. وانصرفوا..

★ ★ ★

عاد قيس بن مالك مذهولاً حتى عن نفسه.. فلم يتبين حجم الكارثة إلا عندما اقترب من الديار.. وعندما سألته الأمهات عن الأبناء... والزوجات عن الأزواج.. وكان في كل سؤال .. وفي كل عين.. وفي كل نظرة يتجرع المرارة!! كان يحس الاتهام لأول مرة في عمره المديد..

وعندما قال واحد من القوم:

– أمي مراد، وقد خرجت من حجرها تلدغ كالأفعى!؟

أجاب على الفور:

– لا وحق الآلهة.. فما حدث لا يقدر عليه إلا أربابه.. وإنهم لمسلمون!

ولم يتلفت القوم كثيراً إلى تعليقه.. بل لم يكادوا يسمعون كلمة: «مسلمون» هذه الكلمة لا تعني لهم شيئاً .. ولا تثير عندهم حساً.. أو فكراً.

وبقي قيس بن مالك في داره أياماً .. وكلما بعد الزمن بينه، وبين هذا الحادث كلما استرجع قواه النفسيه والفكرية.. ووجد نفسه يعيش مع محمد.. ورب محمد!!

«محمد» نبي كما يقولون.. وله رب آخر غير أربابنا.. كان الفارس، ومن معه يناجونه في حركاتهم وسكناتهم.. في صلاتهم التي لا يعرفها.. لم يكونوا يرونه.. إنما كانوا يتجهون إليه كأنه يراهم.. لاشك أن هذا الإله يختلف عن آلهتنا، ولا شك أنه هو

الذي ساعد الفارس وحده حتى تغلب علينا.. لقد أمده بطاقة خلقه بها يستطيع أن يواجه الدنيا كلها.. وإلهنا لم يمدنا بشيء!!

ذهب إلى المعبود «الصنم» يستجلي الأمر فيما بينه وبين نفسه.. وبدأ بتجربة بسيطة دفعه إليها فكر بسيط لكنه عميق الدلالة..

قال في نفسه: فلآخذن الحلي من خلف الإله... فلعله أن يحس بي.. فإن أحس أعتذر له بتقديم كل ما أملك.

وأخذ الحلي من خلفه، فلم يمنعه مانع.. وذهب بها إلى بيته.. وأخفاها أياما.. وواراها ليالي.. وكان من آن لآخر عندما تظلم الدنيا يخرجها، وينظر إليها فقد يكون أخذها الإله خلسة كما اختلسها هو.. أو ربما يكون غيّر معالمها.. فيجدها كما هي.. ويجد نفسه، وقد تشجعت أكثر من ذي قبل تدفعه التجربة إلى أن يذهب بها أبعد من ذلك.. فليأخذ الحلي مرة أخرى ويعيدها من خلفه.. ثم يقربها له من أمامه، ويأخذها وهو ينظر إليه.. وهاله أن شيئا مما كان يتصوره لم يحدث.. لم يعترض الإله .. ولم يبد ما يدل على سخط.. أو إحساس بما يحدث قريبا منه.. من وجهه .. من فمه.. من عينيه.. وضعها في فمه.. في عينيه.. لطمه بها.. فلم يبد على ملامحه أي تغيير، لطمه على وجهه بيده.. فاهتز من شدة اللطمة.. لكنه لم يفعل شيئا!!

كاد قيس بن مالك يصرخ:

«ألا تحس .. ألا تدافع عن نفسك.. وممتلكاتك!؟»

وذهب بدون حلي وهو تساوره الشكوك فيما ورث من الآلهة.. وهل إذا لم تستطع الدفاع عن نفسها، ولو حتى بإظهار عدم الرضا هل يمكن أن تصيب بالجنون.. أو بالبرص.. أو بالمرض.. أو بأية إصابة؟

★ ★ ★

ومرت أيام .. ولم يحدث شيء!!

أوشكت صلاته بقومه أن تنقطع.. فقد غدا منذ آخر تجربة يختلي بنفسه كثيرا، وقد استولى عليه هم كبير،

«كنا نذهب قبل المعركة نتبرك بالآلهة.. فما كنا إلا نتضرع في دمائنا .. وبالأمس القريب نذرنا ربع ما نغنم لإلهنا.. فرحنا غنيمة لمن عبدا إله محمد.. إلهنا خذلنا.. وإله محمد نصر عابديه.. لا ... بل إلهنا لم يحس بنا.. إنه لا شيء.. فليس إلا حجارة صماء، لا ترى ولا تسمع، ولا تتكلم.. حجارة خلت من كل مقومات الحياة.. وحتى لو كانت عبادتنا لها زلفى لتقربنا إلى الله ، سواء كان رب محمد أو أي رب آخر أعظم، وأقوى.. فكيف يتأتى لها القيام بأعباء الوساطة وهي فاقدة كل حس وكل حركة.. كل نشاط فكرى أو معنوى أو وجدانى.. أى نشاط.. أى نشاط!!

وكاد يصاب بالجنون وهو يواجه نفسه:

أيمكن أن نكون قد خدعنا هذه القرون!؟ أيمكن أن نكون قد ورثنا هذه الخديعة اللاحقون عن السابقين.. والسابقون عن سابقيهم!؟

لكن من خدعنا!؟

نحن الذين خدعنا أنفسنا .. نحن بعقولنا نفكر.. ونحن بفكرنا نختلف عن المخلوقات الأخرى ... فإذا لم نفكر، فلا فرق بيننا ، وبينها!!».

وأخذ يستبين بعض حقائق الأشياء.. وتتضح له بعض المعالم الصحيحة:

«لأننا لم نفكر.. عبدنا آلهة صنعناها بأنفسنا لأنفسنا.. ولأننا لم نفكر أخذت تسير حياتنا هذا السير الذى أراه الآن، والآن فقط ... سيرا معوجا إلى أبعد مدى،

هتكنا الأعراض ، ونتشدق بالحفاظ عليها.. وذبحنا الحرمات، ونحن نقول إننا نصونها... وقفزنا بعضنا على بعض في حيوانية بلا ضابط.. وبلا نظام.. بل إن حياتنا كلها بلا ضابط وبلا نظام!!

واعترته نوبة.. كان يصرخ.. ويهيج.. ولا يسكن إلا عندما يتغلبون عليه، ويضعونه في فراشه.. ويهيلون عليه الأغطية ، وهم يحاولون أن يهدأ، وأن يستعيد رباطة جأشه، وثبات وجدانه.

وعندما يفيق من نوبته يخرج إلى الخلاء بعيدا عن الناس.. والنور، يقلب بصره في السماء.. ويتابع الشمس من مشرقها إلى مغربها .. ويتأمل القمر والنجوم.. والأرض

والخضرة.. والمياه.. وحركات الناس.. والجماد والحيوان حتى صارت له ملاحظة بل وبنت هذه الملاحظة شديدة..

لا يمكن أن تكون هذه الأمور اعتباطية.. الناس.. والسماء.. والشمس والقمر، والنجوم.. والجماد والحيوان.. لا يمكن أن يكون العقل في الإنسان اعتباطيا.. لا يمكن أن تكون هذه الحياة التي نحياها اعتباطية.. ولا يمكن أن يكون الخالق مثل مخلوقاته!!

ويكاد يصيح: «أين أنت أيها الفارس لتدلني.. أقسم إني ما عدت أحمل لك ضغنا.. أريد أن استرشد بك.. ليتك دللتني عليك فأهرع إلى حيث أنت أني تكون.. أريدك أن تعرفني به.. أريد محمدا يدلني على ربه.. أريد أن أصل إلى رب محمد.. فهو ربي، ورب كل شيء».

وأخذ قيس بن مالك يتسمع الأخبار.. أية أخبار يمكن أن تصله بمحمد.. أية أخبار يمكن أن تصله عن محمد.. من خلال التجار الذين يفدون على مكة ويعودون منها. وعرف أن قريشا تطبق على محمد في مكة بكل إمكانياتها المادية.. والمعنوية.. وعرف أيضا أنها تتكاثر عليه بحلفائها المنتشرين في الجزيرة من أقصى جنوبها في اليمن إلى أقصى شمالها في الشام.. ومن أقصى شرقها في البحرين إلى أقصى غربها على ساحل البحر.. وعرف أيضا أنها تضع العراقيل في طريق الدعوة بانصياع معظم القبائل لتوجيهاتها بحكم ارتباطاتها المالية، والتجارية التي كانت تحتكر إداراتها في هذه الفترة من الزمن!

وكلما حاول أن يعرف عن محمد شيئا.. تدفقت إليه المعلومات.. وضوت إليه الفطر السليمة والقلوب النقية.. والعقول المتفتحة.

وتوصل إلى أن قريشا تحاول أن تضع نوعا من التعتيم على أخبار محمد.. وتسعى مستميتة ألا تخرج أخبار محمد إلا من خلالها.. فأذاعت عنه أنه مجنون.. لكن الحقيقة كانت تصل الناس في كل مكان.. وهي أن عقله لو وضع في كفة، وعقول من في السماوات السبع والأرضين في كفة لرجح عقل محمد.. وطاش سهمها فقالت إنه ساحر يفرق بين الأخ وأخيه.. وبين الابن وأبيه.. والحقيقة تقول عكس ذلك، وهي أن قريشا هي التي فقدت رشدها.. تؤكد هذه الحقيقة الأصول التي قامت عليها دعوة محمد.. والغاية

منها.. وهي لا تكون وبالقطع إلا في صالح الإنسان على هذه الأرض..

وقالت قريش عنه إنه شاعر.. والحقيقة تقول عكس ذلك تماما، فقريش في حقدها على محمد نسيت أنه لايهيم في الخيال، ولا يقول إلا ما يفعل.. وما يدعو إلى سبيل ربه إلا بالحكمة، والموعظة الحسنة.

كلما حاول قيس أن يعرف تدفقت إليه المعلومات.. ووصلت إليه المعرفة اليقينية.

واكتملت في النهاية صورة عن محمد... على البعد عنه.. وصورة عن دعوته من خلال بعض المسلمين الذين هربوا من مكة ليعيشوا في أماكن نائية آمنة.. وكانوا بمثابة مبشرين في أرجاء اليمن.

واهتدى قيس بن مالك إلى أن يذهب إلى مكة، وأن يلقى محمدا!!

* * *

لا شك أن ما اهتدى إليه قيس بن مالك كان عن اقتناع..

وقيس فيما اهتدى إليه وصل به إلى مرتبة الزعامة عن جدارة..

فالزعيم الحق هو الذي يرود لقومه الطريق.. وهو الذي يهديهم لأقوم السبل.. وهو الذي يكون في صدارة المسعى إذا كان في ذلك ما يعود عليهم بالخير.

وليس الزعيم من يتربع على عرش الزعامة، ويقول لمن حوله دلوني على الطريق وقولوا لي: أين أقوم السبل؟!

مثل ذلك الزعيم يصل متأخرا عن قومه كثيرا.. ولن يكون إلا سببا في تخلفهم وعقبة في سبيل تقدمهم.

اهتدى قيس بن مالك إلى محمد يصل أسبابه بأسبابه.. وينهل منه ، لا من سواه ، ما يصلحه، ويصلح قومه.. ويأخذ عنه، لا عن غيره، أصول العقيدة الصحيحة.. فإن أحدا مهما بلغ فهو غير مستطيع أن يعود به إلى ما كان عليه..

قرر قيس بن مالك الهمداني، ولا سبيل إلى إثنائه عما قرر.. وعزم عليه..

وكان زعيما حقا كرة أخرى عندما دعا رؤساء القبائل في همدان ممن له عليهم

ولاية.. وحق السمع والطاعة..

دعا رؤساء «أحمورها» ويعني بها قبائل «قدم وآل ذي مران» ، وآل لعوة، وأنواء، وهمدان.

كما دعا «عربيها» ويعني بها قبائل «أرحب، ونهم، وشاكر، ووداعة، ويام، ومرحبة، ودالان، وخارف، وعذر، وحجور».

وعندما التأم الشمل، ووسعت الجميع جلسة واحدة،

وقف زعيم آل ذي مران وقال:

– يا أخي العظيم وزعيم قبائل وعشائر وبطون همدان أحمورها [1] وعربيها [2].. لقد كنا في بأس شديد، وأنت تتقلب بك عوامل الصحة، والمرض.. وكم دعونا أن يؤخذ من أعمارنا ليضاف إلى عمرك!! فأنت نعم الزعيم يحب قومه.. ويعمل على إسعادهم، وأن تبقى رؤوسهم عالية تحاكي السماء!

وعقب زعيم أنواء:

– حسن ما قال أخي رئيس آل ذي مران.. وأضيف..

لقد خبرناك في القيادة فقدتنا إلى النصر.. وإنا وحق الآلهة لنفديك بأرواحنا.

وعقب زعيم مرحبة:

– لقد جئنا على عجل.. وقلنا: ما الذي حزبك.. ولم تدعنا من قبل على هذا المستوى.. لا شك يا أخي في أن الموضوع خطير، أهي حرب!! أيمكن أن تكون خرجت من جحرها!! وحق الآلهة لنثبن عليها وثبة تفتت منها الضلوع، وتذيب داخلها القلوب!

ولنبركنَّ عليها برك البعير على الحصى، يسحقه سحقا، ولا يسلم منه شيء!!

فقال قيس بن مالك:

– يا إخوتي.. وإني لسعيد بكم.. وبهذه الروح القوية.. روح الإخلاص، والإخاء

---

(١) أحمورها: قبائل المدن والقرى.

(٢) عربيها: قبائل البادية.

والمودة.. وروح الغيرة على همدان.. وهمدان ما صارت إلى ما صارت إليه من عز، ومن سيادة وشرف إلا بكم.. فأنتم رجالها.. وأنتم فرسانها المغاوير.

وماد عوتكم إليه ليس بشأن مراد، ولا بأي مما يمكن أن يجول بخاطركم من هذا القبيل.

دعوتكم لموضوع أخطر.. وعمل أجل.. ولاكن صريحا كعادتي يحدوني في ذلك أني رائدكم، والقوس.. وأهلي في همدان.. والرائد لايكذب أهله..

فحدثت همهمة:

– نعم.. نعم.. ولنعم الرائد أنت.

فأردف:

– كثر الكلام.. وتواردت الأخبار عن نبي في مكة اسمه محمد بن عبد الله ، من قريش، جاء بدعوة تقوم على عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.. الذي لا شريك له، ولا زوجة، ولا ولد..

فحدثت ضجة.. وساد هرج، ومرج بعض الوقت.. فصمت قيس بن مالك حتى تهدأ الضجة .. فقام زعيم آل ذي لعوة وقال:

– يا إخوتي زعماء ورؤساء همدان.. لقد تعودنا في اجتماعات سابقة أن نستمع بعقل.. وأن نتكلم بمنطق.. فلا تدعوا العواطف والمشاعر تفسد علينا هذا الاجتماع، وما أظنه إلا خطير.. وخطورته تكمن في موضوعه الذي يحدثنا عنه زعيمنا قيس بن مالك!!

فعقب زعيم قدم:

– لا أجد الخير إلا فيما قال أخي زعيم آل ذي لعوة..

يا إخوتي يجب ألا يكون الخلاف في «الرأي» سببا للشقاق، والتفرق فيما بيننا.. فلنستمع إلى زعيمنا.. ولنع جيدا ما يقول.. وليدلِ كل منا بدلوه ولا حرج.. نتفق أو نختلف.. لا يهم.. المهم هو ألا نفترق إلا ونحن وحدة كما كنا دائما!

وعقب زعيم شاكر:

– لابأس .. لا بأس.. الرأى للجميع.. والحكم للجميع.. والقرار للجميع، ولزعيمنا فى النهاية التصرف .. ولا داعى للجمجمة دون طائل!!

فلنسمع أولا.. ولنعرف قضيتنا.. ولنستوعب أبعادها، ونحكم العقل والمنطق ولنهتد بالحكمة.. فهذا ما تمليه علينا مسئوليتنا جميعا.

وقال زعيم «يام» وقد هدأت الضجة موجها كلامه إلى قيس بن مالك:

– لا عليك يا زعيمنا.. وهذا الذى حدث من ضجيج شئ تعودناه من زمن بعيد... فلست المقصود، ولا ما تتحدث عنه.. وما أراننا ننفر إلا من الجديد لا لشئ قط إلا لأنه جديد..

ونظر الجميع فوجد معظمهم يومئ برأسه موافقا على قوله.. ثم نظر إلى قيس بن مالك قائلا:

– ابسط القول وحق الآلهة.. فما أراننا إلا على أبواب فتح جديد.. وعالم جديد!!

فقال قيس بن مالك:

– والله لا أقول إلا ما قاله محمد لقريش: « والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم». فأنتم أهلى .. وأنتم لى اللُّحمة والسداه.. وما أردت إلا الخير.. وما قصدت إلا أن تبقى لكم السيطرة فى المنطقة، وألا تنتزع منكم السيادة على أرضكم.

لقد بت ليالى مسهدا.. مؤرقا.. أفكر.. وأضرب الأخماس فى الأسداس.. وأقيس الأشياء بنظائرها، وأوازن بين الأمور.. فما وجدت فى دعوة محمد ما يُرفض.. ولو قلت لكم عما فعلت بما تعتقدون أنه إله.. وحكمتم المنطق والعقل.. فلن أحتاج معكم لحديث آخر، ولن تحتاجوا إلى دليل ببطلان لحياتنا الروحية أكثر من هذا الدليل..

فحدثت همهمة:

– ماذا فعلت!! -

– لقد سرقت حلى هذا الإله فلم يدر بما فعلت.. ثم أعدت ما سرقت وأخذتها أمامه فلم يفعل شيئا.. ثم لطمته على وجهه فى تَحَد أن يصيبنى بالبرص أو المرض أو الجنون.. فلم يصب.

يا إخوتي ما أرانا إلا خُدعنا زمنا طويلا في هذه الآلهة المزعومة.. فنحن الذين صنعناها.. صنعها واحد واختفى.. لم يقل لأحد لماذا صنع هذه النماذج.. ولا ماذا تحاكي هذه الأصنام الممسوخة.. وأنا أمامكم جميعا أعلن أنها قطع من حجارة لا تضر، ولا تنفع.. إن هي إلا أشياء جامدة ميتة لا حياة فيها، ولا ما يشبه الحياة.. لا تفترق في شيء عن النعال التي تضعون فيها أقدامكم.. بل إن النعال أكثر فائدة. فحدثت ضجة في جانب من المجتمعين.

فقال في حزم، وكان قد استحضر نموذجا لإلههم الذي يعبدون ثم صاح:

– فلنكن واقعيين، ومنطقيين.. ولعمري ما قلت هذا من فراغ.. وما قصدت تزجية الوقت و مثلي لا يضيع وقته، وأنتم تدركون هذا.. ولعمري لقد كانت التجربة هي دليلي.. والمنطق هو برهاني.

ثم نادى خادمه، وأخلص خلصائه «صفوان»:

– هاته إذن يا صفوان.

فدخل شاب أسمر واضح الملامح رخي الصدر، نشيط القلب.. يحمل حملا ملفوفا في عباءة.

وعندما صار وسط المجتمعين، والكل ينظر إليه، وضع ما معه على الأرض.. ونزع العباءة عنه، فإذا هو إلههم الذي يعبدون.. صنمهم الكبير.. ثم انصرف وقام قيس بن مالك، وتقدم نحو هذا الصنم في ثبات، ويقين، وهو يقول:

– من منكم لا يزال يعيش في وهم هذا الأفاق.. ويخشى على نفسه البرص، والجنون، فلينصرف عن هذا المجلس:

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾ ﴿الأنعام: ١٢٥﴾

ثم وقف أمام الصنم وفي يده رمح.. هو قضيب من حديد صدئ، وهوى به عليه في قوة، وما زال يهوى.. ويهوى.. حتى حوله قطعا متناثرة..

وحدثت أثر ذلك ضجة..

هلع فريق مما يرى.. فترك المجلس، وانصرف لا يلوى على شئ..

وشك فريق.. واستولى عليه الشك ، فانصرف دون أن يقرر شيئا..

وثبت فريق وجعل يكبر، وما زال يكبر حتى انتهى قيس من تحطيم الصنم.. وعاد إلى مجلسه، ولم ينضح ماء وجهه قطرة عرق واحدة.

* * *

لم يبق أمام من بقى شك فى زيف عقيدة الجاهلين فى همدان..

سألوا قيسا عن محمد.. هل هو ملك؟ وسألوه عن دعوته.. ماذا تُحلُّ وماذا تُحَرِّم؟

واتفق معهم على أن ينتهزوا أول فرصة يذهب فيها إلى مكة، ويلقى محمدا.. ولسوف يعرف منه المزيد!!

وانتهى الاجتماع بتأييد من بقى من المجتمعين لقيس فيما عزم.. وفيما قرر!!

* * *

للإيمان مذاق خاص لا يجد حلاوته إلا المؤمنون.. وحلاوة الإيمان تفرض نفسها... فلا يكون معها شئ آخر.. تأخذ الإنسان سكرتها فلا يحس بشئ سواها.. لا خوف من إنس أو جن.. الخوف كل الخوف من خالق الإنس، وخالق الجن، ومدبر كونه الذى أوجد فيه مخلوقاته..

وقيس فى الطريق إلى مكة فى موسم من مواسم الحج، فرصته التى يلقى فيها محمدا صحبه فريق من المسلمين ممن يعرفون بعض قصص الجيل الأول من المسلمين.. جيل أبى بكر وعمر.. وعلى بن أبى طالب.. وبلال الحبشى.. وياسر وسمية، وابنهما عمار..

وقيس فى الطريق لا يحس إلا بحلاوة الإيمان لا يستمع للحادى يحدو الإبل بالكلام المعهود.. وإنما يصرفه عنه ما يسمع من قصص بلال.. والقرشيون يعذبونه، بأقسى أدوات التعذيب حتى الكى بالنار.. وإلقائه فى الرمضاء، ووضع الحجارة الغليظة المحماة على صدره.. والقرشيون ينكلون به أشد التنكيل.. وهو كأنه لا يتعذب، ولا يعيش لحظة واحدة من هذا الذى يلاقيه على أيديهم.. ويتحداهم أن يكون هذا التعذيب قادرا

على صرفه عن إيمانه.. أو منيته غير حلاوة الإيمان.. يتحداهم أن يستجيب لهم فى كلمة واحدة يتمنون لو قالها ليكفوا عما يفعلونه به.. ويصر على كلمته التى تعلمها من محمد.. والتى نقلته هذه النقلة الفائقة من الكفر إلى الإيمان.. إلى الإحساس بحلاوة الإيمان.. نقلته من العبودية للبشر إلى العبودية للخالق الواحد الأحد.. ومن ثمَّ إلى الإحساس فى ظل هذه العبودية الجديدة.. العبودية الحقة بمنتهى التحرر، وغاية ما يطمح إليه إنسان فى الوجود وقيس فى الطريق لا يحس إلا بحلاوة الإيمان يستمع إلى قصة سمية، والقرشيون يطعنونها فى عفافها.. فلا تهتم .. وتسلم الروح.. وكان ما تلاقى لا شئ بجانب لذة الإيمان وحلاوته!!

وتطوى الطريق لقيس بن مالك ورفاقه..

ويصل إلى مكة سالما.. ويوهم الدنيا بأنه جاء من أقصى الأرض ليؤدى فريضة الحج.. وكان الحج مفروضا مما بقى من دين إبراهيم عليه السلام.

ويلقى الرسول .. فلا يجد ملكا متوجا كما تخيله بعضهم فى الاجتماع وكما طلبوا من معرفة حقيقته.. يجد إنسانا تجمعت فيه كل فضائل الإنسانية.. يجد بشرا سويا تجمعت فيه كل خلال البشرية الكريمة.. يجد نبيا ورسولا من عند الله ... تجمعت فى رسالته... حلمُ البشرية كلها، وأملها فى أن تخرجها من الظلام إلى النور.. ومن الضلال إلى الهدى.. وأن تستفيد به طبيعتها البشرية الصرفة.. وحقيقتها الإنسانية السليمة، وما جُبلت عليه من حب الخير والحق والعدل، وما فطرت عليه من إحساس بالكرامة الإنسانية المتمثلة فى منع العدوان على الآمنين، وعدم سيطرة القوى على الضعيف أو استرقاقه، وامتصاص الغنى لدم الفقير واستيلائه على مخصصاته، وعرقه، وجهده!!

وجد نبيا ورسولا بعثه الله برسالة تضع نظاما عالميا جديدا لمجتمع جديد وحياة جديدة تقوم على المحبة، والتراحم، والتعاون بين البشر جميعاً بلا تمايز بسبب اللون أو الجنس أو الدم.. التمايز كل التمايز بالتقوى والعمل الصالح.

ويعيش قيس مع الرسول ﷺ أروع لحظات عمره.. ويعلن إسلامه بين يديه.. ويعلم من الرسول متطلبات الإسلام.. فيعرف أركانه، ويبايع على الالتزام به.. والوفاء

بمتطلبات، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله.. ثم يعرض على الرسول الكريم أن يترك مكة، ويذهب معه إلى اليمن!!

ويدرك الرسول ﷺ بفضل ربه صدق هذا القادم من الديار البعيدة، ويدرك ما حدث، وما دار في الاجتماع الموسع .. وما انتهى إليه.. ويدرك أن لله في تركه مكة شأنًا هو مبديه.. فيقول له صلوات الله وسلامه عليه، قولا يثلج صدره ويطلب منه أن يرجع إلى قومه ويرى رد الفعل لدعوته في نفوسهم.

كان لقيس مع النبي ﷺ شأن.. وكان لله شأن آخر.. فلقد دخل الأنصار في الإسلام (١) وتولوا أمر الدفاع عن محمد.. وكان دخولهم في الإسلام توطئة لهجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ، وقيام الدولة الإسلامية، وتحديد معالمها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية والاجتماعية، والثقافية، وبقيامها يكتمل النظام العالمي الجديد.

* * *

ويعود قيس إلى الديار.. يعود مسلما حقا.. ويسلم معه من قومه فريق كبير.. لكن همدان تفترق بين مصدق ، ومكذب ... وبين مؤيد ومعارض ... وبين مسلّم بتداعيات الأحداث مذعن بحتمية انتصار الدعوة وقيام النظام الجديد في ظل الإسلام بديلا عن التيه القديم في ظل الشرك والجاهلية.. وبين معاند يحاول في ظلام الشرك أن يشق له طريقا بعيدا عن نور اليقين.. ولكن هيهات!!

ويدور الصراع بين المؤمنين والكافرين، فيشتد أحيانا بتعدى الكافرين على المؤمنين تقليدا لما يفعله أهل مكة بمحمد وأصحابه، ويخف أحيانا عندما يتذكر الجميع ما يربط بينهم من أواصر الدم والنسب، والقرابة، والمصالح المشتركة.. لكن أذى المشركين للمسلمين بينهم لا ينقطع على المستوى الفردي أو الجماعي.. ويوما بعد يوم يزداد تفتح العقول المغلقة لنور اليقين.. وتزداد استجابة القلوب الظامئة لحلاوة الإيمان وسعادة الدارين..

وترى الدنيا في هذه المنطقة من الأرض العربية بوادر التغير الجارف نحو الحق.. وتقوم بعثة أخرى من همدان على غرار بعثة قيس بن مالك.. ويترأس هذه البعثة رجل

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية.

مؤمن هو عبد الله بن أم غزال لكن قوى الشر تترصد له، وابعثته فتقضى عليها قبل أن تصل إلى غايتها.

فبعد إعلانه لإسلامه بين يدى الرسول ﷺ وبيعته عن قومه، وهو فى الطريق من مكة إلى همدان.. فى طريق عودته ليقوم بدوره المطلوب منه كما قام سلفه قيس بن مالك يكمن له فى الطريق واحد من بنى زبيد أعماه الحقد، وأضله الشرك.. وسلب الكفر منه نور البصيرة.. ويغتاله قبل أن يصل إلى قومه!!

★ ★ ★

ويستمر الصراع فى همدان بين الكافرين والمسلمين.. ويهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة.. وتشتد المطاردة بينه وبين الكفار.. ويأذن الله له في رد عدوان المشركين ووقف أذاهم:

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ ﴿الحج: ٣٩﴾

ويدخل الرسول ﷺ معارك معهم.. وتنتهى المعارك بفتح مكة.. وانتصار الرسول على هوازن.. وحصار الطائف.. ثم تضع الحرب أوزارها فى قلب الجزيرة حيث لا مبرر لها فقد أخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.. لكن الصراع فى همدان وغيرها من قبائل اليمن ما يزال بين المسلمين، والمعاندين.. ويوجه الرسول الكريم جيوشه لتجوب هذه المنطقة فى إنذار صريح ليكف الضالون أذاهم عن المهتدين..

وتحدث القوة صدمة لدى المعاندين.. فيفيقون على إثرها ليروا أنفسهم وقد تخلفوا عن ركب التقدم والنهضة.. تخلفوا عن ركب الإنسانية.. ركب النور والهداية زمنا ليس باليسير.. ويتدارك القوم المتخلفون من همدان الموقف.. ويطلبون من إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان المساعدة.

ويُدعَى إلى اجتماع عام ينتظم الجميع مرة أخرى بعد طول تشتت، وفرقة ما كان أغناهم عنها لو أنهم حكموا المنطق والعقل يوم دعاهم قيس بن مالك، وأعلن على ملئهم الإسلام!!

﴿... عفا الله عما سلف﴾ ﴿ المائدة: ٩٥﴾

وتصفو الضمائر.. وتطمئن النفوس.. وتجيش العواطف بحب الله.. وحب رسول الله..

وتذعن الإرادة الهمدانية. وتستسلم القدرة لديها أمام إرادة وقدرة الخالق ويقر الجميع بالإسلام..

ويكونون وفدا يذهب إلى المدينة هذه المرة لا إلى مكة.. ويلقى نبي الرحمة، ويبايع بالإسلام.

ويكون على رأس هذا الوفد قائدا له مالك بن نمط، ويضم الوفد في عضويته، مالك ابن أيفع، وضمام بن مالك السلّماني، وعميرة بن مالك الخارفي.

ويلقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في ملابس يمنية.. وعلى رؤوسهم عمائم عدنية على رحال مصنوعة من الخشب تكون على ظهور الإبل المهرية النجيبة، والتى تشتهر قبيلة «مهرة» بإيوائها والاحتفاظ بها، وكذلك الإبل الأرحبية النجيبة، والتى تشتهر بإيوائها والاحتفاظ بها قبيلة أرحب الهمدانية.

ومالك بن نمط ، ورجل آخر يرتجزان بالقوم.. يقول أحدهما (١)

همدان خير سوقة .·. ليس لها في العالمين أمثال (٢)

محلها الهضب ومنها الأبطال .·. لها إطابات وآكال (٣)

ويقول الآخر

إليك جاوزن سواد الريف .·. في هبوات الصيف والخريف (٤)

مخطمات بحبال الليف (٥)

ويشرق النور من نبي النور على القوم.. يتجلى عليهم نبي الرحمة رسول رب العالمين المبعوث رحمة مهداة.. ويستقبلهم بما يليق بهم مؤمنين موحدين.. ويرحب بهم في ضيافة الرحمن.

---

(١) ابن هشام جـ ٢

(٢) السوقة: من دون الملوك من الناس. الأقيال : الملوك دون الملك الأكبر.

(٣) الهضب: ما ارتفع من الأرض، الواحدة هضبة.. يصف علو منزلتها. الإطابات : الأموال الطيبة. الآكال : ما يأخذه الملك من رعيته وظيفة له عليهم

(٤) السواد: القرى الكثيرة والشجر والنخل ، الريف: الأرض التى تقترب من الأنهار والمياه الغزيرة. الهبوات: جمع هبوة وهى الغبرة.

(٥) مخطمات: جعل لها خطام وهى الحبال التى تشد فى رؤس الإبل على أنافها، الإلهات: جمع آلهة.

وتسرى فى عروقهم سكينة لم يعهدوها من قبل.. ويستولى عليهم هدوء غريب.. وتنجلى منهم العقول.. وتستنير القلوب.. ويحتويهم نور.

وقبل أن يحدثهم الرسول الكريم عن الإسلام الذى عانوا فى سبيله. وقطعوا الفيافى والقفار من أجله.. ينبهر مالك بن نمط كما انبهر رفاقه بالرسول.. ويجد نفسه، يسبح في جلالة الحضرة المهيبة التى تجل عن الوصف لأنها فوق الوصف.. ثم يلهج لسانه:

- ي ارسول الله.. هاهم أولاً.. خيار القوم، وكبارهم من همدان يمثلون كل حواضرها.. وبواديها.. أتوك يا حبيب الله على إبل تجيبية قوية سريعة.. يتصلون بحبائل الإسلام لا تأخذهم فى الله لومة لائم.. جاءوك يا رسول الله من كل مدينة، وكل قرية، وقد أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الإلهيات والأنصاب [1] وقد عاهدوا الله، وعاهدوا رسوله عهدا لا ينتقض أبدا ما أقامت لعلع [2] وما جرى اليعفور بصلع [3].

وأعلن القوم إسلامهم.. وبايعوا به عن أنفسهم.. وعن قومهم.

وعلمهم الرسول ﷺ من فضل ربه علمه عن الإسلام: أركانه.. واجباته.. نواهيه.. ما يحل وما يحرم.. ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا حدد فيه أرضهم ، وديارهم ومياهم، ومراعيهم.. وجاء فى الكتاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من رسول الله ﷺ لمخلاف خارف [4] وأهل جناب الهضب، وحقاف [5] الرمل مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ، ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها [6] ووهاطها [7] ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، يأكلون علافها [8] ، ويرعون عافيها [9] لهم بذلك عهد الله، وذمام رسوله.. وشاهدهم

---

(١) الأنصاب: حجارة كانوا يعبدونها.
(٢) لعلع: جبل
(٣) اليعفور: ولد الظبية. صلع : اسم موضع.
(٤) خارق
(٥) حقاق: جمع حقق وهو الرمل المستدير
(٦) الفراع: أعالي الأرض
(٧) الوهاط: المنخفض من الأرض
(٨) العلافة: ثمر الطلح.
(٩) عافيها: نباتها الكثير.

لمهاجرون والأنصار.

ويفرح القوم.. ويبتهج المؤمنون بنصر الله.. ويتفجر القول على لسان مالك ابن نمط تعبيرا عن السعادة المغدقة، والفرحة الطاغية.. والقوة تؤازر العدل، وتساند الحق.. تعبيرا عن فرحة عودة الإنسان للإنسان.. ورجوع الآدمي للآدمي.. تعبيرا عن صحوة الضمير في صيحة نداء الحق.. «الله أكبر» عند الأذان ومع الركوع والسجود.. عند كل كلام يسمع أو يقال.. الله أكبر المعبود الواحد والذي تتجلى في العبودية له أسمى معاني الحرية للإنسان بين بني الإنسان.

يتفجر القول على لسان مالك بن نمر:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجـــى ★ ونحـن بأعلى رحرحــات وصـــلدد [1]

ومن بنا خوص طلائع تغتلـــي ★ بركبانهـا في لاحــب متمـــدد

على كل فتلاء الذراعين جســرة ★ تمر بنا مــر الهجـــف الخفيـــدد

حلفت برب الراقصـــات إلى منى★ صـوادر بالركـبان من هضـب قـردد

بأن رسول الله فينـا مصـــدق ★ رسول أتى من عنـــد ذي العرش مهتدي

فما حملت من ناقة فـوق رحـلها ★ أشـد على أعدائـه من محمـــد

وأعطى إذا ما طالب العــرف جـاءه ★ وأمضى بحد المشــرفي المهـــند

وبعودتهم لم يبت في همدان واحد إلا مسلما ، وصدق الذي يقول في حقهم من شعراء الإسلام:

فلو كنت بوابا على بـاب جنـــة ★ لقلت لهمـــدان ادخلوا بسلام

---

(١) الفحمة: السواد.

الدجى : جمعه دجية وهى الظلمة.

ورحرحات وصلدد: موضعان

الشاطئ .. والرمال الناعمة!!
وفـد عبـد القـيس

عبد الله بن عوف بن الأشج.. من رجالات .. «عبد القيس» المشهورين بالرزانة والحنكة والأناة..

صوته مسموع.. وكلمته مطاعة.. ورأيه سراج وهاج في ظلمة الحيرة.. والشك!!

موقفه أمان الخائف، وفزع المغير إن سولت له نفسه مهاجمة «عبد القيس» أو من في جوارها.. خرج من بيته ميمما وجهه شطر لا شيء..

خرج كمن يهيم على وجهه في بيداء مقفرة.. فقد السائر فيها دليل اتجاهه.. ورغم الجو الربيعي الممتاز.. والنسمات الرقيقة المنعشة.. وهي تعبر الخليج عند «البحرين» تصافح الوجوه فتكسوها بشرا، وتمنح النفوس الحيوية والنشاط.. فإن عبد الله لم يكن ليعيرها انتباها، ولا التفاتا.. وما كان يحس بها.

كان مهموم القلب.. منقبض النفس. تضغط على صدره أثقال وأحمال كقطع الجبال يوشك من هولها أن يختنق، ويكاد تحت وطأتها يسحق !!

خرج من بيته، ولا وجهة له.. أو مكانا معينا يقصده.

سار بإزاء الخليج، وأفكار، وخواطر تهجم عليه كأنها وحوش كاسرة.. كشرت عن أنيابها وأخذت تزمجر مخيفة.. صاعقة!!

ابتعد عن «عبد القيس»: دورها.. وناسها.. وجوها كله.. يريد أن يختلي بنفسه بعض الوقت لعله أن يصفو ؟ ويجد في صفائه مخرجا مما يعانيه.

لقد هرمت «عبد القيس» وشاخت.. وحالت قوتها.. وغدا أو بعد غد ينكشف أمرها، وتتكاثر عليها الذئاب تنهشها من كل جانب، وتتواثب عليها الأسود من كل صوب ، وحدب، تذيقها من الكأس التي طالما جرعتها الآخرين على امتداد عمرها الطويل على هذه الرقعة في «البحرين» من الأرض العربية.

إن الصورة أمامه قاتمة.. فـ «عبد القيس» مشغولة الآن بقطاف ثمار مجدها الذي

بنته في عمرها الطويل بسواعد رجال كانوا يفنون من أجلها... وهلكوا ولما يجنوا شيئا من ثمار غرسهم، وجاءت أجيال لا يهمها إلا الحصاد.. فباتت مشغولة به عن كل ما عداه، ولقد أبطرهم الترف حد التخلي عن.. عن ماذا!؟

ويكاد عبد الله يصيبه الرعب، وهو يتمثل هذه الصورة.. صورة الشباب الذى ما عاد يهتم إلا باللذات.. والتنعيم.. فصاروا في رقتهم، ووداعتهم.. وملابسهم الزاهية وسهراتهم.. وعشقهم الخمر.. والنساء.. وتكاسلهم عن متطلبات الفروسية، وخشونتها أقرب إلى الغلمان منهم إلى الرجال!!

خرج عبد الله من بيته مجردا من كل شئ.. ما عدا سهما مكسورة في يده.. وخنجرا صغيرا يندس بين حزامه وجسده.

وفي سيره بإزاء الخليج أخذ يتطلع إلى مياهه.. وكأنه يراها لأول مرة..

كانت زرقاء هادئة.. صافية.. شده جمالها، وأخذ صفاؤها ينعكس على فكره.. ووجدانه، ومن ثمَّ تهدأ نفسه بعض الشئ.

وعلى مسافة غير بعيدة.. والشمس تميل للمغيب .. ويسيل على صفحة الماء ذهبها الخالص ساعة الأصيل.. وتنتشر لمعته على كل المرائى.. ومن دونها «عبد القيس»، على مسافة غير بعيدة يقف منيهة شاخصا إليها.. مستغرقا معها.. وقد ملكت عليه كل كيانه، وباتت شغله الشاغل..

وزفر زفرة خرج ريحها ملتهبا كأنه الجحيم:

– يالك «عبد القيس»!! يالك من كلمة كان لها مذاقها الخاص، ورنينها المؤثر ووقعها الرائع على العقل والقلب معا!!

ما أروعك من قبيلة كانت ذات أبعاد، وأمجاد سياسية واجتماعية، وسط هذا الزخم الهائل من القبائل على الساحة العربية في شبه الجزيرة والخليج، والعراق ... بل والشام أيضا..

كنت في موقعك من البحرين قوة لا تضاهيها قوة، ومكانة لا تضارعها مكانة.. وأبهة تحلم بها أشد القبائل.. وأبهاها!!

عدد فرسانك وفير.. وجمعك غفير.. وفروسيتك مضرب الأمثال!!

ثم يتنهد:

– كان المفروض أن تكوني سند الضعيف.. وغنى الفقير.. وعون المحتاج وملاذ المطارد.. وأمن الخائف.. وغياث الملهوف..

لكنك جريت ... بل لهثت وراء سراب خادع من تحقيق مجد لا وجود له.. وبطولة غابرة.. وعزة وكبرياء زائفين..

حياتك يا «عبد القيس» ميسر.. وخمر.. وربا.. وبطش بالضعيف.

وعبادتك مشبوهة لآلهة حمقاء لا عقل فيها.. ولا حس لها.. هي قطع من حجارة وطين.. لا تسمع .. ولا تبصر.. ولا تغني شيئا..

وقوتك الهادرة القادرة كانت تكتسح كل ما يعترض طريقها دون تمييز بين حلال وحرام.. أو تفريق بين خير وشر.. أو مراعاة لواجب.. أو انحياز إلا للعصبية القبلية.. والكبرياء الممقوت.

ويهز رأسه في أسى:

– كم تمنيت في هذا الزمن أن تكون لك رسالة تخرجين بها على ما ألف العرب، وما استقروا عليه، حتى صار رغم ضلاله وإنما له قوانينه التي يحرص الجميع.. لا، بل يحرص السادة فقط.. والأغنياء فقط.. والأقوياء فقط على تثبيتها.. والحفاظ عليها، لأن هذا الواقع يحقق لهم.. ولهم فقط مصالح خاصة.. ويدغدغ فيهم أنانية بغيضة.. وأنت «عبد القيس» في ظل هذا النظام كم امتلأ جوفك من دماء البشر.. وقوت الفقراء والمستضعفين.. والمجهدين!؟

وكم اتخمت خزائنك بالمال الحرام من الإغارة.. والسطو.. والسلب.. والنهب.. والربا

أية أمجاد لك.. تلك التي حققتها سوى قطع الرحم، ونشر الرعب.. والفزع في قلوب الآمنين، وبذر الشقاق، والخلاف.. وغرس الأحقاد والأضغان.. والموجدة بين أبناء الدم الواحد، والجنس الواحد حتى تدوم لك السيادة على الأرض ، ويبقى لك شرف الهيمنة والغلب!؟

وأية بطولة تلك التي سجلتها، وأنت تغيرين على من لا يملكون مثل عَدَدِك أو عُدَدِك.. ومن لا يفاخرون بكثرة فرسانك.. أو زيادة مالك.. فتستولين على ممتلكاتهم.. وتقتلين وتأسرين.. ثم تبيعين من ولدتهم أمهاتهم أحرارا في سوق الرقيق من أبناء الدم الواحد، والجنس الواحد، وكأنهم فرس أو روم أو ترك.. أو حبش، ثم يأتي شاعرك ويفتخر بما حززنا من رقاب.. وما جززنا من نواص من أبناء الجلدة الواحدة!؟

وأية عزة يمكن أن تكون لك.. وأنت رغم هذه القوة لا تقدرين على السير خارج حدودك!؟

وأنت تفتقدين الأمان.. كل الأمان خارج حدودك.. بل وأنت حتى داخل حدودك كنت تفتقدين هذا الأمان.. ولا تشعرين براحة البال.. أو هدوء الأعصاب!؟

أهالك «عبد القيس»!؟

أعرف أنك تتظاهرين بالأمان.. وتحاولين أن تقنعي نفسك بذلك، أنت تستندين في أمانك إلى جدار قوتك.. وبطشك .. وأثق تماما أن هذا الجدار.. جدار القوة لن يبقى طويلا على حاله التي كان عليها منذ زمن.. لأن القوة تهرم.. وتشيخ.. ومن ثَمَّ تضعف.

أنا أرى بوادر هرمك.. وشيخوختك التي تجعل قوتك لا تثبت عند أول احتكاكة ... لقد شاخ جدارك وهرم.. ووهن.. ولا مصير له إلا الزوال.. وزواله آت لا محالة!!

وإذا أردت البقاء قوية كما كنت.. عزيزة كما أردت.. فيجب أن تستبدلي هذا الجدار بجدار أكثر قوة.. وأكثر منعة.. وأشد صلابة.. يمنحك أعلى أمان وأعظم استقرار!!

واقترب من تل رملي على الشاطئ.. فاعتلاه.. وأراح جسده عليه، وأخذ ينكث الرمل بسهمه المكسورة برهة.. ثم ينظر إلى الأفق البعيد، وقد لمعت عيناه ببريق غريب مثير:

– ليتك «عبد القيس» تستجيبين!! فمنذ زمن بعيد وأنا أتوق إليه ولا يغفل عنه قلبي.. أو ينشغل بسواه فكري.

إنه جدارك المتين.. وفوق منعته هو خالد خلود الزمن.. تخلدين معه.. وهو يجدد شبابك.. ويصحح مسارك.. ويأخذ بيدك.. وينتشلك مما أنت منجرفة إليه انجراف السيل في الأودية!!

* * *

في «عبد القيس» انقلبت الدنيا رأسا على عقب.. لقد وفد على هذه القبيلة، وفد كبير من موفد عظيم..

انقلبت الدنيا رأسا على عقب بحثا عن عبد الله بن عوف بن الأشج.. الذى ترك الديار، ولا يعرف أحد إلى أين ذهب!!

سألوا عنه في بيته فلم يعثروا عليه.. استعلموا عنه في مكان يتوقع وجوده فيه فلم يجدوه.. استدلوا عن مكان يمكن أن يصل إليه.. ويكون فيه فلم يدلهم أحد..

لكن الأمر خطير، ولا بد من العثور عليه، فهو عقل من عقول القبيلة.. ومفكر من مفكريها، ولا تفوت القبيلة كبيرة أوصغيرة إلا وتعرض عليه.

وعلى خبرته .. وحنكته.. وتجاربه.. تعتمد القبيلة اعتمادا يكاد يكون تاما.

* * *

قلق ناس.. واضطرب آخرون..

ومما زاد من اضطرابهم أنهم بحثوا عن الجارود بن عمرو بن حنش «أخو عبد القيس» صنوه.. ورفيق كفاحه.. فلم يجدوه أيضا..

والجارود كبير من كبراء «عبد القيس» وزعيم من زعمائها البارزين.. لا تخطئ مشورته في شئ.. ولا يختل رأيه.

وكثيرا ما قاد هو وعبد الله القبيلة في أدق مراحل حياتها، وأحرج أوقاتها.. وعبرا بها إلى بر الأمان.. وخرجا بها من أزماتها سالمة.. جعل القوم يقدرونهما تقديرا يليق بهما كزعيمين عظيمين..

وخطر اليوم ليس في أن قوما يغيرون.. أو ينوون الإغارة على القبيلة.. فالهجوم عليها وإن كان واردا في الأذهان لكثرة ما أغارت على غيرها من قبل.. وهزمته.. وخلفت لديه ثأرا.. إلا أنه يستحيل الحدوث..

وإذا كانت الإغارة على «عبد القيس» تراود الكثيرين، ويجمح بهم الخيال في يوم يتحقق لهم عليها فيه غلب.. غير أن الواقع من خلال الظاهر يرفض هذا رفضا قاطعا.. فهى «عبد القيس» وكفى!!

أما خطر اليوم.. فهو شئ آخر.. كانت منذ زمن طويل تفكر فيه.. وتحسب له ألف حساب.. وإن كان لم يَطْفُ على سطح حياتها كثيرا!!

خطر اليوم يكمن فى أن محمد بن عبد الله النبى العربى فى المدينة أرسل إلى «عبد القيس» رسلا.. وصلوا الآن.. حاملين منه كتابا.. لم يفضوه، ولم يعرف أحد محتواه ولا ماذا يريد فيه!!

ومحمد جال يمينا، وشمالا، شَرَّقَتْ رسله.. وغَرَّبَت.. وتحركت كتائبه في كل اتجاه واقتربت من «عبد القيس».. ومرت بجوارها مرات.. وفي كل مرة كانت تتوقع مع محمد اشتباكا .. لكن ذلك لم يحدث.. وكأن محمدا كان يتوقع منها شيئا لم تتوقعه هى.. فقد كانت تخط لنفسها خطا أقل ما يقال عنه إنه كان يحنق محمدا.. أو يثير حفيظته ... مما مكنها من البقاء هذه الفترة بقوتها، وهيبتها بين القبائل الأخرى.

وهو الشئ نفسه الذى حسب له عبد الله بن عوف حسابه.. وغدا يلقى بأثقاله عليه.. فى غير هوادة.. ولا روية!!

واليوم.. ماذا يريد محمد من «عبد القيس»!؟

وما الذى يجول بفكره تجاهها!؟

ماذا دعاه ليرسل لها هؤلاء الرسل!؟ ويحملهم هذا الكتاب الغامض!؟ وماذا فيه!؟

أين أنت يا عبد الله.. وأين أنت يا جارود!؟

كانكما على وفاق مع الأحداث.. فتتركان القبيلة على غير العادة.. ينهشها القلق وتكاد تعصف بها الشكوك والوساوس!؟

* * *

على الطريقة العربية الخالصة رحب الحاضرون بالرسل..

فهم ضيوف عرب مسالمون.. لايبغون غدرا.. ولا يقصدون شرا.. وفضلا عن ذلك هم رسل محمد الذى شغل الدنيا كلها بدعوته.. فباتت له مصغية.. تضع السيف جانبا بعد طول صراع.. وتعمل الفكر فيما يصدر عنه وما يدعو له.

ومحمد لم يشغل العرب فحسب.. وإنما شغل الفرس.. والروم أيضا.

بيد أن ما يشغل الفرس والروم من أمر محمد غير ما يشغل العرب..

فأقل ما يترتب على هذه الدعوة المحمدية - وهو ما يقلق الفرس والروم، ويحسبون له ألف حساب - هو توحيد العرب في الجزيرة لأول مرة منذ مئات السنين.

والعرب قبل توحدهم كانوا شراذم.. ووحدات متفرقة.. لكنها وحدات ذات عزم شديد.. فكيف وقد توحدت هذه الشراذم، وانصهرت في بوتقة واحدة.. ثم أحالتها الدعوة المحمدية إلى قوة لم يبلغ أحد مداها.. فحسب الفرس حسابها وتحاشوها.. وانكمش الروم إزاءها.. فلم يخرجوا لمحمد عندما ذهب إلى تبوك..

على الطريقة العربية الخالصة رحب الحاضرون بالرسل..

إنهم ضيوف «عبد القيس» وهي لا يفوتها الواجب.. وليس بينها وبين محمد ما يحملها على إهمال رسله!!

وبينما تنحر الإبل.. وتجهز الموائد للضيفان.. امتطى فارس صهوة جواده وانطلق محاذيا ساحل الخليج يبحث عن عقل القبيلة.. ومفكرها.. عبد الله بن عوف بن الأشج.

* * *

كادت الشمس تميل ناحية الأفق تأهبا للرحيل..

وعبد الله فوق تله الرملي على ساحل الخليج ينظر إليها.. وإلى السماء.. وإلى السحب المتراكمة هناك خلف الأفق تنتظر الشمس لتحجبها بارديتها متعددة الأشكال والألوان.. وخال الجارود معه:

- انظر يا جارود.. كأنى أرى غروبا لم يسبق أن رأيته، ولا رأيت مثيله من قبل.

ومن خلفه أسفل التل كان الجارود في رحلة مع نفسه مشابهة تماما لرحلة عبد الله.

يولى الغروب ظهره، وينظر تجاه الشرق.. إلى الصحراء المتسعة الفسيحة.. والممتدة إلى ما لا نهاية.. دون أن يراه عبد الله أو يدرى الجارود بوجوده

وخال عبد الله معه يستمع إليه فقال وهو يراوده هذا الخاطر:

- إى وربى.. إنه غروب بلا مثيل.. وبلا نظير.

فقال عبد الله وما يزال يتخيل الجارود يستمع إليه ويتابع ما يتابع:

– وكأنى أحس أن ليله لن يعود.

فاسند الجارود ظهره إلى حجر خلفه، وما يزال يرى عبد الله كأنه يتابع ما يتابع..

– وكأني أنتظر من هذا المكان شروقا غير ما تعارفنا عليه..

فابتسم عبد الله:

– سنرى فيه الجدار الذى تستند إليه «عبد القيس» .. جدار قوتها، واستمرار حياتها.. جدار بقائها.. وخلودها!!

فتململ الجارود في جلسته.. وكأنه يتهيأ لاستقبال وافد جديد:

– إنه شروق ستصطبغ «عبد القيس» به صبغة جديدة لم تحدث لها من قبل.. صبغة لن تتغير بها ملامحها فحسب.. بل ستتغير بها أفكارها ومواطفها.. واتجاهاتها.. ومواقفها.. صبغة فى لون ثوب العروس.. وتاجها، ودرتها.. وعقدها.. تكون فيها «عبدالقيس» عروسا ينبض قلبها بفرح كبير.. وسعادة دائمة.. لا نهاية لها.. واستقرار لا يجوس من خلاله أى خوف.. أو فزع.. أو قلق!!

وتحركت يد عبد الله فى الهواء.. تشير إشارات فيها حيوية.. وكبرياء .. وقال:

– وستصير لعبد القيس رسالة.. كم كنت أحلم بها.. رسالة خالدة، تخلد بخلودها.. وتبقى ببقائها.

فابتسم الجارود في حلمه ببقائها:

– وتخطر العروس فى ثوبها الذى ما عرفت الدنيا له مثيلا.. وكم ستكون جميلة فى هذا الثوب النقى الأبيض.. الناصع البياض.

فزفر عبد الله زفرة خالها تريح صدره المكدود:

– ونسلم الراية لمن بعدنا.. ونرحل ونحن مطمئنون إلى أننا أدينا الأمانة، ولم نفرط فيها!

فصفق الجارود بيده تصفيقة واحدة.. وهو ما يزال يخاطب عبد الله:

– وتزف العروس فى ليلة تتحدث عنها الليالى .. وزمن يسجل فى التاريخ.. هو زمنها المنتج المنجب..

أفاق الحالمان معا على وقع حوافر لجواد كأنه جامح.. يجول بفارسه شمالا ويمينا كان الجواد فى جموحه كأنه يوقع توقيعات لعبد القيس..

أحس به عبد الله من فوق تله. كما شعر به الجارود فى مكمنه..

فقاما يستلهمان الطبيعة شيئا.. ويستقرئانها خبرا..

.. والتقيا..

وعندما أخذت الشمس تغرب.. كانا يوليانها ظهريهما.. وقد عرج عليهما الفارس وأخبرهما خبر رسل محمد!!

فنظر عبد الله إلى الجارود:

– ألم أقل لك: إن «عبد القيس» اقتربت من جدارها؟ وألم أقل لك: إنها سيكون لها شأن.. وأى شأن!؟

فأجاب الجارود:

– وأنا.. ألم أقل لك: ها هو ذا الشروق بصبغته.. ولسوف تبدو فيه «عبد القيس» عروسا لم تعرف الدنيا لها مثيلا!؟

* * *

ما أروع ماقابل به عبد الله الرسل.. أو الضيوف كما يقولون!؟

وما أعظم ما عامل به الجارود هؤلاء القادمين بالشمس الجديدة.. والشروق السعيد!؟ وما أبهى رسل محمد، وهم يتحولون من مجرد حملة كتاب إلى رسل هداية ونور كما علمهم الرسول الكريم محمد، ﷺ !

تحول مجلسهم منذ اللحظة الأولى إلى منتدى كبير.. كانوا هم نجومه المتلألئة.. اللامعة تنير ثناياهم بآيات يتلونها على القوم.. وتتعطر أفواههم بأحاديث الرسول المصطفى.. تبرق عيونهم ببريق الإيمان الخالص، والصفاء الذى لا نهاية له ولا حدود.

وكان الخليج كله.. وقد كان بالفعل يصغي.. و «عبد القيس» مصغية!

قال الرسل عن الإيمان قولا لا عهد للقوم به..

وتحدثوا عن الإسلام حديثا حلوا.. فطريا.. كانت شوهته قريش إبان عداوتها لمحمد.. لا لشئ إلا لأنها تحقد على محمد.. وظلت تحاربه سنين طويلة لا لشئ إلا لأنها تنقم عليه أن يكون نبيا ورسولا.

من قبل «عبد القيس» اعترف سيد من سادات قريش أول أمرها مع محمد، وكانت أرسلته ليكون واسطة بينها، وبينه.. اعترف قائلا لهم عندما استمع من محمد إلى القرآن: «إن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه يعلو ولا يعلى عليه».

ولم يغير موقفه إلا عندما اتهموه بالضعف أمام محمد.. وأن محمدا استطاع أن يسيطر عليه.. وأن يؤثر فيه.. فأحيوا فيه أنفه جاهلية ممقوتة.. وكبرياء أحمق:

تحدث الرسل عن الإسلام حديثا شفى كل نفس.. وأراح كل قلب..

تحدثوا عن المعبود الواحد.. الله جل جلاله.. لاشريك له.. أساس العقيدة الإسلامية..

كما تحدثوا عن الربا.. والخمر.. وأكل مال اليتيم.. والميسر.. والمرأة وكيف يراها الإسلام.. وماذا أحل لها.. وماذا حرم عليها!؟

وتحدثوا عن المحصنات.. وحفظ الحرمات.. وتحدثوا عن العبيد.. كل هذا في ظل المعبود الواحد الذى لا شريك له، ولا زوجة.. ولا ولد..

﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد ﴾(١) ﴿سورة الإخلاص﴾

وأبانوا في جلاء ووضوح زيف عقيدة الجاهلين.. وسوء معاملاتهم.. وفساد حياتهم مقارنة بالحياة التى جاء بها الإسلام تحقق السعادة، والأمن، والاستقرار والسلام فى الدنيا.. والجنة والخلود فى الآخرة.. مدللين على بطلان من يقولون بعدم البعث والدار الآخرة كما ورد بشأنهم فى القرآن الكريم:

﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، ومانحن بمبعوثين﴾(٢) ﴿ المؤمنون: ٣٧ ﴾

* * *

تغرب الشمس .. فيستأذن الرسل، ويطلبون ماء.. ثم يتوضأون.. ويتجهون إلى الكعبة .. إلى البيت الحرام.. يؤمهم واحد منهم ويصلون..

ويأتى موعد العشاء.. فيستأذن الرسل.. ويممون وجههم شطر المسجد الحرام، ويصلون.. يصلون صلاة فى شكلها لم يعرفها العرب من قبل، وهى فى جوهرها بنت الفطرة النقية الخالصة.. هى ركوع وسجود.. هى مناجاة العبد لخالقه الواحد.. هى ابتهال إلى الله القادر الرازق.. الحى.. المميت.. المبدئ المعيد.. الحى القيوم.

لم تقدم خمر فى مجلس الرسل.. ولم يحاول أحد تقديمها.. ولم يعترض أحد على ذلك! لم يحدث فى حضرة الرسل لغط بلفظ خارج عن حدود اللياقة أو الأدب.. ولم يحاول أحد غير ذلك!

سكينة حلقت فوق الجميع على غير انتظار.. وروح نفثت فى الجميع الوقار والجلال.. فانصتوا.. وتفتحت عقولهم على ما إلتقطته آذانهم.. ثم استنارت قلوبهم.. ولما يزل الرسل بينهم!!

ما هذا البهاء.. وما هذا الجلال؟!

وبعد الانتهاء من صلاة الفجر استأذن الرسل فى الرحيل..

غادروا «عبد القيس» وتركوا الجو فيها معبأ بشذا عطر جديد.. تفذت رائحته الذكية إلى القلوب، والنفوس، فأحست لأول مرة بالسكينة والراحة.. والثقة الحقيقية تبرز جلية للعيون!!

* * *

لم يعرف أحد محتوى الكتاب مع أن الجميع أحسوا به!!

وماذا يمكن أن يكون محتوى كتاب من محمد إلا الدعوة إلى الله، والدخول فى الإسلام؟ وإذا كان الجميع فى شغف لمعرفة محتواه.. فلقد صارت الرغبة ملحة فى أن يسمعوا أن محمداً عرض عليهم مرة أخرى الدخول فى الإسلام.. وأنهم وقد تهيأوا تماما لعلى استعداد لقبوله الآن أكثر من أى وقت مضى!!

* * *

عند انتصاف النهار دوت فى القبيلة دعوة.. بل صيحة إلى اجتماع عام.. زمانه أصيل ذلك اليوم.. ومكانه الساحة الكبرى للقبيلة أمام بيت عبد الله بن عوف.. وموضوعه ما جاء بكتاب محمد.. ثم أخْذ القرار بشأنه.

وبعد أن طير عبد الله الدعوة للاجتماع.. اختلى بنفسه، وجعل يناجى محمداً.. وهو إن لم يكن رآه بعينه.. فإنه يراه بقلبه الآن.

– ما أبهاك.. وما أروعك يا محمد!! والله لكأنك.. بل إنك لطبيب القلوب.. وكتابك البلسم الشافى جاء فى حينه تماما!!

لبيك والله وإن انفض عنى القومّ.. لبيك والله وإن جئتك وحدى.. لبيك والله، وإن قاتلتنى الدنيا كلها لإبعادى عنك..

لن أبعد يامحمد بعد اليوم أو تزهق روحى!!

* * *

يعلن عبد الله بن عوف على الملأ ما جاء بكتاب محمد.. وما جاء فيه يحدده فى الآتى:

أولاً: الدعوة إلى الدخول فى الإسلام، وقبوله، والإذعان له، والتصديق به..

ثانياً: أن يتألف وفد من «عبد العبس» قوامه عشرون رجلا.. ويذهب هذا الوفد إلى المدينة ليحظى بلقاء النبى.. ويبايعه عن القبيلة بالإسلام!!

* * *

وكان الاجتماع متفردا فى شكله.. وفى نظامه.. وفى روحه.. وفى قراراته.

فما من اجتماع أقيم هنا.. أو هناك إلا وكان فيه شد وجذب، وصراخ وعويل .. وربما انقسام وفرقة، وخصام.. ما عدا هذا الاجتماع..

خيط رفيع ربط القوم.. ورغم رقته فلقد كان قويا.. متينا.. لم يخرج عليه أحد.. وتمثل هذا الخيط فى القرارات التى اتخذها المجتمعون بقبول الدعوة إلى الإسلام والدخول فيه.. والإذعان له، والتصديق به شكلا وموضوعا.. ثم العمل بأقصى سرعة على تكوين الوفد.. والذهاب إلى المدينة، وإعلان البيعة بالإسلام أمام محمد!!

ويكاد عبد الله يجأر بالدعاء معلنا عن غامر فرحته:

«يا رحمة الله تغمدى القوم المهتدين.. وتجاوزى عن طول غيابهم عن النهج الصحيح».

ويرددها عبدُ الله وهو يرى القوم يتدافعون إليه ليحظى كل منهم بشرف عضوية الوفد وكم كان صعبا عليه كزعيم يحب قومه.. ويرجو لهم الخير المفاضلة بين واحد وآخر.. الكل عنده سواء.. وكان روح محمد الإيمانية نفثت فيه نسمات الحب الصادق، والعدل المطلق.. والتسوية الإنسانية، واقتلعت ماكان شائعا من ميل إلى الطبقية، والاستعلاء.

الكل يريد أن يكون فى الوفد، وعبد الله يُرضّى هذا ويطيب خاطر ذاك.

... اكتمل الوفد.. وعاد الناس إلى بيوتهم استعدادا للسفر.

الكل راض وسعيد.. من وقع عليه الاختيار، ومن لم يقع.. تغمرهم فرحة جعلتهم يزفون إلى بيوتهم من سيكونون فى شرف استقبال محمد والالتقاء به. وكأنهم فرسان فى ثياب جديدة.

★ ★ ★

يتحرك الوفد في مظاهرة حب.. وصفاء.. نسي فيه كل فرد ذاته، ولم يعد يرى إلا مجموعا متكاتفا.. متآلفا.. سداه المودة، ولحاه الرحمة!!

عشرون رجلا أخذوا يضربون فى الصحراء غير مبالين بمشقاتها، ولا متاعبها ترقص بهم الخيول.. وتتمايل الإبل طربا.. على حداء الحادى الذى لم يخرج حداؤه عن تلبية الداعي إلى الله.. رجاء عفو الكريم.. والحظوة بالقبول!!

حتى الكلام على بساطته فيه جدة.. وتنبعث منه روح هادية.. لم يذهب حلاوته توقد الشمس.. فحلاوة الإيمان فى القلوب ترطب الحلوق.. وتمحو من فوق الجباه هزال السفر.. وتزيل الشعور بوطأة ألم الطريق.. وتساعد على بلوغ الهدف المُرَجَّى

★ ★ ★

يصل الوفد إلى المدينة.. يصل الوفد بسلام إلى مدينة السلام..

ويعجلهم حب لقاء الرسول ﷺ إلى الذهاب لمسجد الرسول..

وتلح على الجميع أسئلة.. تدور كلها حول محمد..

ما شكله ؟ وما أبرز ملامحه ؟ ماذا يلبس ؟ وماذا يأكل ؟ ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟ وما أهم ما يتصف به ؟.

تخيله بعضهم كسرى، وتخيله آخرون قيصر.. وشطح الخيال بالبعض فرأى على رأسه تاجا.. وتتدلى من رقبته وفوق صدره سلاسل ذهبية.. وفي يده أساور أو طيلسان ومن شماله أو يمينه حراس أشداء بملابس خاصة.. شاكي السلاح يثيرون الفزع والرعب، والخوف من الاقتراب.

وانعكس هذا التخيل على المدينة.. بعضهم لم يرها من قبل.. وبعضهم رآها مرة أو اثنتين لكنها تبدو اليوم في ظل الأوضاع الجديدة شيئًا مثيرا..

وكانت المفاجأة في المدينة شديدة.. وكانت في الرسول الكريم ﷺ أشد.

ليس في المدينة قصور بيضاء أو حمراء.. لكنها كسيت بجلال ما له حد ولانهاية..

ومحمد.. ما كان في هالة مادية.. فلا تاج.. ولا سلاسل.. ولا أساور أو طيلسان.. ولا حراس عن اليمين أو الشمال على الإطلاق..

ما كان محمد عندما رأوه في أبهة الملك الذي تخيلوا !!

رأوا رجلا لكنه يختلف عن الرجال.. رجلا متواضعا على علو رتبته..

تكسوه في بساطته غلالة من جلال..

وتحيط به هالة من نور.. ووقار أروع في العين والقلب ملايين المرات من تاج الملك وسلاسله وأساوره.

رأوا رجلا عرفوا بعد «أنه خُيِّر بين أن يكون نبيا ملكا.. أو نبيا عبدا.. فاختار أن يكون نبيا عبدا»[1]

رأوا رجلا هو أشد الناس حياء.. وأكثرهم عن العورات إغضاء ... لطيف المعشر رقيق الظاهر لايشافه أحد بما يكرهه حياء منه وكرم نفس [2]

١- سيرة سيد المرسلين- أبو الفيض المنوفي

٢- المصدر السابق

رأوا رجلا هو أشجع الناس، وأحسن الناس.. وأجود الناس.

رأوا رجلا دائم البشر.. لين الجانب.. ليس بفظ، ولاغليظ.. هو أصدق الناس لهجة وما سئل عن شيء فقال لا.

وهم ما يزالون يذكرون رده لسبايا هوازن، وقد بلغو ستة آلاف.

رأوا رجلا إذا تكلم يتكلم بملئ فيه.. بلا همهمة.. ولا غمغمة.

يُرى كالنور يخرج من بين ثناياه.. فصيحا.. سديدا.. شديد التأثير.. لايحرج إذا فوجئ ولا يزعج إذا قوطع.. ولا يضيق صدره لأى أمر كان، (١)

لم يترك الواقع لخيالهم مايقارن به.. فقد كان أروع.. وأروع.. وكفى!!

لم يقل أحد عن محمد شيئا.. كل ماأرادوا معرفته عنه رأوه بأنفسهم.. ولمسوه بأحاسيسهم وفطنوا إليه بعقولهم.. وأدركوه بقلوبهم.. وخرجوا بعده بيقين أن من يرونه إنما هو المثل الكامل للإنسانية كلها.

★ ★ ★

صدق الوفد وأذعن.. وبايع بالإسلام.

وكانت سعادة عبد الله بن عوف بن الأشج غامرة والرسول الكريم يخصه بحديثه:

- فيك خصلتان يحبهما الله تعالى.

ويستفسر عبد الله من رسول الله ﷺ قائلا:

- وما هما يارسول الله؟

ويقول الرسول الكريم:

- الحلم.. والأناة!!

ثم يلاطف الرسول الكريم عبد الله:

- أشيء حدث.. أم جبلت عليه ؟

١- سيرة سيد المرسلين

ويجيب عبد الله وهو يحس كأنه بحديث رسول الله ﷺ يرتفع إلى عنان السماء:

– بل جُبلت عليه(١)

وعلى قدر ماكان عبد الله هادئا.. فرحا مستبشرا.. كان الجارود قلقا ... وعندما عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ورغبه فيه قال الجارود، وكان نصرانيا:

– يا محمد.. إني كنت على دين.. وإني تارك ديني لدينك.. أفتضمن لي ديني؟؟

فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هدأ روعه.. وطمأن باله.. وأراح قلبه وعقله:

– نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه(٢)

فأسلم الجارود.. كما أسلم أصحابه.. وعاد الوفد...

وبعودته اكتمل لعبد قيس ما تمناه لها عبد الله بن عوف الأشج والجارود.. ودخل الناس في دين الله أفواجا.

★ ★ ★

١– محمد رسول الله   جودة السحار

٢– سيرة ابن هشام

الرثاء.. والرثيع

وفد مراد

كادت تند عنه آهة!!

حبسها.. وأرخى العنان لزفرة حارة.. خالها نارا حامية، لو تمكنت شرارتها من الكون كله لأحرقته!

كادت تند عنه صرخة.. هى زئير حبيس فى صدر أسد جريح.. تقلبت به الأيام فى حلوها.. وأرته عزها.. وأذاقته مجدها.. ثم.. ثم انقلبت له.. فاتشحت بالسواد ووارت عنه بياضها.. وحجبت حلوها، وأذاقته بأسها ومرارها.. وسلبته عزها وباعدت بينه وبين أمجادها وذلك عندما داهمت همدان قبيلته..

عندما داهمت همدان قبيلة مراد.. وأعملت فيها السيف ضربا.. والرمح طعنا، وألحقت بها هزيمة منكرة، وأوشكت أن تقضى عليها قضاء مبرما.. فى مذبحة رهيبة.. وفى يوم عصيب.. يوم نحس.. يوم أسود مشئوم أطلق عليه.. «يوم الردم».

* * *

تلفت فروة بن مسيك المرادى حوله، فلم يجد سوى بقية باقية من مراد، نجت بأعجوبة من سيوف همدان، ورماحها، وسهامها.. من جبروتها وطغيانها بعد معركة شرسة أُخِذَتْ فيها مراد على غرة.. ضاع فيها شبابها.. زهرة الدنيا، وبهجة الحياة، وأمل المستقبل.. وسبيت نساؤها.. عطر بيوتها وفرح لياليها .. وأنس أيامها فى قفر الصحراء وجفافها. ونهب مالها واستبيحت حرماتها.. وهانت وقد كانت عزيزة مرهوبة الجانب.. ومات الشيوخ على أثرها غرقا.. وحزنا على ما أصاب القبيلة!!

تلفت فروة بن مسيك المرادى والحسرة تحيط به من كل جانب، وتذيب ما بقى من تماسك ألما على ما فقد من أهل وولد.. وعشيرة ومال.. ثم طاف والألم يعتصره اعتصارا يتتبع مصارع قومه على يد الهمدانيين، ويندب حظهم العاثر.. ويعزى نفسه المكلومة وينفس عن قلبه الموجع:

مررت على لقات وهن خوض ★ يتازعن الأعنة ينتحينـا(١)

فإن نغلب فغلابون قدمـا ★ وإن نغلب فغير مغلبينـا(٢)

وما إن طبنـا جبن ولكن ★ منايانا وطعمة آخرينـا (٣)

كذاك الدهر دولته سجـال ★ تكر صروفه حينا فحينـا(٤)

فبينا ما نسر به ونرضى ★ ولو لبست غضارته سنينا(٥)

إذا انقلبت به كرات دهـر ★ فألفيت الأولى غبطوا طحينا(٦)

فمن يغبط بريب الدهر منهم ★ يجد ريب الزمان له خئونـا

فلو خلد الملوك إذن خلدنـا ★ ولو بقى الكرام إذن بقينـا

فأفنى ذلكم سـدرات قومى ★ كما أفنى القرون الأولينـا (٧)

جعل فروة يتلفت حوله عله أن يجد شيئا ولو بارقة أمل.. فلم يجد غير الخراب والدمار والبؤس.. والبوم تنعق على كل جانب..

- واحسرتاه عليك يامراد!! أين أنت وقد كنت ملء السمع والبصر!! ياللغدر الأيام!!

أجال الفكر فيما جرى.. وما يجرى.

فيما كان فيه .. وفيما صار إليه

فيما كان فيه قومه.. وفيما صاروا إليه..

---

(١) لقات: من ديار مراد.

خوض: غائرات العيون.

ينتحين: تعترض وتتعمدن

(٢) المغلب: الذى يغلب مرارا ويريد أننا لم نغلب إلا مرة واحدة.

(٣) طبنا: دهرنا وشأننا

(٤) سجال: مرة للمرء ومرة عليه

(٥) غضارة الشيء: طراوته ونعومته

(٦) غبطوا: استحسنت حالهم

(٧) سروات القوم: أشرافهم

فاستعبر، وهو الكمى الشجاع..

إن جروحه غائرة عميقة.. وآلامه فوق الطاقة.. وفوق الاحتمال.. ولن تخففها العبرات وإن ذرفت مدرارا كالمطر.. أو تقلل منها الآهات ولو وصلت إلى عنان السماء!!

★ ★ ★

التف حوله ما بقى من قومه:

– لم يبق لنا سواك يا فروة.. أنت كبيرنا.. وزعيمنا.. فانظر ما أنت صانع بنا؟!

– بل قولوا ما أنا صانع لكم؟

كاد يستبد به اليأس.. ويستولى عليه القنوط والإحباط!!

فالكارثة مروعة.. والرسل والعيون تنقل أخبار تجمع الهمدانيين.. ولعلهم ينوون الإغارة كرة أخرى.. وماذا يمنعهم والواقع يمنحهم مجدا لم يحلموا به.. ويسجل لهم انتصارا ساحقا على مراد!؟

ولا غرو.. فهذه حياة العرب على أرضهم بواقعها المر، وطبيعتها النافرة.. وقوانينها التى لايصدقها عقل، ولا تتمشى مع أي ناموس من نواميس المنطق!!

قال له من بقى من قومه:

– اصنع بنا.. أو اصنع لنا ما بدا لك.. فلن تجد أحدا يخالف من رأى، أو يشذ عن مشورة.

أجاب وثقل المسئولية يضغط عليه:

– سالعق الجراح و ما يهمنى الآن سوى الإبقاء عليكم ونجاتكم.. وسلامة أبدانكم والمحافظة على أرواحكم.

وقالت زوجته.. وكانت أثيرة لديه لرجاحة عقلها:

– أترغب فى المشورة والرأى؟

– بلى.. وهاتى ما عندك!

– ولا تحنق على؟

- ولأحنق عليك.

- ألا ترغب فى جوار يمنعنا حتى نقوى!؟

- فطأطأ رأسه قليلا ثم رفعها:

- وإن كان الجوار أشد مرارة.. وأوجع للكبد، والفؤاد من تجرع السم.. لكن ليس منه بد:

ولحق فروة جراحه بالفعل.. وترك الديار.. وانحاز بمن معه ممن بقى من أهله وقومه إلى «كندة» يعيش فيها، وفى كنف ملوكها عله أن يجد يوما من أهله قوة، وفيهم منعة.. فيعود إلى الديار.. أرض الذكريات.. ومرتع الصبا.. وملاعب الأتراب.. والأمل المنشود!!

★ ★ ★

وأخذت الأيام تبتسم لفروة.. وترد له الدنيا على أرض الكنديين وفى كـ م ما كانت سلبته منه من أمن، وأمان، ومن سلام غدا وجوده بعيد المنال بصفة خاصة على الأرض العربية.

لقد وجد فى معاملة ملوك كندة عوضا عما فقده.. ورأبا لما انصدع

عامله هؤلاء الملوك معاملة تنبيء عن كرم فريد..

عامله هؤلاء الملوك معاملة الأخ للأخ.. والصديق للصديق.. لم يقصروا فى حقه أو قومه أيما تقصير.. ولم يبخلوا عليه بشىء.. وأباحوا له ولأهله، ولقومه من ديارهم، ما أباحوا لأنفسهم.. وأرخوا له ولقومه العنان فى كل كبيرة، وكل صغيرة، فانطلقوا فى يسر وسهولة على أرض كندة، وكأنهم ما تركوا أرضا.. ولا فارقوا وطنا!!

ولقد أشعرت هذه المعاملة الكريمة فروة بقيمته.. وردت له اعتباره.. وأعادت إليه كبرياءَه .. فشرع يحس بذاته.. ومن ثَمَّ يستعيد ثبات وجدانه.. واتزان عقله.. ويقف شامخا فى عزة، وكبرياء.

وظهر ذلك جليا، وهو يدخل على هؤلاء الملوك بلا استئذان.. وهو يجالسهم كأنه واحد منهم.. وهو يحاورهم محاورة الند للند، وهو يتفق معهم أحيانا فى قضايا،

ويختلف معهم أحايين أخرى فى قضايا أخرى.. دون هيبة.. أو خوف، أو وجل، كأنه واحد منهم فى ديارهم.. وليس واحدا فى جوارهم!!

.. تصفو الحياة، وتمر الأيام.. ولا شيء يعكر هذا الصفو لدى فروة سوى تذكر الأيام الماضية.. وسوى ترك الديار.. وفقد الصحب والأحباب.. لا شيء يعكر الصفو سوى شبح «يوم الردم» الذى كان لهمدان على مراد.

وهو إذ يحاول جاهدا نسيان الماضى.. وتقبل الواقع الجديد يطل للنفس بطبيعة العرب فى هذه الحقبة من الزمن، والتى تفرضها عليهم حياة الكر والفر، فى هذه المساحة من الأرض التى لم تعرف تغييرا، ولاتطورا منذ قرون عديدة خلت.. ولم يرث فيها اللاحقون عن السابقين غير هذا النمط الشاذ من أنماط الحياة غير المستقرة.. يغير فيها بعضهم على بعض، فيتصادم الأخ مع أخيه، والولد مع عمه أو خاله، فيقتتلان.. وقد يقتلان.. أو ينجوان... أو يقتل أحدهما الآخر، وفى كل الأحوال.. المصيب مصاب.. والغالب مغلوب، وإن تصوروا غير هذا.

وقديما قال شاعر فى هذا المعنى:

قومى هموا قتلوا أميم أخى ★ فإذا رميت يصيبنى سهمى

★ ★ ★

ويسترجع فروة الماضى العربى على الأرض العربية، وقد أخذت نفسه تطمئن.. وتخف حدة أحزانها، وتهدأ ثائرة ثورتها.. وتركن إلى الهدوء.. والسلام والدعة...

يسترجع الماضى العربى على الأرض العربية:

«ألم يقتل جساس كليبا زوج أخته؟! فيقضى عليه، ويرمل أخته.. وييتم ولدها، الذى غادرت ديار زوجها بعد مقتله وهى حامل به؟!

ولماذا قتل جساس كليبا؟!

الأن كليبا أمر رعاته بمطاردة ناقة البسوس .. تلك المرأة العجوز المشئومة، والتى كانت فى جوار جساس.. فطارد الرعاة الناقة لإبعادها عن مراعى كليب.. وأصابوها..

فيتسبب ذلك فى قتل كليب دون رعاية لمصاهرة.. أو حتى جوار؟!

لقد كان البكريون وهم قوم جساس في جوار كليب.. وعلى أرضه.. ألا يشفع هذا في تسيان فعل ولو طائش فيعدو عليه جساس.. أخو زوجته، وخال ولده، ويقتله في إصابة ناقة البسوس!؟

... وتذهب جليلة زوجة كليب مع أهلها الذين غادروا الديار إلى ديار بعيدة وقد اندلعت الحرب بين الفريقين..

تلك الحرب الشهيرة بحرب البسوس.

وتلد هناك ولدها.. «الهجرس».. ويحتضنه جساس.. ويربيه، ويرعاه.. ويتعلق به وهو يراه ينمو ويكبر.. ويحبه كما لم يحب أحدا سواه.. ويلازمه ملازمة الظل.. في غدوته أو روحته.. ثم يعلمه الفروسية.

ويبادل الهجرس خاله حبا بحب، وتعلقا بتعلق.. فمنذ تفتحت عيناه على الدنيا، وهو لا يرى سواه أبا ملء السمع والبصر.. فارسا لا يشق له غبار، ومثلا يحتذى.. مثلا أعلى له في حياته كلها.. طولها وعرضها.

ويهمس قالة السوء في أذن «الهجرس» ولا تزال الحرب دائرة..

يهمس قالة السوء في أذن الهجرس، ويطلعونه على التاريخ..

ويعرف أن الذى رباه خاله.. وهو قاتل أبيه.. وتشتعل نار العداوة والبغضاء بين القبيلتين المتحاربتين.. فيعدو عليه.. ويقتله.

وكما لم يشفع شيء لكليب عند جساس.. لم يشفع شيء لجساس عند الهجرس.

ثم ينحاز إلى أعمامه.. ويتسلم الراية بانحياز الهجرس إلى أعمامه جيل جديد في حرب ضروس لا تبقي ولاتذر!!

ويهمس عروة لنفسه، وهو يستعرض حياة العرب على الأرض العربية.. وهو يفكر في طبيعة عقليتهم، وأخلاقيتهم.. وعاداتهم.. وتقاليدهم.. يهمس لنفسه بانه لن يكون بدعا في ذلك.. فيوم تواتيه القدرة.. ويصل وقومه إلى مستوى يمكنهم من الإغارة.. والأخذ بالثار.. فلن يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم.. بل إنهم سيقوموا بها.. وسيثأرون لأنفسهم.. وقتلاهم من الهمدانيين.. وسيلاحقونهم في كل مكان أو موقع يتواجدون فيه..

وسوف يثخنونهم.. وينهبونهم.. ويأسرون منهم ويأخذون نساءهم سبايا.. وسوف يبيعون من يتبقى منهم فى سوق الرقيق!!

هكذا حياتهم التى جبلوا عليها والتى ورثوها عن الآباء والأجداد.

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ (١) ﴿الزخرف:٢٢﴾

* * *

وتتبدل الأيام..

ويفاجأ فروة بأن العرى بينه وبين ملوك كندة تتقطع!!

ماذا حدث؟

يقلب صفحاته.. يبحث فى دفاتره.. يستوحى الواقع.. وذكرياته عنهم.. ومعهم عله يجد مبررا لهبوب رياح التغيير، وتقطع عُرا المودة، والصداقة، والإخوة.. فلا يجد!!

هكذا وبلا مقدمات يصير المحبوب مكروها.. والمرغوب فيه مرغوبا عنه؟!

هكذا وبلامقدمات يصير الأخ جارا.. والجار مغادرا بلا رجعة؟!

هكذا، وبلا مقدمات تهب الرياح منذرة بإعطاء ملوك كندة ظهورهم له.. وإن استداروا واتجهوا له فلكى يلتهموه.. ويقبضوا عليه؟!

إنه على أرضهم.. وهو وقومه ضيوف عليهم.. وقد كان عزيزا بهم.. قويا بقربهم منيعا بجوارهم.. فكيف تتبدل هذه الحال.. وبهذه السرعة، ويصير ضعيفا بينهم.. بلا حول.. وبلا قوة.. تتزعه النباة.. وتتمس مضجعه اللفتة المفاجئة؟!

حاول أن يعلل المواقف، أو يبررها.. ومهما حاول فرياح التغيير قادمة لا محالة!!

ولو تغابى عن الواقع.. ولو تجاهل الحقيقة، ولم يفكر فى مخرج من هذا الهم الجديد، فسوف يكون هو ومن بقى من قومه طعمة سائغة لملوك كندة عندما يكشرون عن أنيابهم.. ويجاهرون بعداوتهم!!

وساعتها لن يلوم إلا نفسه.. لأن الجناية ستكون جنايته.. والخديعة خديعته.. وقبل

أن تهب العاصفة.. فليس أمامه إلا العودة إلى الديار!!

* * *

إن جراحه وقومه لم تندمل بعد.. وما زالوا في موقف ضعف .. وهمدان في موقع قوة.. ولاشك ستكون فرصتها أعظم في القضاء على مراد نهائيا.. و إلى الأبد!؟

ماذا يفعل!؟ وكيف يتصرف!؟

لقد أوقع نفسه بين فكي كماشة.. أو بين حجرى رحا!!

ملوك كندة أمامه.. صديق غادرتنكر لكل العهود والمواثيق، وغدا لا يؤتمن جانبه!!

وهمدان بكل حقدها.. وجحيم عداوتها.. وجبروتها.. وغطرستها.. ولذة انتصارها، وما يكسب معنوياتها من علو وثقة.. وما يمنحها ذلك من ميزات تجعلها تسحقه وقومه لو دخلت حرب أخرى معهم.. وتبيدهم إبادة شاملة!!

ماذا يفعل!؟

يهادن ملوك كندة!؟

كيف وقد علم غدرهم.. ونكثهم العهد.. وخلفهم الوعد!؟

والبقاء .. وهو يعلم حقيقة نواياهم تسليم بما يريدون.. والتسليم أسر.. ذل.. عبودية.. أيسلم نفسه وقومه لدى ملوك كندة يستعبدونهم.. ويستذلونهم ما بقيت الحياة!؟

أية حياة تلك!؟ وأى منطق هذا!؟ وأى مصير أسود متربص بمراد!؟

لقد بكى فروة بن مسيك المرادي في حياته كثيرا .. كما ضحك كثيرا أيضا!!

لم ينقطع بكاؤه.. فهو متجدد بتجدد الأحداث.. والمصائب.

والأحداث، والمصائب ليست لها حدود تقف عندها.. ولا نهايات تنتهي إليها.

وما يزال يضحك.. إذ مرت.. وما تزال تمر به أيام ذاق فيها طعم السعادة والسرور.. فرغم المتاعب، والمصائب.. التي تمر به وما تزال إلا أنه يجد من وقت لآخر في حياته بعض أحداث تكسر قاعدة الحزن العريضة بشيء من السعادة، والسرور،

فيسعد ويسر ، ويضحك..

صارا الضحك والبكاء..

أو الحزن والفرح..

أو السعادة والشقاء..

كلاهما يسيران في خطين متوازيين.. لا يسبق أحدهما الآخر، ولا يتخلف أحدهما عن الآخر..

لكن المحير في الأمر.. والمثير الدهشة، والاستغراب أنه عندما كان يحاول أن يبحث عن معنى لمسببات البكاء فلا يجد.. وكذلك عندما يبحث عن معنى لمسببات الضحك فلا يجد.

إذا أغار عليه قوم، ونالوا منه.. ومن قبيلته .. يحزن.. ويبكي..

وإذا أغار هو على قوم.. ونال منهم، يفرح.. ويضحك..

والإغارة منه على الآخرين.. والإغارة عليه من الآخرين لا تنتهي!!

لكن.. لماذا الإغارة؟!

كان هذا هو أول سؤال.. سأله فروة لنفسه محاولا الإجابة عليه بصورة صحيحة في غمرة الأحداث الجديدة التي يمر بها!

والسؤال، وإن كان تأخر زمنا طويلا إلا أنه بداية تحول جديد في فكر فروة ومن ثَمَّ حياته.. وحياة قومه؟!

أخذ فروة يستفيد من تجاربه الماضية.. وكان أهملها.. ولم يلتفت إليها

واليوم هو يحتاجها.. يحتاجها أكثر من أي وقت مضى ليفسر بها ماغمض من موقف ملوك كندة منه.. ومن قومه، وهو بين أظهرهم .. بل ما يغمض من هذه الحياة بأسرها.. على هذه الأرض!!

لم يعد يفرح لشيء.. أو يحزن من شيء..

فلا ضحك.. ولا بكاء..

لا مجال للعاطفة.. المجال كل المجال للفكر.. ولا بد من أن يجد فكره سبيلا للخروج من هذه الورطة.. وحتى يصل إلى هذه النتيجة الحتمية.. فليجب أن يكون فكره جديداً!!

فكر كثيرا.. حتى لقد تحول إلى فكر محض..

استعرض الحياة العربية كلها محاولا أن يجد لها معنى..

أن يجد لهذه الحياة ضوابط.. تحكم تداعياتها..

أن يجد فيها قانونا يحمى الضعيف من القوى..

والفقير من الغنى..

والصغير من الكبير..

.. وقد تبدت له الحقيقة.. وناصبه ملوك كندة العداء..

والآن.. ماذا يفعل..؟

هذه الدنيا على اتساعها رآها سجنا ضيقا.. تكاد حواشيه تضغط عليه.. على أضلاعه فتفتتها.. على روحه فتزهقها..

لقد واجه من قبل محنا.. وإحنا.. ومصاعب..

وهاجمته متاعب..

ولاحقته كوارث خالها فى حينها بلا نظير أو مثيل..

لكنها الآن.. وأمام هذه التحديات الخطيرة.. لا شىء على الإطلاق أو قيمة!!

همدان من جانب.. وملوك كندة من جانب آخر..

وهو غريب.. بعيد عن الديار.. ضعيف.. لا حول له ولا قوة..

ضاقت عليه الأرض بما رحبت.. تلك الأرض الجائرة الفاسدة..

ليته يملك عصا موسى..

إذن لتغير ما يجرى فى الكون كله.. ولتغير ما يجرى على الأرض العربية..

إذن لفجر الأرض ينابيع الخير فى كل مكان تغرق الشر.. وتقضى عليه..

وعند ذكر عصا موسى توقف.. وتأمل.. وأمعن في التأمل.. ومن فرط تأمله.. استغرق .. ولعظمة استغراقه أوشك أن يحبس أنفاسه حتى لا تتسبب في تشتيت ذهنه، وتبعد عنه خاطرة خطرت.. هي طاقة نور.. فيض رحمة.. طريق واسع فسيح الخلاص والنجاة!!

واستعاد خاطره: «عصا موسى»

.. موسى نبي.. سمع بهذا .. لكنه في الزمن القديم..

وفي زماننا نبي..، وجاشت نفسه..

وكاد يصرخ.. كاد يصيح:

في زماننا نبي.. في المدينة.. إنه محمد بن عبد الله القرشي..

لقد علم بهذا .. كما علم برحمته في قومه.. وعدله بين أصحابه.. بل بين الناس جميعا .. وإحقاقه الحق.. وحربه الباطل في مختلف الأرجاء.. والأنحاء.. وفي أي صورة كان!!

واستعاد ثباته.. والأفق المظلم يستنير..

وهمس لنفسه:

في المدينة نبي.. يقيم السلام في الأرض..

ويمنع الهوان بين البشر..

ويوقف العدوان.. ويقضي على الشر..

وينتصف للضعيف من القوي..

ومن الظالم للمظلوم..

في المدينة نبي..

يحل الحلال.. ويحرم الحرام..

ويحفظ الحرمات.. ويصون الأعراض..

في المدينة نبي..

يقضي على الفوضى الخلقية.. والعقلية التى سادت الجزيرة العربية.. ويقضي على الخوف.. والرعب ويحل محلهما الأمن، والطمأنينة والسلام..

فى المدينة نبي..

يقيم نظاما اجتماعيا جديدا.. لا عدوان فيه.. ولا إغارة ولا بغضاء.. ولا شحناء!

فى المدينة نبي: هو الوحيد القادرعلى طرح الأسئلة.. ووضع الإجابة عليها!!

وتحطمت من حول قروة جدران السجن الكبير..

وتكسرت كل القيود من حول رقبته..

ومعصميه..

ورجليه..

وانهار جلاده.. وتلاشى.. واختفى!!

وتبدلت الأرض غير الأرض..

والسماوات غير السماوات..

وأخذ نفسا عميقا.. وهو يخرج من بئر عميقة الغور.. ثم صعده فى هدوء.. وهو يحس كأن قامته ترتفع.. وترتفع.. حتى تصل رأسه السماء..

وهو يحس كأن أقدامه تقترب من أعماق الأرض قوية ثابتة..

ورأى من عليائه ملوك كندة.. أقزاما..

بل أقل من الأقزام..

وفتش فى الكون عن همدان.. فرآها فى ركن حقير من الأرض..

جماعات كجماعات النمل.. تهرع إلى الشقوق والجحور فارة مذعورة.. عند صوت الريح!!

وكاد يهتف.. ويعلي صوته:

.. أية عظمة تلك التي منحتها إياي على البعد يا محمد.. وأنا أفكر فيك.. مجرد تفكير!؟

يا نبي الرحمة..

والقوة..

والعظمة..

والحق.. والخير..

أصدقك..

وأهتف بك نبيا ورسولا لرب العالمين! لإله الواحد..

فاقبلني.. واقبل قومي في رحابك..

ودار حول نفسه.. وهو ينظر يمنة ويسرة..

ثم ثبت..

ونظر إلى أعلى ..

واتجه إلى السماء..

وصاح..

«يا رب الأرباب.. ورب محمد.. امنحني القدرة.. وأمهلني حتى ألقاه.. ويأمن في جواره قومي»

★ ★ ★

واندفع فروة بن مسيك إلى بيته مهرولا... إلى زوجته مكمن سره.. وموضع ثقته..

صار متهللا.. وقد زالت تقاطيب وجهه، وانفرجت أساريره..

– أتدرين؟!

– هات ما عندك ترعاك الآلهة..

في ثقة:

– لم يعد يهمني ملوك كندة .. ولن أعود أهتم بهمدان..

في لهفة:

– ياربماله.. زدني.

– لقد وجدته..

– من هو؟ وما أهميته؟!

– ملاذ المحتاج.. وسند الضعيف.. وأمن الخائف في غير مَن!!

– افصح يا رجل.. أججت شوقي.

فهمس:

– محمد.. محمد يا زوجتي الصابرة..

في دهشة:

– نبي قريش؟!

– بل نبي الدنيا كلها.. رسول رب العالمين..

فاستعادت الزوجة ثباتها.. وأدركت أنزوجها قد وقع على شيء .. فسوف يكون هذا الشيء عظيما.. ولا سبيل إلى رده عنه..

ثم قالت:

– إن كان ما تقول حقا.. وما عزمت عليه صدقا.. فاجعل هذا فيما بيني وبينك.. ولا تعلم به أحدا.. فقد يزيد هذا من حنق ملوك كندة.. ولا نعرف بعد العاقبة..

فتنبه:

– والله لنعم ما ترين.. وإني ذاهب من فوري أبلغ القوم عزمنا على الرحيل إلى الديار.. وأشكر لملوك كندة كرم الضيافة.. وأستسمحهم الإذن لنا بالرحيل..

وهي تشيعه:

– إن أوصيك بالحذر.. فهذا التغير المفاجئ سيكون عليهم صاعقة حيرة.. وشكا.

وهو يودعها:

– أدرى.. أدرى.. فاطمئني.

★ ★ ★

... ما أن فصل عن الديار.. ديار الكنديين حتى تنفس فروة الصعداء.. وانزاح عن صدره هم ثقيل.. وعن كاهله عبء لا يعلم إلا الله كيف تحمله.. وكيف صبر له.. وقدر عليه؟!

ما أن فصل عن كندة مفارقا.. مطمئنا أن قد نجاه الله من مكرهم وكيدهم حتى نطق لسانه:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت ★ كالرجل خان الرجل عرق نسائها(١)

قربت راحلتي أؤم محمـــدا ★ أرجو فواضلها وحسـن ثرائها(٢)

★ ★ ★

السفر الطويل.. والطريق وعرة.. والسير شاق.. وعسير تحت وقدة الشمس الحارقة في متاهات الصحراء.. ودروبها الواسعة.. الفسيحة!!

لكن الغاية حلوة..

ومحمد هو الغاية..

---

(١) النسا: عرق مستبطن في الفخذ وأصله مقصور لمده الشعر

(٢) أؤم: أقصد

ثرائها: يعني الجود والعطية

ويروى : ثنائها، وهو الذي يتحدث به عن الرجل من خير

وهو المقصد..

محمد هو الرجاء.. وهو الأمل.. ومن أجله يهون كل شيء.. يسهل السفر، ويحلو الطريق.. ويهون السير.. وتحتمل المشقات.

يصل فروة سالما إلى المدينة.. ولا ينتظر حتى يجف عرقه..

ويذهب إلى رسول الله ﷺ على هيئته.. أشعث.. أغبر.

ويلقاه الرسول مواسيا.. ويتقبله مرحبا.

ويهش الرسول الكريم لفروة.. ويبش له.. ويخصه بحديث عذب.. حديث حلو.. لا يوزن بأى حديث. ولا يقدر بأي ثمن.. حديث فيه عزاء من لم يجد عزاء.. وسلوى من شردت عنه السلوى.. حديث فيه راحة للنفس.. وطمأنينة القلب..

قال له الرسول الكريم ﷺ :

– يافروة..

ويجيب فروة ، والرضا يقطر من صوته.. والحب يتفجر فى لجهته:

– فداك أبى وأمى يا رسول الله..

ويقول الرسول الكريم ﷺ :

– هل ساء ك ما أصاب قومك «يوم الردم»؟

ويقول فروة:

– يا رسول الله.. من ذا يصيب قومه ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوؤه ذلك؟!

فيقول الرسول الكريم ﷺ :

– أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا.

وتغمر فروة الفرحة.. فرحة حقيقية يحس لها أوصاله من شدتها ترتجف.. فرحة من نوع جديد لم يألفه من قبل.. فرحة كحياته الجديدة تماما.

ثم..

يكرمه الرسول الكريم.. رسول الإنسانية والرحمة.. يكرمه لحسن إسلامه.. ولما احتمل وقومه في سبيل الوصول إلى ما وصلوا إليه.. ويُعيّنه عاملا من قِبَلِه..

يستعمله النبي ﷺ ، على مراد.. وزبيد.. ومذحج كلها..

ثم.. يبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة.

ملوك الزمان.. والكنز!!

وفد ملوك حضر موت

اقترب الموسم..

، وأخذت «كندة» تتأهب له.. وتشمر عن السواعد، وتقف على سوقها استعدادا وإعدادا.. ففي هذا الوقت من كل عام يقام سباق الخيل.. سباق الفروسية الشهير في «كندة» أحلى وأمتع السباقات في هذه البقعة من الأرض اليمنية.. وهو أغلاها، وأقواها على الإطلاق وذلك لندرته، وطرافة ما فيه!

وندرة هذا الموسم أنه الوحيد في نمطه ... الذي تمثل فيه معظم القبائل في «حضرموت» بأجود ما عندها من خيول عربية أصيلة.. يمتطي صهواتها أبرع من فيها من فرسان، السبق، والضرب، والطعن!!

وندرة هذا الموسم أيضا أنه الوحيد الذي تحتفل به «حضر موت» كلها.. ويحضره معظم ملوكها.. إن لم يكونوا كلهم!

وعندما يحضر ملوك «حضر موت» يحضر معهم حراسهم.. وأتباعهم.. وأنصارهم.. وتتمايز منهم الشيات.. والأشكال.. والألوان.. والأعلام.. فيضفون على الموسم ما يجعله مهرجانا للفروسية بكل المقاييس، ومهما حاول إنسان أن يصفه، وأن يحصى مظاهر جماله.. وانعكاس أثره على القادمين، والمقيمين.. فإنه يعجز، لأن المهرجان بطابعه، وكل ما فيه يجل عن الوصف!!

أعد الميدان الكبير خارج الدور.. والبيوت!!

وجعلت فرق الاستعداد، وفي الإعداد تمارس كل واحدة دورها المنوط بها:

فريق يجهز مضمار السباق.. فيحدد خط البداية.. وخط النهاية.. وخطوط السير طولا، وعرضا.. وكيف يكون الانطلاق، وعدد المتسابقين في الشوط الواحد.. مثنى مثنى.. أم ثلاث ثلاث.. أم رباع رباع.. وأنسب جهات البدء من اليمين إلى اليسار .. أم من اليسار إلى اليمين!!

واليمين واليسار يحددهما اتجاه الريح من ناحية، ووضع منصة الملوك من ناحية أخرى!!

ووضع المنصة ذاته.. تلك التى يتوسطها ملك «كندة» العظيم.. الأشعث بن قيس، ومن حوله ملوك «حضرموت» فى هذا الاحتفال المهيب..

ووضع المنصة يتحكم فيه كذلك اتجاه الريح!

وهذا الفريق له خبراته.. والمتخصصون فى مجالاته.. وقد برعوا فى مرات كثيرة سابقة وأداروا السباق فى اقتدار تام!!

وفريق ثان مهمته بناء المنصة، وإعداد قبابها العاليات، تلك التى سيجلس عليها، الملوك وإعداد ملحقاتها التى سيجلس فيها الأتباع والفرسان المرافقين.

وفريق ثالث يقوم دوره على إعداد دور الضيافة: دور إقامة الملوك، ودور تناول الطعام.. وأماكن جلسات المنادمة، والسمر.. وأماكن الاجتماعات المحتمل قيامها بين ملوك «حضرموت»!!

وفريق رابع يعد أماكن الإنقاذ السريع.. والإسعاف.. والعلاج الفورى من جراء الإصابات التى تحدث فى هذا السباق.. وهو شىء متوقع.. وشائع الحدوث..

وهذه الأماكن أشبه بمستشفيات ميدانية فى ساحات النضال.. والنزال!

وفريق خامس يعد أماكن الحراسة.. والمتابعة.. والرقابة.. وهى أشياء ضرورية ولازمة لمثل هذا المهرجان الكبير، والذى أشبه بعيد سنوى من أعياد «كندة» العظيمة فى كل عام!!

وفريق سادس يعد أماكن تجمع الشعراء المرافقين للملوك من كل صوب وحدب..

وهم بلا شك مستوفزون.. وسوف تجيش عواطفهم.. وتهفوا أفئدتهم.. وتبعد أفكارهم وتقرب، بعد الخيل فى مضاميرها أو قربها.. وقد تنشط شياطين الشعر لديهم فيتجادلون.. ويتحاورون.. وربما يتصاولون كما يتصاول الفرسان على صهوات الخيل فى ساحة السباق!!

وفى كل هذا وذاك لم تنس الفرق أماكن المتفرجين من أبناء «كندة» وغيرها ممن يحضرون هذا المهرجان العظيم.. سواء من جاء منهم ليرى الملوك فى لقائهم الذى لايحدث إلا مرة كل عام.. أو من جاء ليرى الفرسان، والخيول.. والسباق.. ممن تستهويهم الفروسية وإشاراتها.. والخيول وملامحها العربية الأصيلة.. وهى تغدو وتروح

فى خفة، ويسر، ورشاقة.. مما يكسبها ظرفا، وجمالا يستهوى عشاق الفروسية.. وكل العرب عشاق للفروسية!!

.. أو من جاء ليرى على هامش هذا المهرجان.. المهرجان الشعرى، والذى لا يقل أهمية عن مهرجان الفروسية..

أو من جاء لا لهذا، ولا لذاك، وإنما ليزجى فراغا.. ويذهب سأما، ومللا من العام.. فينتهز الفرصة ليكسر حدة الملل، ويزيل سأمة رتابة الحياة، وقيودها!!

وهناك فريق آخر يعد الحظائر قريبا من أماكن الضيافة.. تلك الحظائر التى، ستجمع فيها النياق السمان، والأغنام الصحيحة الجيدة، والتى ستنحر للضيفان ..

★ ★ ★

«كندة» تشمر عن ساعد الجد ، وتقف على سوقها.. استعدادا و إعدادا لهذا المهرجان .. بل العيد السنوى الرائع، والذى إن دل على شىء فإن أقل ما يدل عليه هو رغد العيش .. ورفاهية الحياة فى هذه المنطقة من الأرض العربية.. ومدى ما تتميز به من قوة، ووفرة فى عَدَدِ الرجال، وعُدَدِهم.. وكثرة الأموال.. مما يجعلها فى منعة، وكأنها بهذه القوى كلها فى حصن مكين!!

★ ★ ★

فى مثل هذا الوقت.. كان الأشعث بن قيس ملك «كندة» يجلس فى قبته ليتلقى التقارير عن مدى الإعداد، والتجهيز لهذا الاجتماع السنوى.. وتبدو عليه مخايل الأبهة.. وعلامات السعادة والسرور..

يجلس فى قبته كالطاوس تيها .. وخيلاء.. والدنيا من حوله تقف على قدميها لاستقبال ضيوفه من ملوك «حضرموت» والذين لا يتكرر التقاؤهم فى مكان واحد بهذه الكثافة إلا فى «كندة» وفى هذا الموسم من كل عام.. حتى غدا وكأنه عيد لا لكندة وحدها ، ولكن لكل القبائل اليمنية فى «حضرموت» وغيرها..

★ ★ ★

وضربت قبة رائعة للأشعث بن قيس.. هى فى حقيقة أمرها مجموعة قباب عاليات زينت بالبيارق لكندة، ولغيرها من القبائل الأخرى المشاركة.

وجلس الأشعث فى قبته يتلقى التقارير من الفرق المنظمة.. والمشرفة على المهرجان..

إلا أنه فى هذه المرة، وفى هذا العام بدا وكأن السباق ليس سباق «كندة» وكأن العيد ليس عيدها.. ولا المهرجان مهرجانها.. بل وكأنه هو ليس ملك «كندة» على الإطلاق!! كان جهما فى كثير من الأوقات.. كما كان سارحا بذهنه فى أوقات أخرى.. وفى كل الأوقات كان منصرفا عما جرى وعما يجرى، وكأن الأمر لا يعنيه فى قليل ولا فى كثير حتى غدا هو نفسه شغل خلصائه.. وجلسائه.. وأصدقائه من كبار الشخصيات فى «كندة»!!

لا يعرف أحد بالضبط ماذا حدث له.. وماذا غيره هذا التغيير الكبير..

لقد بدا المقربون منه يشكون: هل يقيم الملك المهرجان، وهو على هذا الحال أم يلغيه؟!

ولم يعد يهتم أحد من هؤلاء المقربين إلا بما كان يعتريه، وما يظهر واضحا عليه من جهامة تزداد، وتبدو مظاهرها واضحة على قسمات وجهه.. ومن شرود تتضح سماته فى عدم تركيزه فى وقت يحتاجون فيه إلى تركيز شديد..

اقترب منه كبير حراسه، وهمس فى أذنه.. ثم انصرف..

ومع انصرافه ظهرت على ملامح الأشعث مسحة من حزن، وألم شديدين..

لقد كان من عادته بعد أن تأصلت قواعد السباق.. واستقرت كسباق سنوى أن يرسل إلى ملوك «حضرموت» رسلا، ويوجه إليهم دعوات لحضور هذا المهرجان، ومن ثمَّ يتوافد الملوك على «كندة» ومعهم أتباعهم، وأنصارهم يخطرون وسط الحراس بملابسهم المميزة فى موكب عظيم!!

ولقد تذكر الأشعث هذا العام زعيما لقومه.. ورائدا لهم.. وكبيرا فيهم.. عاش فى «كندة» زمنا.. أكرمه ملوكها فى جانب منه.. وأهانوه وقومه فى جانب آخر.. ثم رفضوا جواره.. واضطروه وقومه للرحيل عنهم، فغادر «كندة» حزينا.. كاسفا باله.. قليل الرجاء!!

لقد لجأ إليهم هذا الزعيم مع من بقى من قومه.. وعاش فى جوارهم يتقوى بهم.. وهو يحفظ لهم الجميل: جميل صنعهم.. ووفاء عهدهم، ثم تنكروا له.. وغدروا به، واستردوا منه جواره، وأخرجوه وقومه لم تندمل جراحهم بعد إثر معركة مع أعدائهم أخرجوهم بعدها مقهورين مغلوبين من ديارهم إلى «كندة» يعيشون فى جوار ملوكها ولما لم يجد هذا الزعيم ملجأ له ولا لقومه.. ذهب إلى محمد فى المدينة.. فأعزهم محمد بعد ذلك وأكرمهم بعد ضيق وقحط.. ويسر عليهم بعد عسر.. وأمنهم بعد خوف.. وأوفى لهم العهد والوعد.. وأعادهم إلى ديارهم.. ومكن لهم فى الأرض.. وجعل محمد هذا الزعيم زعيما لا على دياره فحسب.. ولكن ضم إليه ديارا أخرى!!

لم يدرك الأشعث بن قيس شناعة ما ارتكبه، وأتباعه.. وملوك «كندة» كلهم مع هذا الزعيم إلا بعد فوات الأوان!!

الزعيم هو.. فروة بن مسيك المرادى.. لجأ إليهم طامعا فى النخوة العربية عندما فرضت عليه هزيمة مؤلمة على يد الهمدانيين أن يتركوا الديار إلى «كندة» يعيشون فى جوار ملوكها .. وما يكاد فروة وقومه يستقر بهم قرار حتى يتنكر له ولهم هؤلاء الملوك.. ويخلفون لهم الوعد.. ويغدرون فى العهد لا لشىء ارتكبه هذا الزعيم وقومه فى حق «كندة» أو ملك من ملوكها..

فقط هى النزوة القبلية من تقريبها لأناس.. وإقصائها لأناس آخرين فى بعض جوانبها الجاهلية!!

تذكر الملك هذا الزعيم، وهو يسمع أخباره بعد أن أعزه الله بالإسلام، وأكرمه وقومه.. ورد لهم اعتبارهم.. وأعاد عليهم كبرياء هم.. ومكن لهم فى الأرض فصاروا قوة.. وأى قوة!!

تذكر الملك هذا الزعيم وهو يوجه إليه دعوة لحضور المهرجان معتقدا أنه بذلك يرأب الصدع.. ويزيل الجفاء.. ويلم الشمل العربى من جديد فى هذه المنطقة.. واثقا أن دعوته ستلقى القبول إن لم يكن الإذعان بالطاعة.. والتسليم بالولاء!!

إلا أن المفاجأة.. مفاجأة رفض الدعوة.. وعدم قبولها من جانب فروة بن مسيك نزلت على الملك كالصاعقة.. وكادت تُطير صوابه، وتُفقده اتزانه.

وأكثر من هذا.. فإن فروة لم يعلن رفض الدعوة وعدم قبوله الحضور فحسب.. وإنما طالب الملك الأشعث بقبول.. والإذعان له كشرط لقبول هذه الدعوة.. وإلا فإنه لا يقبل أن يتعامل مع مشرك.. وربما هدده فروة بالقمع هو ومن معه وتسيير كتائب الإيمان إلى «كندة» تدمرها على رءوس أهلها.. ومنهم الملك إذا ظل يدنس هذه القبعة من الأرض بشركه!!

.. هذه المفاجأة أيقظت الملك على حقيقة لا تقبل الجدال.. ولا شك أيضا، وهي أن من تصوره معزولا لم يعد كذلك.. بل إن الأشعث هو الذي بدا معزولا!!

لقد أيقظ هذا الرد الأشعث بن قيس.. ولفت نظره.. وجعله يدور ببصره يمينا وشمالا ليرى موقعه.. فإذا هو يكتشف حقيقة تغافل عنها فترة طويلة من الزمن.. يكتشف أن الزمن يجرى من حوله كثيرا.. وأن الأرض من أمامه، ومن خلفه.. وعن يمينه، وعن شماله قد استدارت أكثر من دورة.. وأن معالمها تتغير في كل دورة..

لم يعد الواقف واقفا.. ولا الجالس جالسا.. ولم يعد السائر سائرا.. ولا المقيم مقيما.. تغير كل شيء..

قبائل كانت ضعيفة.. صارت قوية.. وأخرى كانت قوية هرمت قوتها وشاخت..

قبائل كانت قد وصلت في حياتها إلى طريق مسدود .. كافحت هذه القبائل حتى وجدت مخرجا .. فانطلقت في طريق الحياة.. تبنى الحياة.. وتعيد صوغها من جديد!!

وقبائل أخرى استغلق عليها الأمر وجمدت فلم تبرح موطئ أقدامها، ووصلت بحياتها إلى طريق مسدود.. طريق الفناء والنهاية المحتومة!!

«أية منعة تلك أحاطت بك يا فروة حتى تقف هذا الموقف!!؟»

تلفت الملك الأشعث أكثر.. وأكثر.. ووجد أن اندهاشه واستغرابه لا محل لهما بالنسبة للأحداث التي تدور من حوله..

وعاوده تفكير الملك المجرد.. فوصل إلى اقتناع.. إن كان ثمة دهشة.. أو كان ثمة استغراب فيجب أن يكونا منه.. ومن قومه!!

إن الزمن يتحرك باستمرار.. ولا يتوقف لحظة من لحظاته.. فإن كان يتوقف فإنما

يتوقف عنده، وقومه فقط.. وهنا الفراية الأساسية.. الدهشة الحقيقية.. ومن يوجه إليه الأشعث بن قيس اللوم؟

إنه يكون مغالطا كبيرا.. ومخادعا أكبر لنفسه لو وجه اللوم لغيره.

فلا دخل لغيره في هذا.. اللوم كل اللوم يقع عليه.. وعليه بالدرجة الأولى!!

لقد نبهه فروة.. وجعله يكتشف حركة الحياة.. ووقع الزمن.. وموقعه وقومه من هذه الحركة!!

لكن.. يا ترى.. هل اكتشف أحد من قومه ما اكتشف؟ وما مدى ما وصل إليه في هذا الكشف؟ وما الموقع الذي يضع ملكه الأشعث بن قيس فيه بعد ذلك؟

إن هذا ليس عدلا.. ليس على القوم أن يطيعوا ملوكهم فحسب.. لأنه إذا كان عليهم حق الطاعة.. فإن على ملوكهم الريادة.. واكتشاف أسلم الطرق، والوصول بهؤلاء القوم إلى سبل السلام!!

★ ★ ★

وقبل أن يسترسل الأشعث بن قيس مع أفكاره.. وهو يتمتم:

«إيه يا فروة!! إيه يا فروة!!»

اقترب منه حارسه الخاص، وأخلص خلصائه، وهمس في أذنه:

– على مشارف «كندة» بدأت طلائع الملوك تقترب منا يا سيدي.

فلملم الأشعث عباءته.. وهم واقفا في أبهة مصطنعة يغلفها على غير عادتها طابع حزين:

– أهلا.. وسهلا.. ومرحبا بملوك «حضرموت» العظام.. وضيوف «كندة» الكرام..

ثم نادى:

– شمّر..

فحضر على الفور رجل لم تستطع هيبة طلعته، ولا رباطة جأشه أن يخفيا حيويته الدافقة في لباس الفروسية الكامل.. إنه فارس فرسانه.. كبير قواده..

واقترب من مليكه ..

– بم يأمر سيدي..

– أنت موكل مع فريقك باستقبال الملوك، واصطحابهم من مشارف «كندة» إلى هنا..

هيا يا بطل .. خذ فريقك.. واذهب خارج الديار، وعلى مشارف «كندة» فقد بدأت طلائع الملوك من ضيوف «كندة» يصلون..

كن أنت وفريقك في شرف استقبالهم.. وكن في صحبتهم حتى يصل ركبهم في سلام وأمان، مع ترحيب يليق «بكندة» وبهم.. يرافقك رجالك الأشاوس المغاوير!!

في أدب جم لم تستطع الصرامة أن تخفيه:

– أمر سيدي..

وانصرف «شمر» من فوره على رأس فرقته لتنفيذ الأمر.. فهذا يوم «كندة» العظيم، وهو يوم لا ينساه الزمن وإن طال!!

* * *

كان أول من وصل من ملوك «حضرموت» وائل بن حجر أروع ملوك «بني وائلة».. ثم من بعده توالى وصول الملوك!

وكانت الطبول تدق، وتصدح أصوات النفير بمعزوفات جميلة.. متمايزة.. ذات أشكال.. وألوان.. وأنغام.. مع قدوم كل ملك!

وبعد أن يستقبل الأشعث ضيفه بما يليق به.. ويصحبه حتى ينزل في قبته المخصصة لإقامته.. وبعد أن يطمئن على سلامة الوصول، وأن المكان قد هُيِّئَ تماما لراحة الضيف الكبير يستأذن في الانصراف حتى يكون في استقبال ملك آخر.

* * *

ثلة من ملوك «حضرموت».. حضر معهم جمع غفير مصاحب لكل ملك.. واكتمل مظهر المهرجان بحضور هؤلاء، وهؤلاء ..

بعض الملوك أوى إلى مخدعه فور الوصول.. والانتهاء من مراسم استقباله.. يستروح من وعثاء السفر.. ويستريح من عنائه.

والبعض الآخر راق له أن يعقد مع الأشعث بن قيس اجتماعا عاجلا ليتدارس معه بعض الأمور.. يجدها بالغة الأهمية، وتبدو أهميتها ملايين المرات من أهمية المهرجان.. لأنه لا ينعكس أثرها على «كندة» وحدها.. بل ممالك «حضرموت» كلها.. وعليها يتوقف مستقبل هذه المنطقة.. بل على هذه الأمور تتوقف حياة الممالك أو يكون موتها!!

وكان أول من فعل ذلك هو أول ملك وصل إلى «كندة» يمثل بني وائلة في هذا الاحتفال بالفروسية.. أو مهرجان الفروسية الكبير.. إنه وائل بن حُجْر.

ورغم أن هناك خلافا قديما بين وائل بن حجر وبعض ملوك «حضرموت» على ملكية بعض الأراضي.. يدعيها كل منهم لقومه من أرض بني وائلة..

ورغم حساسية هذا الموضوع حيث كان الأشعث بن قيس من المطالبين بهذه الأرض لكندة إلا أن هذا لم يمنع وائلاً من حضور المهرجان حيث كان يعتبره من جهة مهرجان «حضرموت» كلها.. ولا يجب أن يثنيه أي خلاف، كبيرا كان أو صغيرا، بينه وبين أي ملك حتى ولو كان الأشعث ذاته.. لا يجب أن يثنيه ذلك عن حضور هذا المهرجان!!

ومن جهة أخرى لقد اتخذ من هذا المهرجان ستارة يستر بها غرضه الحقيقي من الحضور هذا العام.. لعله وملوك «حضرموت» أن يوفقوا في اتخاذ القرار الصعب والذي لا بد منه إن أرادوا البقاء ملوكا.. وابلادهم وديارهم الحياة على هذه الأرض بعد اطراد الأحداث الجسام في المنطقة من حولهم في كل مكان!!

ما كاد وائل بن حجر يصل إلى قبته، وقبل أن ينصرف الأشعث بن قيس حتى أبدى رغبته في عقد اجتماع عاجل معه.

وعلى الفور أجاب الأشعث:

– إنني ما أردت إلا التخفيف عنك يا أخي العظيم.. وأن تستريح يا ملك وائلة من عناء سفر طويل تكلفته لتضفي علينا، وعلى «كندة» كلها شرفا كبيرا ما بعده شرف.. لكنا وهذه رغبتك، وهي في الوقت ذاته رغبتنا الأكيدة سيشرفنا زيارتك فور الانتهاء من مراسم استقبال إخوتنا الملوك القادمين اليوم دون أن نكلفك أكثر مما تكلفت، وأنت

تصل إلينا .. وإلى «كندة» مكرما لها!!

ونزل هذا القول بردا وسلاما على فؤاد وائل بن حجر.. وعزم على أن يفتح للأشعث قلبه.. ليفصح له عن دخيلته وأبعاد ما يجده، ويحس به من أخطار تتهدد المنطقة كلها!!

★ ★ ★

وعندما اطمأن الأشعث بن قيس إلى أن ضيوف «كندة» من الملوك وأتباعهم أووا إلى مخادعهم في راحة، ودعة.. وأن الجميع لقوا حظهم من الرعاية.. وكرم الوفادة، وينعمون براحتهم في ظل الأمن والسلام، وأن العيون من «كندة» ساهرة في يقظة تحرس الجميع.. وتُهَيِّئُ لهم إقامة سعيدة..

عندما اطمأن إلى أنه أدىّ واجبه.. انصرف إلى قبة وائل بن حجر الذي كان يبدو عليه القلق.. وعدم الاطمئنان.

وذهب الأشعث بفكره بعيدا. وكان على وفاق مع وائل تماما..

فلم يكن الخلاف على الأرض هو ما رغّب وائلا في الاجتماع به..

ولم يكن هو الموضوع ذاته الذي جعل الأشعث بن قيس يلبي الدعوة سريعا..

إن كان وائل قلقا، ويبدو عليه الاضطراب.. فإن الأشعث بن قيس لم يكن قلقا فحسب ولا مضطربا فقط بل كان مفزعا، ولا يكاد يتماسك من هول ما تراوده نفسه من أفكار.. بل من هول ما يحيط به، وما يراه رأى العين في كل مكان.

قال الأشعث وهو في طريقه إلى قبة وائلة:

«بالقطع.. إن مايشغل وائلة هو ما يشغلني.. وأعتقد أن ما يفكر فيه هو ما أفكر فيه أيضا..»

ويهز رأسه متعجبا لا من توافق الخواطر، لو صح أن ما يفكر فيه وائلة هو ما يفكر فيه نفسه.. بل من توافق الحدب على المصلحة العليا لا لوائلة وحدها، ولا لكندة وحدها، ولكن لحضرموت ومن حوتها.. أرض اليمن أجمعين.

★ ★ ★

ويبدأ وائل حديثه الصريح دون كلفة.. أو تكلف:

– يا أخي ملك كندة العظيم..

لعلنا قضينا زمنا على هذه الأرض لم يكن ما بيننا إلا نعم الإخوة.. وإلا نعم الجوار.. وإن اختلفنا فلقد كانت خلافاتنا تحل بطريقة أو بأخرى.. بلا فحش وبلا فجور في القول أو الفعل، ومن ثَمَّ دام ما بيننا من إخاء، ومن صفاء غير مشوب بشائبة..

فهز الأشعث رأسه معجبا وموافقا:

– إنه لكذلك، وحق الإله.. ولسوف يكون على الدوام طالما بقيت «كندة» وبقيت «وائلة».. وطالما بقي الأشعث، وبقي وائل!!

لكن يا أخي.. أيكون ما يحزنك هو هو ما يحزنني؟!

فقال وائل بن حجر:

– أظنه كذلك.. ولسوف أفصح وأبين.. ولا أعتقد أنك ستخالفني.. حيث الطبيعة عندنا واحدة.. وخطرات الفكر، وجيشان الشعور والعاطفة هما هما في «كندة» أو «وائلة» أو «حضرموت» كلها!!

ثم صمت لحظة متأملا.. وأردف:

– يا أشعث.. بحق الإله اصدقني إن كان حديثي لغوا.. أو كان يستند إلى حقيقة.. ولى فيك ناصح شفيق!!

يا أشعث .. أرى الناس تتململ هنا، وهناك.. والقبائل العربية الكبرى أخذت تتدفق على المدينة.. وتتدافع قاصدة محمدا لتبايع بالإسلام.. وأراها تذهب فقيرة فترجع غنية.. وضعيفة فتعود قوية.. ويائسة مهملة فتثوب، وقد كانت هاماتها تحاكى السماء!!

فقال الأشعث:

– ونحن والقدون كأننا تسمرنا في أماكننا.. كأننا أوتاد دقت إلى أرض لا تنتزع من مكانها ولا تتزحزح!!

يدور الزمن.. وتتحرك الأرض من حولنا.. ونحن جذوع كجذوع النخيل... أو كأننا

شم الجبال.

تقول يا أخي: إن الناس تتسمل.. وحق الإله لكأني أرى في عيون الناس في كل لحظة.. وفي الصباح وفي المساء.. في كل وقت وحين سؤالا واحدا لا يحيدون عنه:«وماذا بعد؟» حتى مللت النظر إليهم.. إلى وجوههم.. كيلا أرى ملامحهم تنطق بهذا السؤال المتكرر.. والذي ليست له إلا إجابة واحدة، إذا أردنا الاحتفاظ بمواقعنا.. وشكلنا.. وهيبتنا ملوكا سلائل ملوك!!

فقال وائل:

– لقد بدونا كجزيرة منعزلة..

هذه الأزد ذهبت وبايعت.. واكتمل لديها السؤدد، وهذه همدان.. ومن قبل مراد.. ومذحج.. وغيرها وغيرها.. بايعت بالإسلام فحمت نفسها ومصالحها وحافظت على موقعها وأمان طرقها.. فأراحت.. واستراحت!!

أحس بهم جميعا كأنهم خلقوا خلقا جديدا.. وقد خلفونا وراءهم حتى بدونا وكأننا أبناء قرون سحيقة.. لا أبناء عصرنا، وزماننا!!

فقال الأشعث:

– وهذا الرعب الذي تخلفه لنا دائما خيل محمد عندما تظهر في منطقة هنا أو منطقة هناك..

هذه خيل محمد تغدو وتروح، وقد تخلت لها الساحة تماما، ولم تجد لها عدلا أو نظيرا!! تغدو وتروح من أمامنا.. ومن خلفنا.. ومن يميننا.. ومن شمالنا.. منذ أيام كان جيش محمد يجوب المنطقة بقيادة رجل اسمه علي بن أبي طالب.. قالوا عنه: إنه زاهد في الدنيا.. لا يهتم بكثيرها، ولا حتى بقليلها.. وأجمعوا على أنه بطل حرب، وفارس كر.. وصنديد من صناديد العرب الذين لا يشق لهم غبار..

ومن قبله كان لمحمد جيش آخر يصول في المنطقة ويجول بقيادة رجل قالوا عنه: إنه عبقري من عباقرة العرب لم يُهزم في معركة قط.. قبل إسلامه، ولا بعد إسلامه.. تعرف الجزيرة والروم بأسه.. هو في فم الدنيا.. وعلى جبينها ملء السمع.. وملء البصر..

إنه خالد بن الوليد!!

فتفكر قليلا وائل ثم قال:

– وغير هذا وذاك.. فجيوش محمد لا تعد، ولا تحصى.. وهي تخطر في كل اتجاه.. وتتواجد في كل مكان.

وإن خطر هذه الجيوش لا يكمن في مواجهتها.. إذ أن أخصر طريق للتخلص من الرعب.. رعب الخطر.. والخوف منه هو مواجهته..

ولكن خطر هذه الجيوش زيادة على ما نعرف يكمن في:

أولا: إعزاز القبائل التي بايعت بالإسلام.. وإغرائها بنا، وتحويلها إلى جيوش لمحمد تتطاول علينا، ومن ثَمَّ يضيع كبرياؤنا، وتسقط هيبتنا!!

ثانيا: تشجيع الناس الذين يمتثلون لحكمنا، ويذعنون لإرادتنا، ويدينون لنا بالولاء، وبالطاعة.. تشجيع هؤلاء الناس من قومنا على التمرد علينا.. وشق عصا الطاعة.. ونبذ حكمنا.. والخروج من عهودنا ومواثيقنا.. إلى عهود ومواثيق محمد.. وساعتها لا يفلح شيء .. أي شيء!!

وما كنا نملكه كله يضيع منا أيضا كله..

ولعلك قلت الآن: إنك ترى في عيونهم سؤالا واحدا هو: « وماذا بعد » ثم تحس فيهم التململ.. وعدم الاستقرار.. وأقول لك: كلنا يعرف أن فيهم مسلمين.. ولو فتشنا عنهم.. ووجدناهم.. وأبدناهم فلن نستطيع استئصالهم أو القضاء عليهم.

ولو كنا نقدر على ذلك لكانت قريش قدرت من قبل عندما كان محمد بينهم وحده بلا سند أو نصير.. ولو حاولنا سنكون كمن يسبح ضد تيار جارف.. وتجربة المجرب ندامة!!

فقال الأشعث في حزن عميق:

– يا أخي الملك العظيم.. إن النذر من حولنا كثيرة..

ولسوف أطلعك على سر هو ما جعلني متكدرا منذ مدة، ولا أستطيع تجاهله أو الإغضاء عنه.

إن إغراء القبائل بنا قد وقع بالفعل، وإذا كان حدث ذلك معى اليوم.. فسوف يحدث فى أماكن أخرى غدا.. وهذا واقع لا محالة..

ونكس رأسه برهة.. ثم رفعها وقال في تأثر بالغ:

– لعلك تذكر فروة بن مسيك المرادى.. زعيم مراد.. وكبيرها..

فقال وائل:

– ذلك الذى كان فى جواركم.. وحفظتموه من أن تتخطفه صقور همدان.

– نعم.. نعم هو ذاك.

– وماذا عنه؟!

– لقد تركنا منذ تركنا.. وذهب إلى محمد.. وبايع بالإسلام.. فأقامه من قبله على مراد، والأزد، ومذحج.

فقال وائل:

– وماذا بعد أيها الملك العظيم؟!

قال الأشعث في مرارة:

– أرسلت أدعوه كما دعوت الملوك مجاملا له لحضور المهرجان محاولا بهذه الدعوة نبذ الماضى، وفتح صفحة جديدة تتوحد فيها اتجاهاتنا ومواقفنا وتلتئم فيها إرادتنا فى مواجهة الأخطار..

وكنت أعتقد أنه سيمتثل.. إلا أنه زاد على رفض الدعوة شرطا لقبولها وحضوره: أن أترك الشرك الذى هو على حد قوله دنس هذه الأرض، وإلا وجه إلىّ كتائب الإيمان.. كتيبة تلو كتيبة.. تقضى على الشرك فى «كندة» وعلى المشركين..

ثم هز رأسه مردفا:

– «وماذا بعد»

فقال وائل:

– أيها الملك العظيم.. إن لك لرأيا هو مصباح هدايتنا. فهاته يوجهنا فى ليل الشك،

والألم والمرارة.. وينير طريقنا إذا استغلق علينا الطريق!!

فقال الأشعث بن قيس:

– لعلي وأنا منفعل على غير عادتي لا أحس بتصويب الرأي.. أو إجالته.. وطالما كنت أقول عنك.. إن لك أفقا متسعا.. هو أوسع من آفاقنا جميعا ملوك «حضرموت» فابسط رأيك لي يا ملك «وائلة» العظيم.. ولسوف تجدني معوانا.. وإنني لعلى يقين من أن ملوك «حضرموت» كلها سوف لا تتخلف عنه.

فقال وائل بن حجر في صلابة.

– لا أكتمك يا أخي ملك «كندة» العظيم أني قلبت الأمر على مختلف وجوهه.. وبت ليالي مسهدا أبحث عن حل.. فلم أجد سوى حل واحد تترتب عليه المحافظة على كبريائنا، ورعاية كرامتنا، والإبقاء على قبائلنا متماسكة قوية كما كانت دائما..

فقال الأشعث بن قيس في حزم:

– هاته.. هاته إذن ولا عليك!!

فقال وائل بن حجر:

– نذهب إلى محمد ونبايع بالإسلام.. ونأخذ منه عهودنا.. ومواثيقنا.. وكتبنا.. نحفظ بها أرضنا، وديارنا وحرمتها.. ونصون بها دماءنا وأعراضنا.. ونمنع بها عدوان أحد أي علينا..

فتردد الأشعث بن قيس قليلا ثم قال:

– أوليس من حل آخر؟

– ولم لا لهذا الحل؟

– الناس؟

– عندي أم عندك.. أم في «حضرموت» كلها؟

– عندي.. وعندك.. وفي «حضرموت» كلها!!

– يا أخي العظيم.. لن نحاول خداع أنفسنا بعد الآن..

الناس حددت مصيرها منذ زمن طويل.. وعرفوا طريقهم منذ مدة.. وهم يمالئوننا ويداروننا.. بل ويسخرون منا.

يا أخي.. نحن الملوك.. ويعتقد الناس أن الملوك لا يخافون.. وإذا خفنا نحن فمن الشجاع الذي لا يخاف غيرنا؟!

ثم.. لِمَ لَمْ نخف من الناس من قبل ونحن نقسو عليهم.. ونحن في تيهنا نجرجرهم، وراءنا كأنهم سوائم لا حول لهم ولا قوة؟!

نحن فقط ملوك «حضرموت» الذين لم نعرف لنا مصيرا.. ولم نفكر فيه من قبل ونحدده!!

نتلقى رضا الناس الظاهر فنقتنع له، ونخدع أنفسنا بسمعهم وطاعتهم!! ولقد قلت لتوك: إنك مللت النظر في وجوههم حتى لا ترى سؤالهم الثابت والملحّ.. بل والساخر أيضا: «وماذا بعد»؟

وأنا من قبل كرهت أن ألقى الناس.. وأنا أعرف حقيقتهم.. وحقيقة نظرتهم حتى لا أعطيهم الفرصة في السخرية مني من خلال سمعهم الكاذب وطاعتهم المزيفة!!

وسرح ببصره بعض الوقت ثم قال:

– يا أخي ملك «كندة» العظيم:

أود أن يتسع صدرك وأنا ألقي إليك حقيقة توصيفي لموقفنا وموقف الناس منا أمام هذا الزلزال الذي هز الجزيرة.. بل والدنيا كلها..

نحن في الناس الآن أذناب.. والناس هي القيادة.. كل شيء يوحي بذلك .. وإن بدت لنا القيادة في الظاهر!! فلماذا لا نأخذ القرار الصعب.. ونحترم أنفسنا.. وعقولنا ونحترم مصيرنا ومصير الناس معنا.. ونبقى بذلك على دفة القيادة.. قيادة، الظاهر، والباطن معا؟

فقال الأشعث:

– ومن يدري.. ربما الناس.. بل قد يكون الناس على حق!

فقال وائل بن حجر:

– بل قل.. قد يكون محمد على حق.. وأعتقد أنه لكذلك.. ولعل هذا الإجماع على اتباع طريق محمد يؤيدني في هذا.

فنظر الأشعث إلى وائل بن حجر متسائلا:

– وهل تظل على رأيك لو عرض على ملوك «حضرموت» الموجودين عندنا الآن؟!

فتبسم وائل.. وكانت ابتسامته دليل انفراج الموقف:

– بل إنني متمسك به.. وأرجو أن تتيح لي الفرصة في اجتماع تُهَيِّئُ سبيله للملوك لأعلنه عليهم.. بل وأحضهم عليه، وإن كنت أثق تمام الثقة أن أحداً لن يعارض، وقد وصلنا جميعا.. كلٌّ في دياره إلى هذا الاقتناع!

يا أخي.. هذه قضية مصير.. وهي قضية حياة أو موت.. ومن نخشاه ونحن ملوك!؟

فلمعت عينا الأشعث ببريق مريح.. مطمئن وهو يمد يده يشد بها على يد وائل بن حجر:

– ولن أخذلك أبدا.. لا فيما ارتأيته من رأي أو فيما طلبته من تهيئة الجو لاجتماع موسع يحضره ملوك «حضرموت»!

فشد وائل بن حجر على يد الأشعث بن قيس، وهو يتنفس الصعداء:

وكان الليل تأخر.. فاستأذن الأشعث بن قيس.. متمنيا للملك الضيف نوما هادئا..

وعينا وائل تتابع الأشعث وهو ينصرف تشع فيهما الراحة.. والاطمئنان.. وكأنهما تقولان: «بالفعل.. سيكون ولأول مرة منذ زمن.. نوما هادئا».

* * *

تسرب خبر اجتماع وائل بن حجر بالأشعث بن قيس فور وصول الأول إلى قصر إقامته..

وتسرب أيضا أهم الأفكار التي كانت موضع البحث في هذا الاجتماع..

وانتشر هذا الخبر في كل أحياء كندة انتشار النار في الهشيم..

وسرى في كل الأنحاء سريان البرق في الليلة الظلماء..

وكان صداه سرورا طاغيا.. أشبه بالخرافة.. اجتاح كل شيء.. وسيطر على النفوس.. والعقول.. والقلوب.. والطبيعة التى بدت صبيحة هذا اليوم فى أجمل أثوابها.. وأبهى زينتها..

وعبر الكنديون عن سرورهم أول الأمر بالصمت.. ثم بالنشاط والحركة الزائدتين.

★ ★ ★

وعلم الملك الأشعث بن قيس فعجب وسُرَّ.

وكان عجبه من كيفية معرفة الناس الأفكار التي دارت في الاجتماع.. وكيفية تسرب هذا الخبر وسرعة انتشاره!!

أما لماذا سُرَّ ؟! فللصدى الذى لقيه الخبر عند الناس.. ولقد كان يتمنى هذا ويرجوه.. إذ فتح له مغاليق الأمور.. وقرب له آفاقا كانت تبدو بعيدة..

★ ★ ★

فى يوم بداية السباق ذاع الخبر.. وشاع.. وصار على كل لسان.. فى الحواضر والبوادى وتحول تعبير الناس الصامت عن السرور للنبأ العظيم إلى صراخ.. وهتاف.. وغناء.. وتفجر من قلوبهم حب كبير.. احتضن كل شيء.. وأحاطت سماحتهم المرائى من إنسان.. وحيوان.. وجماد.. واستخفتهم نشوة غريبة.. فبدوا فى حركاتهم.. وتنقلاتهم كأنهم يطيرون فى الهواء.. لا يسيرون على الأرض..

وراع الملوك ما يرون.. وأتباعهم!!

إنهم يرون ألوانا جديدة من البشر فى «كندة».

ماذا حدث؟!

فى المنظور المادى.. تبدو الغرابة فيما يعترى الناس.. وفيما ينعكس على حركاتهم.. وتصرفاتهم المادية..

أما فى المنظور الفكرى.. والعقلى فإن ما يحدث من الناس لا غرابة فيه..

الناس على أبواب حياة مختلفة عن حياتهم الأولى.. يخلعون فيها عقيدة.. ليلبسوا

عقيدة جديدة.. وهم يدركون فى أعماقهم أن من يغير عقيدته «إنما يغير كونه كله.. ويستبدله بكون آخر.. وهو يغير ماضيه، وماضى أهله.. وحاضره، وحاضر أهله.. ويغير مصيره فى الدنيا.. مصيره بعد الموت.. كما يغير آراء ه.. ومقاييسه فيما يأخذ، وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس»(١).

قلق الملوك وأتباعهم للظواهر الجديدة التى يلمسونها فى «كندة».

وزاد من قلق الملوك بشاشة الأشعث بن قيس المفرطة.. وملامح السرور البادية على وجهه.. والتى لم يختلف فيها عن ناسه.. وأهله فى «كندة» وتلك الابتسامة العريضة المشرقة التى كانت تملأ وجهه.. وكانت ملامحه من قبل جادة.. جامدة.. صارمة.. يبدو وجهه فيها وكأنه نحت من صخر.. أو كأنما قُدَّ من حديد!!

★ ★ ★

وعلى غير العادة.. لم يعد السباق يحرك النشاط الجسدى.. والوجدانى فى الإنسان فحسب.. بل النشاط الفكرى.. والعقلى كذلك!!

كان الملوك يتابعون إجادة الفرسان فى جريهم.. وسباقاتهم الرائعة فى مختلف الأنشطة المحددة منها والحرة..

كانوا يتابعون السباق بأعينهم.. أما عقولهم فكانت منصرفة إلى ما انصرف إليه فكر وعقل الأشعث بن قيس ووائل بن حجر.

وسيطر عليهم هذا الخاطر للمدى الذى جعلهم يتأخرون عن المتفرجين فى الإعجاب بالحركة الرائعة.. أو اللعبة الجيدة..

كان الناس يسبقونهم فى الإعجاب.. والتعبير عنه.. ويأتون بعد الناس تبعا!!

★ ★ ★

ويستغل المفرقون فى الكفر من حزب الشيطان الحدث.. ويحاولون الوقيعة.. وإشعال نار الفتنة.. ويصورون لبقية الملوك اجتماع الأشعث بن قيس، ووائل بن حجر من وراء

---

(١) عبقرية عمر: عباس محمود العقاد.

ظهورهم على أنه لون من ألوان التآمر..

وأن السباق هذا العام ما قصد به إلا التغطية حتى يكسبا هذه المؤامرة صفة الشرعية، فيوهما الدنيا بأن هذا الخط الجديد إنما هو بمباركة من الملوك، وموافقتهم..

وبينما هما يكسبان.. يورطان فى الوقت ذاته الملوك أمام شعوبهم!!

★ ★ ★

ويدافع الواقعيون من المعتدلين بأن مزاج شعب «كندة» يكاد يكون هو هو مزاج بقية شعوب ممالك وقبائل «حضرموت».. فكلهم يمنيون.. بيئة، ومناخا.. وعرقا.. ونسبا.. وعادات.. وتقاليد.. وثقافة أيضا!!

وما يبديه شعب «كندة» لمجرد شائعة قد لا يكون لها أساس من الصحة.. هو هو ما يستكن فى ضمير وقلب بقية الشعوب.. والتى لو أعطيت فرصتها للتعبير.. بل.. وربما يكون عندهم أكثر فى هذا المجال مما لدى شعب «كندة».. فقد لاقى بعضهم أهوالا فى هذا السبيل دون مبرر معقول، ولا مقبول.. ومع ذلك صمدوا حتى كتب لهم النصر!!

★ ★ ★

وفريق ثالث يأخذ خط الوسط فيقترح عقد اجتماع موسع بين كل الملوك.. ليكون محور النقاش فيه هو هذا الحدث، وما طرحت فيه من أفكار.. ولا يهم أن يكون هناك اتفاق تام.. أو اختلاف تام.. فالاتفاق التام الكامل ليس إلا فى مجتمع الملائكة..

ونحن بشر.. المهم أن يخرج الملوك موحدين.. محافظين على وحدة شعوب «حضرموت».. وجلال وهيبة الملوك، وألا يتركوا للدس أو الوقيعة فرصة للتفرق.. والتمزق.. سواء كانت مواقفهم تجاه الحدث بالسلب.. أم بالإيجاب!!

فاليمن عندما كان موحدا بنى حضارة رائدة للحضارات فى القديم.. وعندما يتفرق تتألب عليه قوى الشر من كل صوب.. وحدب.. وتمزقه تمزيقا..

وكم عانى اليمن من هذا التمزق الذى ما أكسبه إلا ضعفا.. وما أفاد خصومه وغزاته إلا قوة فسيطروا عليه.. وسحقوه!!

* * *

وتنتصر الحكمة اليمانية.. تلك الحكمة التي صقلتها التجارب.. وتوالى السنين والأجيال ومر الدهور والعصور الطوال..

وتنتهي أيام السباق.. أو المهرجان العظيم.. وتظهر نتائجه..

فتخبوا أسماء كان لها في فترات طويلة الفوز والسبق والغلب، وتلمع أسماء كانت مجهولة.. مهملة.. لا يدرى أحد عنها شيئاً.. فتتفوق.. وتبرز.. وتنتصر وتسجل روعة فروسية.. وفنون مهارة.. وابتكار أنماط من اللعب والنشاط!!

ينتهي السباق..

ويدخل الملوك سباقا كانوا يعونه جيدا.. وكانوا يعرفون قبل غيرهم خطورة ما يترتب عليه.

يدخل الملوك سباقا.. يدركون أنه قد فُرض عليهم فرضا.. فرضته طبيعة الحياة الجديدة.. والتي هي في أوضح أشكالها كالسباق الذى شاهدوه لتّوهم.

وقد بدت ملامح هذه الحياة الجديدة في خطوطها الواضحة.. والتي أخذت معالمها تتضح، وتأخذ أشكالاً، وأنماطاً، وأبعاداً لا عهد لهم بها.. ولا قِبَلَ لهم بمثلها.. هم في سباق هذا العام رأوا أنجما تأفل، وكواكب تبزغ..

والحياة الجديدة.. كالسباق تماما.. يبرز فيها أمم لتبقى.. وتعيش..

وتخبو فيها أمم.. ثم ينتهي أمرها وكأنها لم تكن في يوم من الأيام!!

وعليهم.. وشعوبهم.. إما أن يكونوا في هذا المعترك كواكب تلمع.. وأقمارا تبزغ وتعيش في سماء الكون الجديد.. أو أن يكونوا نجوما تأفل.. وتتلاشى.. وتنتهي غير مأسوف عليها!!

عليهم أن يعوا هذه الحقيقة.. وأن يفهموا كذلك أن الدنيا باقية.. ولن تنتهي بانتهاء أحد.. ولو كان هذا الأحد ملوك «حضرموت» وشعوبها..

بل إن نهايتهم ستكون فتحا جديدا لمن يستحقون العيش.. ويستحقون الحياة!!

*   *   *

فى الاجتماع المهيب طرحت فكرة واحدة.. صريحة.. وجريئة:

نتحرك.. ونتوج حياتنا فى قومنا بالذهاب إلى محمد فى المدينة، ونبايع بالإسلام فنريح.. ونستريح؟

أم نجمد حيث نحن مهددين فى كل لحظة.. ونخسر كل يوم دون أن نكسب شيئا فى أى يوم؟

لم يكن ما طرح على الملوك فى اجتماعهم المهيب فكرة.. بل كان خيارا!!

ولقد كانوا فعلا ملوكا.. إذ كانوا على مستوى المسئولية.. كانوا على مستوى الحدث رزانة.. ونضجا.. وتفتحا.. وإدراكا لكل الأبعاد.. وبُعد نظر لكل الاحتمالات والحياة الجديدة فى المجتمع الجديد.. سواء من عارض.. أو من أيد.. أو من وقف بين بين!!

ثم كانت الكلمة الأخيرة لوائل بن حجر.. ملك «وائلة» الذى فضل الجميع الاستماع إليه.. وإلى رأيه الأخير..

فقال وائل بن حجر: بعد أن حيا الملوك بما يليق بهم، وحيا ملك «كندة» العظيم.. الأشعث بن قيس:

– يا ملوك «حضرموت».. ويا عقولها المبدعة.. وأفئدتها النابضة بالحس والحياة.. إن قلتم جميعا نعم.. وذهبتم إلى محمد.. فلن يقدر أحد على أن يتهمكم بالعجز.. أو الجبن أو الخوف.. فأنتم ملوك الزمن.. بأسا.. وعزما.. ومضاء وقوة!!

وهذه السنة العاشرة بعد الهجرة.. هجرة محمد إلى المدينة.. ولم يظلمكم محمد.. أو تظلموه مع أن جيوشه تنطلق من حولكم شرقا، وغربا.. وتقطع الأرض طولا من الشمال إلى الجنوب.. تحرشت هذه الجيوش بغيركم.. من الذين آذوا محمدا وأصحابه والمسلمين.. ولم تتحرش بكم لأنكم لم تؤذوه، ولم تؤذوا أصحابه.. ولم تؤذوا المسلمين.. ولم تدخلوا فى حرب مع محمد أو يكون بينه وبينكم قتال!!

أكرر القول بناء على هذا بأن أحدا لن يستطيع أن يتهمكم بالخوف من محمد أو

العجز دونه أو الجبن أمامه..

فإن ذهبتم إليه فلن يكون ذلك من موقف ضعف.. أو هوان.. بل سيكون من منطق التعقل.. والوعي.. والفهم.. والإدراك.. والنظر البعيد.. وهو ما أريده أن يكون.

وما.. أريده أيضا هو أن تجيل الفكر.. ونقيس الأشياء ببعضها.. ثم نرتبها على بعضها .. وإذا لم يكن أمامنا إلا أن نرى المسألة من منظور الكسب والخسارة فلنفعل.. ولا أشك في أن أحدا منا يريد الخسارة لنفسه أو لقومه.. كلنا يريد الكسب .. والعيش في رخاء وسلام..

ولسوف أذكركم بحادثة مضى عليها سنتان بالتقريب.. وقفنا كلنا عاجزين وتركنا لأصحابها تقدير الموقف بما يبعد الخسارة.. ويحقق الكسب.. ولم يعترض أحد منا على ذلك.

منذ عامين جاءت خيل محمد بقيادة رجل يدعى قيس بن سعد بن عبادة.. جاء يقود أربعمائة رجل من الرجال الأشداء الذين باعوا أنفسهم من أجل عقيدتهم.. وحياتهم.. ومجتمعهم الجديد وقصدوا «صُداء» في الجوار.. وكلنا كان يعرف سلوك صداء مع من أسلموا.. وكلنا كان يعرف أيضا أن صداء لا تستطيع مواجهة هذا الجيش شهرا.. أو أسبوعا.. أو يوما واحدا..

وكلنا وضعنا أيدينا على قلوبنا، وحبسنا الأنفاس.. لم نقدم «لصداء» شيئا.. إلا أننا تركنا لمن يُقَدّر من أهلها الموقف أن يحسن الخروج منه بما يحقق «لصداء» كسبا.. ويبعد عنها خسارة!!

كلنا رغم أبهتنا وقفنا عاجزين.. لأننا لم نستطع تقدير الموقف.. وتركنا تقدير الموقف لزعيم من زعماء «صداء».

وعندما قام أحد زعمائها بمبادرة كريمة وفر فيها الدماء.. والأموال.. وحمى بها الأعراض.. عندما ذهب هذا الزعيم إلى المدينة، واتصل بمحمد.. وأعتق نفسه.. وأعتق قومه بدخول الإسلام.. وبايع عن نفسه وعن قومه.. حمدنا له جميعا ما فعل.. وقلنا: كسب والله.. وأثرنا جميعا الحكمة اليمنية.

وها هي ذي سلامان.. وغامد.. والأزد.. وزبيد.. وخولان.. وخثعم.. وخثعم ..

ومراد.. ومذحج.. كلها قد بايعت بالإسلام.. وقد حمدنا لهم جميعا ذلك!!

أفنحمده لغيرنا من أهلنا، وأبناء عمومتنا.. ثم نجحده لنا؟!

ولو قسنا الأمور بمقياس الكسب والخسارة فستجد أن هذه القبائل كلها لم تخسر شيئا بل كسبت كل شيء!!

ونحن .. ماذا لو طبقنا هذا المقياس في تعاملنا وقلنا: ماذا سنكسب وماذا سنخسر لو ذهبنا إلى محمد وبايعنا بالإسلام؟!

الحقيقة أننا لن نخسر شيئا على الإطلاق.. بل إننا سنكسب كل شيء..

سنكسب قومنا مُوحَّدين غير مفرَّقين.. وسنكسب مواقعنا بينهم.. وسنكسب الحفاظ على أرضنا.. ومواردنا.. وسلامة طرق تجارتنا.. وأسواقنا!!

يا إخوتي ملوك الزمان:

لقد تخلف زعماء لقصر نظرهم عن تبين الحقيقة، وإدراك الواقع.. وانقسمت قبائل على نفسها فأيد فريق.. وعارض فريق.. وتفككت الروابط.. وتقطعت العرى بين الأصحاب، والأهل والأحباب.. وسالت دماء المعارضين على سيوف المؤيدين..

فهل تنتظرون حتى تتفرق جموعنا.. وتقل قوتنا.. وتنفصم عرى الوحدة بين شعوبنا.. ويعمل بعضنا السيوف في رقاب بعض؟!

هل ما يزال أحد يعتقد في أصنامنا؟!

والله إني لأشهد أنها صماء.. بكماء.. عمياء.. لا تنفع ولا تضر..

وإلا ماذا فعلت؟!

في جرش.. ماذا فعل إلهها.. «ذا الخلصة» الذي كانت تعبده خثعم عندما أوت إلى جرش وحطمه محمد أمام الأشهاد؟! لا شيء..

ومن قبل عندما هدم المغيرة بن شعبة.. «اللات» في ثقيف؟! ماذا فعلت؟! لا شيء.. وفي بني تميم.. وبني سعد.. عندما هدمت أصنامها وكانوا يعتقدون أنها تُعْمِي وتصيب بالبرص.. والجنون.. ماذا فعلت؟! لا شيء..

ومن قبل عندما حطم محمد هذه الأصنام، وأزالها من حول الكعبة، وكانت قريش تعتقد فيها، وتعبدها.. ماذا فعلت؟ لاشيء.

الآن حصحص الحق.. ووضح الزيف.. وزهق الباطل..

يا قومنا.. أجيبوا داعي الله.. ومدوا أيديكم.. أيدى السلام والمحبة.. والعقل والحكمة مدوا هذه الأيدى إلى الرحمة.. وادعوا معى الإله الواحد أن ينير لنا طريقنا.. ولنكن رواد صدق وخير لشعوبنا!!

فقاطعه الأشعث بن قيس:

– والله يا وائل بن حجر.. لكأنى أسمع هذا النداء تجلجل أصداؤه فى سويداء قلبى.. وإنى وايم الحق لملبيه..

ونهض ربيعة بن ذى المرحب من مكانه وقال بأعلى صوته، وقد عقد يديه فوق رأسه:

– وأنا معكما، ولن أتخلف عن النداء.. والله يا وائل بن حجر.. ما لبيت مستجيبا لحساب الكسب أو الخسارة.. ما لبيت إلا قربانا لمن يملك ناصية الخلق بيده..

وعسانا أن نكون من المقبولين..

وتوالت الصيحات من كل الجنبات.. هى فى جملتها تعبير عن الاستجابة.

فوقف الأشعث بن قيس وقال:

– يا ملوك «حضرموت» العظام.. وملوك الزمان..

ستسجل لكم الدنيا هذا الحدث.. ولن ينساكم التاريخ أبدا.. وماراًيتم من سعادة شعبى.. وسرور قومى تفويض لى بأن أذهب.. وأبايع عن «كندة» كلها.. فمن كان لديه تفويض من شعبه.. وقومه.. فلينضم إلى جمعنا.. فإنى عازم منذ اللحظة على تكوين وفد يذهب إلى المدينة.. وفى الوقت متسع لدى الجميع.. فمن يرد أن يطلع قومه أولا.. فهو وما يريد.. ودعاؤنا له بالتوفيق.

* * *

ثمانون رجلا تكون منهم الوفد.. على رأسهم الأشعث بن قيس.. ووائل بن حجر..

ومعهما ملوك آخرون..

وفد عظيم.. يمثل شعبا عظيما.. استنقذ نفسه.. ومستقبله.. ومستقبل أجياله حتى يرث الله الأرض ومن عليها!!

وفد عظيم استمد عظمته لأول مرة.. لا من جبروته وطغيانه.. وقوته المادية على الأرض ولكن من كلمة «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله» كلمة قال عنها رسول الرحمة، ونبي البر والإحسان ﷺ :

«أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي.. لا إله إلا الله..»

هي ميزان العدل.. ومفتاح الحق.. وصولجان الملك.. وغاية ما تصبو إليه نفس المؤمن من صدق.. وطهر.. وغنى لا يعادله غنى.. وثراء لا يساويه ثراء.. وهي الحرية والأمل.. كل الحرية.. وكل الأمل لمن حرمته الدنيا من الحرية.. وأقعدته عن بلوغ الأمل.. لكن لا تزال في الوفد مسحة جاهلية..

فقد تكحلوا.. وتزينوا.. وحلوا ملابسهم بالحرير.. والديباج..

ربما لأنهم تصوروا الرسول على غير صورته.. وتوهموه على غير هيئته.. وكما اعتادوا مع بعضهم البعض من مظاهر الملك وأبهته.. أخذوا زينتهم التي في زعمهم تليق بهم في حضرة رسول الله الكريم..

لكن.. لا يهم..

كل هذا سيتغير.. وسوف تصحح المفاهيم قريبا.. وسيعودون بعد البيعة الكاملة إلى بلادهم خلقا جديدا بأمر الله..

★ ★ ★

انطلق الوفد..

وأخذت الأرض زخرفها.. وازينت..

لم تكب الخيل وهي تنطلق بهم ريحا.. تسابق الريح..

لم تكبُ الخيل من حصى الجبال وحجارتها..

ولم تغص أسوقها في لين رمال الصحراء

كانت وهى على الأرض مفروشة بالرمال.. كأنها على بساط ذهبي يسبى النواظر..

كانت كأنها على وسادة من الهواء.. تطوى اتساع الصحراء الشاسع بالوفد الذى تساوى فيه الجميع.. فما عاد بينهم ملك، ولا خفير.. الكل يتجهون إلى ضيافة الرحمن.. على قدم واحدة من المساواة.. والإخاء..

وكلما ضربوا فى أعماق الصحراء لا تجد لهفة أحدهم إلا شوقا للقاء الرسول..

وكان سباقا جميلا.. رائعا.. ذا لون ومذاق متميزين.. كان سباقا حلوا.. جليلا.. إنه سباق الإيمان!!

وما كان يشغل أى واحد منهم كلما بعد عن الديار، واقتربوا من المدينة إلا متى يصلون إلى المدينة.. ويرون محمدا؟!

.. نعم.. سيتغير كل شيء.. كل شيء!!

* * *

تستنير المدينة على نورها.. تستنير مهد البر والرحمة.. تستنير ملتقى المؤمنين وتتعطر بمسك التقوى والصلاح وهى تستقبل الوفد الكبير.. ويسبح نبى الرحمة، بحمد ربه.. ويستغفره فى جلال وخشوع أن هدى الله أمته، ووفقها لنوره وهداه..

﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ ﴿سورة النصر﴾.

يسبح الرسول بحمد ربه.. ويستغفره.. ويفرح بتحقيق وعد الله ونصره..

﴿ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء﴾ (الروم: ٤-٥)

ويُسَرُّ الرسول الكريم، وهو يستقبل هذا الوفد الكبير.. وقد بلغ سرور النبى ﷺ بمقدم وائل بن حجر أحد ملوك «حضرموت» على رأس وفد «بنى وائلة» فى هذا الجمع الغفير أن نادى بالصلاة العامة ابتهاجا بوصوله (١)

* * *

دخلوا على الرسول فى مسجده.. فهالهم ما رأوا من سماحة فى غير تفريط..

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية

وبساطة تغلفها الهيبة والوقار.. وحب يسع الدنيا كلها لو وزع عليها.. وحنان في رحمة يملأن كل شيء.. ويحتويان أي شيء»..

وتجاذب الرسول الكريم معهم أطراف الحديث.. قال:

– ألم تسلموا!؟

قالوا:

– بلى يا رسول الله.. أسلمنا..

قال:

– فما بال هذا الحرير في أعناقكم!!

وينصهرون في بوتقة الإيمان.. ويتحولون إلى مثل للتواضع.. وتمسهم الرحمة فيصيرون خلقا جديدا.. بلا جاهلية.. ولا شيء من مسحتها.. يحتويهم الإيمان فيطبعهم بطابعه الذي يتساوى بسببه الناس.. كل الناس أمام الله ولا يتمايزون عنده إلا بتقواهم.. وبعملهم الصالح.. «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح».

وينزع الإيمان ما عليهم من زخرف.. من زينة هي لباس وتفاخر.. ودليل تكاثر ليست للمؤمنين..

ويقومون فينزعون الرياش، والزينة من ملابسهم، ويشقونها منها..

واقترب الأشعث بن قيس من الرسول ﷺ وحببته بساطته.. وأعجبته منه سماحته فأراد أن يغترف من حديثه، ويسمع من صوته قدر ما يستطيع.. اقترب من رسول الله ﷺ وقال:

– نحن بنو آكل المرار، وأنت يا رسول الله ابن آكل المرار..

يسعد الأشعث بن قيس بأن يقول للرسول ﷺ إن بيننا وبينك صهرا ونسبا..

فالتاريخ يذكر أن من جدات رسول الله صلى الله عليه وسلم من هي من ذلك القبيل (بني كندة) منهن: دعد بنت سرير بن ثعلبة بن حارث الكندي.. وهي في بعض الروايات أم كلاب بن مرة.. وقيل بل هي جدة كلاب أم أمه هند.

والأشعث بن قيس من ولد آكل المرار من قبل النساء..

وهى قصة يطول شرحها فى هذا الحيز الضيق..

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

– ناسبوا بهذا النسب العباسى بن عبد المطلب.. وربيعة بن الحارث.. فكانا إذا ذهبا بتجارتهما فى بعض بلاد العرب فسُئلا من هما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار.. يتتسبان بذلك إلى ملوك «كندة» كلون من ألوان التقوية والتعزيز.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشعث ومن معه:

– لا.. بل نحن بنو النضر بن كنانة.. نقفو أمنا.. ولا ننتفى من أبينا

يريد ﷺ أنهم لا ينتسبون إلى أمهاتهم وإنما إلى آبائهم.

فقال الأشعث بن قيس لمن معه من قومه:

– هل فرغتم يامعشر كندة.. والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين.

ومن طرائف اللحظة أن يثار موضوع الخلاف على الأرض المتنازع عليها بين «كندة» و «وائلة» ويعرضون الأمر على رسول الله ﷺ يحكمونه فيما بينهم..

لا بأس .. فهذا هو المطلوب.. وهو لون من ألوان التغيير والاندماج يحكم الرسول لوائلة.. يمتثل الجميع لحكم رسول الله ﷺ ويحسم الخلاف الذى طال أمدا ليس بالقصير.. فما أحلاك.. وما أبهاك يا رسول الله:

«من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله.. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه..»

ولقد صمم هؤلاء الملوك العظام وأتباعهم ومن ورائهم شعوبهم على أن تكون هجرتهم لله ورسوله.

وعادوا إلى ديارهم «نورهم يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم، ومن شمالهم»

* * *

والزمان يدور!!

وفد الأزد

قال صُرَد بن عبد الله الأزدى لرفاقه الثلاثة فى اجتماعه بهم، وليس فى ذهن أى منهم إلا شىء واحد، وهو أن يعدوا العدة، ويجهزوا للإغارة على «خثعم» تلك القبيلة التى كان لها على «الأزد» أيام مرة.. أغارت فيها عليها، وأوجعتها بهزائم ثقيلة متلاحقة، وقتلت الكثير من رجالها، ونهبت، وسلبت مالها.. وساقت نساءها سبايا.. واستباحت أرضها، وديارها.. وقطعت عليها طرق اتصالها.. وتجارتها وجعلتها بورا.. أو قاعا صفصفا!!

وكلما حاولت «الأزد» الثأر والانتقام.. وغسل العار.. والتشفى لموتاها بغارة عنيفة.. تتبعها هزيمة ساحقة «لخثعم» تجد نفسها أعجز عن فعل شىء .. أى شىء..

وكان شبح هذه القبيلة المتوحشة يطارد هؤلاء الأربعة، وهم كبار القوم فى الأزد، والمسئولون عن حماية الأرض، والعرض.. والانتقام للشرف، والكرامة المهدرة.. وألم الهزائم المتلاحقة من الخثعميين لا يرحمهم فى ليل أو نهار..

يحسون به فى عيون الشباب المنهار.. والشيوخ اليائسين.. والأطفال المشردين .. بل وفى عيون النساء التى لا ترحم فى كل وقت، وكل حين..

قال صُرَد بن عبد الله الأزدى:

– منذ أن عاد محمد بن عبد الله من تبوك، والدنيا ساكتة، لا حس لها ولا حركة فيها..

وناهيكم عن «خثعم» كلما فكرنا فى الإغارة على قبيلة أو حتى عشيرة تصدمنا حقيقة مرة، وهى أن هذه القبيلة.. أو العشيرة صارت محمية محمدية.. إذ ذهب وفدها إلى المدينة يبايع عن نفسه، وعن قومه بالإسلام .. ويعود الوفد، وهو يحمل من محمد كتابا يحدد فيه أرضهم، ومياههم، ومراعيهم، ومزارعهم، ويجعل كل مالهم حلالا لهم ومحرما على غيرهم..

يعود الوفد بكتاب يؤكد تحالف القوم مع محمد.. فتصير القبيلة أو العشيرة قوية بإسلامها.. وبالتزام محمد بالدفاع عنها، والوقوف بجانبها.. بل ومطاردة من يحاول الاعتداء عليها..

فقال خالد بن ضمادة الأزدى:

- وما تزال الدنيا تذكر السبب الذى أدى إلى فتح مكة.. وإلى هزيمة قريش وعتقها نفسها فى النهاية با عتناق الإسلام بعد صراع مرير دام سنوات طويلة قادت العرب فيها ضد محمد.. عتقها نفسها باعتناق الإسلام..

ما تزال الدنيا تذكر السبب، وهو يتمثل أول مايتمثل فى التزام محمد بالدفاع عن حلفائه، والثأر لهم ممن اعتدى أو يحاول الاعتداء عليهم..

وقد جعله هذا الالتزام يهب لنجدة خزاعة التى انحازت إلى محمد بعد صلح الحديبية.. وقد اعتدى عليها فريق ممن انحاز إلى قريش.. فكان على قريش أن تدفع الثمن.. وكان الثمن فتح مكة، وإخراج قريش نهائيا، وإلى الأبد من دائرة الصراع مع محمد.. ثم المحافظة على بقائها باعتناقها الإسلام.

فقال أبو ظبيان عمير بن الحارث الأزدى:

- ومحمد اليوم غير محمد يوم فتح مكة.. لقد ازدادت قوته.. واتسع نطاق عمل هذه القوة!!

محمد اليوم له اليد الطولى.. والباع الأرحب.. ولم يعد تأثيره فى حدود الجزيرة.. وإنما امتد إلى حدود الشام مع الروم..

وعندما ذهب إلى تبوك لم يكن يقصد المناوئين له من العرب فى هذه المنطقة بقدر ما كان يقصد الروم.. ذهب يتحدى الروم فى عقر دارهم.. فهل يعز عليه أن ينازل من يفكر فى منازلته من أهل الجزيرة.. أو يحاول الاعتداء على قبيلة أو عشيرة بايعت بالإسلام، وصارت بإسلامها حليفة لمحمد بل محمية محمدية!!

فقال جنادة بن مالك الأزدى:

- وهذه جيوشه تجوب المنطقة.. منطقتنا.. شرقا وغربا.. وشمالا وجنوبا.. وما تزال

أحداث «صعداء» وما جرى لها، وما اتخذته من وسائل لحماية نفسها، والإبقاء على حياتها.. بعد أن عجز ملوك «حضرموت» عن تقديم أى عون لها، وذلك قبل أن يبايعوا بالإسلام!!

ولم يكن أمامها بعد أن ضاقت كل السبل في وجهها لإنقاذ نفسها من عداوتها لمحمد.. وإساءتها للمسلمين حولها، وإطباق أحد جيوش محمد عليها من كل جانب للقصاص منها.. لم يكن أمامها إلا إعتاق نفسها بالإسلام.

أحس الأربعة من زعماء «الأزد» فى الهدوء الذى عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ما عدا بعض جيوب هنا أو جيوب هناك.. أحسوا فى هذا الهدوء الذى وصل شمالا إلى الشام، وشرقا إلى العراق والبحرين.. وجنوبا إلى اليمن.. وسيطر على المنطقة التى يعيشون فيها طوقا يلتف حول رقابهم.. يغلهم، ويشل حركتهم، وهم ما ألفوا هذا الهدوء ولا هذه السكينة أو الاستقرار.. ما ألفوا إلا حياة الإغارة والنهب والقتل والبغضاء والشحناء!! وأرادوا أن يكسروا هذا الطوق بإغارة على قبيلة.. لكنهم وقد باتوا يخشون محمدا، صار هو شاغلهم الأول والأخير.. وغدا التفكير فيه جزءا من حياتهم اليومية.

فكما يأكلون.. وكما يشربون، هم كذلك يفكرون فى محمد.. ويتابعون أخباره، وتحركاته فى القرب أو فى البعد.. وتحركات جيوشه التى باتت الجزيرة كلها ميدانها ومضمار سباقاتها!!

وقال صرد بن عبد الله:

– لم يبق يا رفاق إلا «خثعم» فهى لم ترتبط بعد بمحمد.. ولعلها بعد تغير خارطة الأحلاف، والتحالفات أن تكون تقطعت الروابط بينها وبين أحلافها القدامى بعد أن أسلموا..

هى إذن وحدها الآن..

فقال خالد بن ضمادَة:

– إن واجهتنا الآن ستواجهنا وحدها، ونحن قادرون عليها فى هذه المنازلة.

فقال جنادة بن مالك:

– وإذا هزمناها فزنا بما نطلب.. وفزنا بالثأر لما كان لها من أيام سابقة علينا.

فقال أبو ظبيان عمير بن الحارث:

– كم لها من أيام علينا!! لن ننسى هذا ما حيينا.. لذا فلابد من سحقها، وهزيمتها هزيمة لا تقوم لها بعد قائمة.. وتحقيق أعظم نصر لنا.. يداوى جراح السنين، ويغسل عار الزمن، وتتغنى به أجيال الأزد جيلا إثر جيل..

واتخذوا قرارهم.. وحددوا للإغارة زمنا.. وضربوا للهجوم على «خثعم» موعدا.. وربما فضلوا أن يكون عملهم عقب ليلة مقمرة... ليلة يكون القمر فيها بدرا!!

* **

.. والقمر في البادية له سحره، وتأثيره على الناس في حياتهم البسيطة.. ففى ضوئه يلهو الصبية، ويعبثون، ويلعبون، ويمرحون، ويمتد لهوهم ومرحهم حتى الهزيع الأخير من الليل.. وشيء من الأمان يخالطهم فلا يقلقون.. أو يتحفظون، أو يحذرون.

والقمر فى البادية مجتلى الذكريات.. ومثار الحنين والأشواق، وتلمس الوصول للحبيب هناك خلف الوادى، بعيدا عن الرقباء والعيون، فهو يوقظ الناس معظم الليل.. ثم عندما يأوون إلى مضاجعهم يغطون فى نوم عميق.. كأنه سبات مستأنسين بالضوء حولهم ينتشر في كل مكان!!

وعندما تخفت حركة القوم، ويقل نشاطهم.. وعندما ينامون يغير الأربعة بفرسانهم.. ويعملون عملهم..

والثقة صرد فى النصر ورفاقه من كبراء الأزد وفى نجاح هذه الغزوة، قدروا أنها تمت، وقد أخذوا القوم على غرة. فقتلوا منهم من قتلوا، واستسلم الشيوخ والنساء للكارثة مولولين.. هاتفين: البقية.. البقية.. ولا بقية إلا السيف.. وبقيت القبيلة مرتعا مستباحا.. وغنموا المال، والذهب، والجمال، والأغنام.. وعادوا.. وما بقى إلا أن يقابلهم قومهم فى الأزد، بأكاليل الغار يجللون بها هاماتهم.. وينحنون أمامهم فى إعزاز وإكبار للنصر المذهل الذى مسح العار.. عار الهزيمة أمام «خثعم» فى مرات سابقة والغنيمة

التي ستسعد الجميع..

وهم يهيئون الفرسان من الأزد لهذه المهمة، والتي تصوروها رحلة سهلة ميسورة.. وهم يمنون أنفسهم الأماني بالصيد الوفير، والكسب الجليل، والنصر المؤزر.. ثم العودة بلا خسارة..

لكن يحدث ما ليس في الحسبان وما لم يكن متوقعا..

ماذا؟

لقد فرت «خثعم».. تركت الديار.. وذهبت بكاملها، وانحازت إلى «جرش» وجرش مدينة مغلقة.. بها مجموعة من القبائل اليمنية انضمت خثعم إليها وصارت بها في منعة.. ولن يتسطيع صرد ولاغيره النيل منها!!

ياللكارثة!! حتى «خثعم» والتى أمل صرد، ورفاقه أن يفكوا بغزوها الحصار المضروب من حولهم.. أن يكسروا الطوق الذي غلهم.. تخرج من دائرة حياتهم التي ألفوها.. وتعودوها، وصارت تسيطر على كيانهم وتسري في أوصالهم مسرى الدم في العروق..

من بقى في المنطقة إذن لم يذهب إلى محمد يبايع بالإسلام ثم يعود وقد صار قوة.. أو انضم إلى حلفاء جدد كما فعلت «خثعم»!!

* * *

كان الوقت عصرا عندما امتطى صرد بن عبد الله الأزدي صهوة جواده، وخرج بعيدا عن الدور في مشية هادئة يتريض.. ويختلي.. ويفكر..

وما إن بعد عن الدور حتى ألح عليه التفكير، واستغرق فيه!!

لقد لفت نظره أن الرجال لم يكونوا متحمسين لعمل شيء.. وهو عكس ما كانوا عليه في مرات سابقة حيث كانوا يتواثبون فرحا عندما يُدْعَوْن للاستعداد والتأهب للانقضاض.. بل إنه نفسه لم يكن متحمسا بما يتفق مع وضعه كزعيم ومسئول عن قومه وجماعته.. فلم تكن به حاجة إلى مال أو عبيد.. أو حتى إزهاق مزيد من الأرواح تحت أي مسمى.. كالثأر.. أو الانتقام.. أو غسل العار!! ورغم هذه المصارحة الصادقة

مع النفس، فقد صار أهم ما يفكر فيه هو تغير الرجال.. أو ما بدا مما ينذر بتغيرهم!!

هل يكونون تغيروا فعلا؟ وما الذي يمكن أن يغيرهم!؟

وكذا الذهن يريد أن يستبين ملامحهم.. إنه لا يتذكر شيئا. ولا تعي ذاكرته صورة، أو لونا لأي منهم ساعة الإعداد..

هو.. الرجال.. وفي لحظة صدق مع النفس.. أحس نفسه يكشف دائرة مبهمة غامضة:

«لعمري.. أنا الذي تغيرت!! والفتور الذي يدب في أوصالي.. والخمول الذي يسيطر على ذاكرتي.. وذهني المكدود الذي لا يسعفني بشيء.. كل هذا يقول لي: إنني أنا الذي تغيرت»

وقابلته ربوة كثيرا ما جاء إليها يختلي بنفسه فوقها الساعات الطويلة، تتربع فوقها شجرة من أشجار «الطرفاء» وحولها بعض شجرات عنب الديب.. فترجل من فوق جواده، وتركه أسفل الربوة حيث المرعى الوفير من الكلأ.. والعشب الأخضر الناضر.. ثم اعتلى الربوة، ودار حول شجرة الطرفاء يتأملها، وكأنه يراها للمرة الأولى في حياته ونظر إلى شجيرات عنب الديب من حولها فلفت نظره ثمرها الناضج.. فجلس أمام إحداها القرفصاء محاولا قطف بعض ثمرها.. وأسند ظهره إلى شجرة الطرفاء، وهو يضع الثمرة في فمه والظل يلفه ونسمة رقيقة ندية من نسمات آخر النهار تهدهده.. ثم تثاءب.. ولم يستطع أن يقاوم فتمدد في الظل الظليل.. وأسلم نفسه لإغفاءة عابرة..

أخذته غفوة.. لم يعرف على وجه اليقين كم استغرقته من الزمن.. لكن الذي يعرفه جيدا كأنه يعيش في يقظته أنه رأى في هذه الغفوة نفسه تائها في بيداء مقفرة.. يتلظى جوها بالسعير من حرارة الشمس، وقد استبد به العطش.. وخارت قواه.. وضاع منه الطريق ولا أمل في النجاة.. وهو في هذه المحنة يجد كأن الأرض تنشق عن خنزير بري ضخم.. له وجه غريب أدهشه قدر ما أفزعه.. كان وجه صنمهم الذي يعبدون، وفي رأسه قرنان مدببان غليظان كرمحين.. عينان يخرج منهما نار كشواظ من لهيب.. ويندفع إليه هذا الخنزير بكل قوته.. ثم يغرس قرنيه في صدره فينتزع من بين ضلوعه قلبه على أحدهما.. وكبده على الآخر..

وتنتابه إغماءة من الرعب يحس أثناءها بتحول هذا الخنزير إلى مارد جبار له قرن في جبهته يهجم عليه ويفرسه في رأسه فينتزع مخه.. وصرد يصرخ:

- «أريد أن أعيش.. أريد أن أبقى حيا.. لا أريد أن أموت »

وتجحظ عيناه.. ويفغر فاه، وقد تبدد إلى قطع ممزقة.. لكنه لا يزال يحس بما حوله.. ويقدر على الرؤية.. ثم يرى وهو يعالج نفسه كأنه في النزع الأخير.. ثم يرى قريبا منه في قيظ هذه الصحراء بستانا.. لم تر قط مثله عين.. بستانا يمتلئ بالخضرة.. والورود.. والخمائل وأشجار الفاكهة من كل صنف ولون وتتفجر من خلال الخمائل عيون تجرى مياهها داخل البستان أنهارا.. ونسمة رقيقة تميل الأشجار في خفة، وتهز الأوراق في يسر.. نسمة رقيقة تعيد الصحة للبدن العليل!!

ورأى على باب البستان رجلا يشع النور من بين ثناياه.. وكأن رأسه قنديل من النور في ملابس بيضاء يشير إليه بعبور المسافة البسيطة التي تفصل ما بينه وبين البستان.. وأحس كأنه يتملل محاولا الوصول.. إلا أن الخنزير يقف حائلا بينه وبين الوصول مرة.. والمارد مرة أخرى.. فيصيح بما تبقى لديه من قدرة واهية:

- لا أستطيع.. لا أستطيع!!

فسمع صدًى هامسا في أذنه لصوت ودود:

- بل تستطيع إن أردت أن تحيا حقيقة..

وتوقف الصدى لحظة ثم عاد يرتد همسا في ألفة وفي ود أحس بهما يحيطانه من كل جانب:

- أنت الآن تبدد جهدك ووقتك فيما لا يفيد.. احزم أمرك.. واعقد عزمك وافتح قلبك لنور الهداية.. وعقلك لنور اليقين.. وتصد للخنزير اللعين، ولا تخش المارد.. وثق أنك لن تحيا وحدك.. بل سيحيا معك قومك..

- كيف وأنا خائر القوى.. منزوع القلب والكبد والمخ.. وليس معي سلاح..

- معك أقوى سلاح.. معك الإرادة.. بها تسترد قلبك وعقلك..

- الخنزير انتزع قلبي.. والعملاق أخذ مخي.. وأنا مسلوب القدرة.. أريد من

يساعدني!

- إن من تريده يساعدك بجانبك.. اتجه إليه وناده، وسيستجيب لك..

- من هو؟ وأين أجده في هذا الجحيم وأنا لا أراه؟

- إن من تقصده هو الله.. تجده في كل وقت وحين.. يراك، ولا تراه.. ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام:١٠٣]

قل فقط «يارحمان، يا رحيم، يا محي العظام وهي رميم، يارب محمد وربنا، ورب العالمين.. أحي موات قلبي، ورد عليَّ عقلي، وأعني على جهاد المفسدين».

- وكيف أعرفهم؟

- عندما يعود لك قلبك سيتصرف عنهم.. وسيرشدك لأقوم السبل إلى جهادهم فقط إذا كنت تريد الحياة لله ولقومك في هذا البستان.. اتجه إليه وردد ماقلت بقلب سليم.

واختفى الصوت.. ووجد صرد نفسه يردد: يا رحمن، يا رحيم.. وأحس نفسه معافى بلا جراح.. وبلا آلام.. وتحول خلقا آخر مختلفا عن خلقه الأول.. فيه ملامحه لكن ليست له صفاته.. ولا عقليته.. ولا إحساسه.. وشعر في نفسه قيمة لا تعادلها قيمة، وقوة لا تضارعها قوة.. فهجم على الخنزير.. وطارد العملاق، وتلاشيا أمامه في تيه الصحراء.. وضباب البيداء.. ثم تبخرا ولم يعد لهما وجود، وهو ما يزال يردد ما يسمعه من قول.. وهو يتقدم البستان لا يمشي على قدميه.. وإنما يطير في الهواء!!

هبط إلى البستان من أعلى فسمع الصوت نفسه.. ذلك الذي كان يسمعه همسا، ولا يدري من أين كان يصدر هذا الصوت.. لقد سمعه في حفيف الأشجار.. ولون الزهور والورود وخرير المياه.. وانبساط الأعشاب الخضراء.. ورائحة الفاكهة.. تلك الرائحة الذكية التي لم يعرف على امتداد عمره لها شبيها أو مثيلا..

كان يسمع هذا الكلام ترده العصافير في تغريد بديع شعر به ينفذ إلى أغوار قلبه وأعماق فؤاده!!

فكان يردد، وقد ذهل بالترديد عن أي مطلب آخر:

«يا رحمان يا رحيم.. يا مالك الملك.. يا محي العظام وهي رميم.. يا رب محمد،

وربنا، ورب العالمين.. يا محى العظام وهى رميم أحى موات قلبى، ورد على عقلى، وأعنى على جهاد المفسدين».

* * *

قاربت الشمس من المغيب.. وساور «جواد» خادم صرد بن عبد الله القلق على سيده.. فذهب إليه عند الربوة.. فقد كان يعلم مكان خلوته عندما يفكر فى شئ ذى أهمية.. أو عندما يريد أن يصفو ذهنه مما علق به من أكدار الحياة.. أو عندما يريد أن يستروح من عناء ما يلم بالجسد من متاعب العيش!!

كان خادمه يعلم هذا عنه، ولقد ذهب إليه عند الربوة فقط لأنه قلق عليه.. وما أن صعد الربوة حتى وجد سيده ممددا على الأرض فى ظل شجرة الطرفاء يتقلب يمينا وشمالا، والعرق يتصبب منه، وهو يردد هذا القول.. ويسمعه منه خادمه أكثر من مرة..

يتلفت صرد حوله فيهوله ما يرى.. وكأنه قادم من عوالم أخرى لا علاقة لها بهذا العالم الذى يعيشه..

الربوة.. وشجرة الطرفاء.. وشجر عنب الديب. هذه المظاهر الجاهلية مظاهر كونية ارتبطت بحياته الجاهلية.. صارت قطعة من هذه الحياة.. ومعلما من معالمها، ومأواه الذى يأوى إليه إذا ادلهمَّ الكون من حوله يراجع فيه نفسه.. ويعيد حساباته.. ويستنبط الفكر الخلاق..

لكن ما رآه مثير عجيب: الخنزير.. المارد.. قلبه الممزق وكبده الجريح.. والبستان.. ومن كان فيه، وما على رأسه من قنديل.. والصوت.. والكلام الغريب يتلفت حوله، ويتمتم. يا رب محمد، وربنا، ورب العالمين..

اقترب الخادم، ومظهر سيده لا يوحى بالاطمئنان..

ماذا؟ ما أرى سيدى إلا يهذى.. قد يكون حُمَّ..

وساعده حتى استوى على صهوة جواده.. ثم عاد فى ركابه إلى الديار.

* * *

اجتمع الأربعة مرة أخرى فى بيت صرد.. وقد باءت كل ترتيبات الغزو بالفشل

الذريع.. وحاولوا أن يجدوا مبررا واحدا ملموسا بالفشل فلم يجدوا الرجال مستعدين أو هكذا توهموا.. والإرادة قائمة.. والنية مبيتة.. وكل إمكانيات النجاح متوفرة.. لكنهم فشلوا.. لماذا؟ لا بد من شئ آخر في ضمير الغيب.. وهو ما تفسره رؤيا صرد فوق الربوة عندما أغضي في ظل شجرة الطرفاء.

لقد قلبت هذه الرؤيا أوضاعهم رأسا على عقب.. وفجرت في أذهانهم معاني عن العالم الجديد حاولوا لمسها زمنا.. وفي أعماقهم أحاسيس عن الحياة الجديدة كانوا يخفونها كبرا من أن يقال رضخوا، واستسلموا..

وبدت الرؤيا إرهاصا بحياة جديدة.. وعالم جديد.. ومن ثمَّ غدت موضوع الاجتماع.

في أول الأمر كان حوارهم يدور حول من يفك الرموز.. ويحل الطلاسم، ويكشف ماوراءها من أسرار ومخبآت..

قال شمادة:

– كاهن في دير هناك في شمال الجزيرة..

وقال أبو ظبيان:

– عراف في طريق نجد..

وقال جنادة:

– لا والله.. لا هذا ولا ذاك..

لن يفك هذه الرموز، ويحل هذه الطلاسم إلا عقل صرد نفسه!

فاستحسن صرد هذا القول، وأمَّن عليه، وهو يردد:

– هذا والله رأي له وجاهته، وأنا أميل إليه.. وكأنني أعيش هذه الرؤيا الآن واقعا ملموسا.. ولا يعالجها، ويعرف أسرارها سواي..

فقال خالد بن شمادة:

– ما زال أثر الحمى يسيطر عليه..

وقال أبو ظبيان عمير بن الحارث:

– هو فى حاجة إلى طبيب..

وقال جنادة بن مالك:

– إن طبيبه قلبه.. فأيها يفضله يكون هو الطبيب

فاستحسن صرد هذا القول وأمن عليه، وهو يردد:

– هذا قول حسن.. ولهو والله مايعتمل فى داخلى.. وتجيش به عواطفى!!

وقال خالد بن ضمادة الأزدى:

– فما ترى أنت يا صرد؟

قال صرد، وقد سرح ببصره فتخطى حدود المكان، ووقف عند صورة لمكان تبدو على البعد غير واضحة الأركان والمعالم.. صورة لمكان غير هذا المكان.. وأحسن منه.. وناس غير هؤلاء الناس وأفضل منهم..

وسرح بذهنه فتخطى حدود الزمان.. ووقف عند فكرة المعبود.. هل يمكن أن يكون المعبود من صنع العابد؟ وعلى أى أساس تقوم فكرة العبادة؟! العبادة للمعبود لأنه أفضل من العابد.. وذو أيادٍ سابقة عليه بإجراء النعمة.. أو منح الفضل والعقل والمواهب.. ومنح العمر، والرزق، والسمت الجميل.

العبادة للمعبود لأنه الخالق.. وإذا كان الإنسان هو الخالق.. هو صانع صنمه فهل يتفق أن يتحول المخلوق إلى معبود.. والخالق إلى عابد؟! هل يصنع العابد إلهه؟! أم أن المعبود هو الذى يصنع عُبَّادَه؟!

وتواردت الخواطر.. وتوالت على ذهنه الصور..

الخنزير الذى وجهه وجه صنمهم الذى يعبدون.. الإله الذى يتبدى فى هذا الشكل القبيح.. ويعدو على مخلوقه، وهو يعرف أنه ضعيف ليفترسه بدل أن يشد أزره، ويساعده على محنته.. أيكون هذا إلها؟!

وطالت سرحته.. والثلاثة صامتون..

ثم قال:

– والله لكأني مقبل على حياة غير هذه الحياة وخير منها.. ومفارق هذا العالم إلى عالم آخر أسعد منه.. وأخذ يردد:

«يا رحمان.. يا رحيم.. يا مالك الملك.. يا محي العظام وهي رميم.. يا رب محمد وربنا.. ورب العالمين.. أحي موات قلبي.. ورد على عقلي.. وأعني على جهاد المفسدين»!

فقال خالد بن ضمادة:

– والله ما شككت لحظة في أنك مرتاد لنا عالماً، تعقله أفكارنا، وتطمئن إليه أفئدتنا، وترتاح له أسماعنا، وأبصارنا.. فإن كنت وجدته فدلنا عليه.. ووالله لن تجدنا إلا صدقاً في القول والفعل.. صبراً عند الشدائد.. لا نلوى وإن انفض الجميع!!

وقال أبو ظبيان عمير بن الحارث:

– والله يا صرد، ما كنت بأكثرنا حيرة.. ولئن كنت أشجعنا في مواجهة نفسك، والإفضاء بما في داخلها.. فنحن لا نقل عنك إن لم نزد شكاً وحيرةً في كل ما تقوم عليه حياتنا التي نحياها!

وقال جنادة بن مالك:

– والله ما عقلت شيئاً مما نعبد.. ولا مما تقوم عليه حياتنا من عادات، وتقاليد.. ووالله لأنماط حياتنا التي نحياها أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية.. ولكأننا في هذه الحياة حيوانات بلا أربعة أرجل.. أو مشافر وآذان طويلة.. حيوانات تسير على قدمين..

أجسامنا أجسام بغال.. وأما أحلامنا فأحلام عصافير!!

وقال خالد بن ضمادة:

– يا صرد.. إن كنت وجدت شيئاً فدلنا عليه.. ولك فضل السبق، وفضل الدلالة، وفضل الهداية!!

فقال صرد بن عبد الله وهو يحس أنه شفي حتى غدا وكأنه روح تجوب الآفاق.. ثم تعود للصحب والرفاق بالرؤى الجديدة..

– يا إخوتي.. لقد حزمت أمري.. وما أراني مرتداً فيما سأتخذه من تدابير لتنفيذ

ما عزمت عليه.. حتى ولو بقيت وحدى!!

- يا إخوتى.. الآن حصحص الحق.. الخنزير هو إلهنا الضال.. وأنا القلب الذى سيطر عليه هذا العمر الطويل.. وكبدى أبنائى الذين قتلوا فى معارك سابقة.. والذين ما يزالون على قيد الحياة ينتظرهم مصير مجهول لا يدرون ماذا يراد لهم فيه.. والمخ هو العقل المعطل عن التفكير الصحيح.. والمارد هو مخشم.

يا إخوتى: لقد عزمت على الذهاب إلى المدينة.. إلى يثرب.. إنها بستانى الكبير.. الذى سأجد فيه ما أطلب وما أريد..

هناك محمد.. ألقاه.. وأجد فى رحابه الإيمان.. وفى ساحته الأمان هناك سأبايع بالإسلام.. سأبايع بالحياة الجديدة.. والعقل والقلب العائدين من غربتهما.

وإن كنت بعدها ملاقيا «مخشم» فورب الكعبة لن ألقاها من أجل أبى أو أخى أو ولدى من قومى، وأبناء قبيلتى.. وإنما سألقاها لله.. وفى سبيل إعلاء كلمة الله!!

فمن كان منكم مقرا بما عزمت عليه.. ويحس فى نفسه صدق النية.. وحسن العقل.. وتوفر الإرادة فليمد يده أشد عليها.

فتواثب الثلاثة.. ووضعوا أيديهم على يده.. وتعاهدوا على خلع حياتهم إلى حياة أكثر أمنا.. وعدلا.. وسلاما.. وتواعدوا على الذهاب فى وفد إلى محمد يبايعون بالإسلام عن أنفسهم، وعن قومهم!!

* * *

وصرد بن عبد الله الأزدى يستعد السفر.. يرد على خاطره أن يذهب إلى الربوة.. يجلس هناك فى ظل شجرة الطرفاء.. يشم ريح عشب النيب.. ومع الشميم يسترجع عبق الرؤيا وما فيها من جوانب عطرة.. وما لها من أثر ترتب عليه الفصل بين حياة، وحياة.. وكأنه يودع كونا بأسره.. ليستقبل كونا آخر مغايرا له فى معناه.. وفى مبناه!!

وفى زاوية من زوايا الربوة كانت المفاجأة الثانية.. كان خادمه «عواد» يبدو ساجدا..

تسلل صرد وهو يقترب منه.. باذلا الجهد كيلا يثير انتباهه.. ثم جلس القرفصاء من خلفه مرهفا السمع إلى ابتهالاته فى سجوده..

وأثار شجونه أن عوادا فى بعض ابتهالاته كان يورد اسم صرد.. ويدعو له ربه بالهداية والرشاد.

وكان صرد يقلقه بعد أن ينتهى، ويعرف أن سيده فضح سره أن يضطرب.. ويجل، إلا أن ذلك لم يحدث..

اقترب عواد من صرد فى هدوء، وسكينة تامين وقال:

– أعتقد يا سيدى أن محاولة الإخفاء غير مجدية.. فلم أعد قادرا عليها، ولا مطيقا لها.. وبودى أن تعرف الدنيا كلها أنى أسلمت.. وأن حلاوة الإيمان أقوى وأعذب من أى حلاوة فى الوجود.. وأن نور اليقين وهو يخالط القلب، والعقل.. ويمازجهما أروع، وأرقى من أى شىء فى الكون بأسره.. وأن أى تعذيب مهما بلغ من القسوة.. فلن يكون شيئا بجانب ذرة واحدة من إحساس السعادة بالهدى، وحسن المصير..

لم يدهش صرد مما رأى، ولا مما سمع.. بل لقد كان سعيدا مما يرى، ومما يسمع وصار مهيأ له.. واتخذ بشأنه قراره الذى لا نكوص عنه، ولا رجعة فيه.. لكنه تصنع الجد، وقال مخفيا ممازحته:

– منذ متى وأنت..

فقاطعه الخادم

– منذ زمن طويل ياسيدى.. وإن شئت عذبتنى.. أو أرخيت لى العنان أذهب إلى حيث سبيلى

فتصنع صرد الغضب:

– أرخى لك العنان لتفسد فى الأرض؟! لأعذبنك عذابا شديدا أو لأذبحنك.. أو

فأجاب الخادم فى ثبات:

– أو ماذا يا سيدى؟!

– أو لتقولن لى ما الذى أوصلك إلى هذا؟! وهل فى القبيلة مثلك؟!

– لأمتثلن لك ياسيدى فى جانب مما طلبت..

نعم فى القبيلة الكثير، والكثير مثلى.. دلونى على الخير.. وعلمونى كيف أكون مسلما وعلمونى الصلاة – وهى مارأيت – وعلمونى كيف أدعو ربى، وأنا ألتقى به.. ولقد دعوته كثيرا أن يهديك.. ويرشدك إلى الطريق الصحيح.. طريق الحق، والخير.. طريق الإسلام..

أما الجانب الآخر، وهو: من بالتصيد.. فاسمح لى ياسيدى، ولأول مرة أن أعصيك!!

– وإن عذبتك؟

– وإذا ذبحتنى كما قلت فلن تسمع منى اسما واحدا.. وستدهش إذا قلت لك سوف استعذب آلام الذبح.. فإنى أراه تكفيرا عما مضى من عصيان فى حياة الجاهلية..

فصمت صرد قليلا كأنه يفكر.. فاطمع هذا الصمت خادمه.. وجعل يتوسل إليه توسل المحب يخشى على محبوبه من مصير يراه أليما.. وقال:

– لقد دعوت إليك الله.. ولأنت أولى بالحياة الجديدة.. ولأنت أولى بغفران ربى.

أرجوك يا سيدى.. فرصيدك من المكارم لا يُعَادل برصيد.. فاختم عليه بالإيمان.. اختم عليه بالإسلام..

فوالله ما طعمت حلاوة مثل حلاوته.. ولا أحسست سعادة مثل سعادته.. ولا شعرت بأمن، ولاسلام مثل أمنه، وسلامه!!

فابتسم صرد وقال:

– وإذا قلت إنه قد حدث.. وإنى أود مكافأتك على ما فعلت!

فارتبك الخادم.. وانعقد لسانه.. ولمعت عيناه ببريق الفرح، والعبور..

فأردف صرد:

– وإذا قلت لك إننى ذاهب منذ اللحظة فى وفد إلى محمد بالمدينة نبايع بالإسلام.

فتهلل وجه الخادم، وزالت ربكته.. وانحلت عقدة لسانه، وقال:

– إذن تعدنى أن أختار بنفسى ماوعدتنى من مكافأة!!

– بحق الله لن أنكص عن وعد وعدته.. فاختر هذه المكافأة!

– أذهب معك.. أكون في خدمتك لأصل إلى رسول الله ﷺ أراه.. أملّى العين من محاسنه.. والأذن من عذب صوته، وحديثه.. والقلب من نور هداه.. والعقل من صدق دعوته، وخالص توجهه!!

وانكفأ على سيده يقبل وجهه، وكتفه.. ويديه.. في امتنان بلا حدود.

فسرح صرد ببصره بعيدا.. وكأنه يلاحق ذهنه الذي بعد أكثر في محاولة لتخطى الحواجز والسدود والموانع استشرافا للمستقبل الذي ينتظره.. ثم قال:

ستكون رفيقي ياعواد.. فعد للديار، وأعد الراحلة.. وجهز الزاد للرحلة الميمونة..

وجاشت عواطف الخادم.. وانهمرت عبراته صدًى للخبر..

وقبل أن ينصرف سمع من سيده قوله:

– لا عليك يا عواد إذا أذعت هذا الخبر في القوم.. واعلم أنه لو اجتمعت الدنيا كلها على أن تحول بيني، وبين ما عزمت عليه، فسوف لا تقدر.. ولو حدث فلن يكون بيني وبينها حكم إلا الحسام.. وأظنه في اشتياق لأن يُسل من غمده الذي طال فيه رقاده.. اذهب يا عواد ميمونا.. تصحبك السلامة.

* * *

لم يكن صرد يعبأ كثيرا برفض الرافضين من المعاندين.. فهم آتون حتما للنور.. المسألة مسألة وقت.. ولسوف يأتون.. إنما كان اهتمامه.. وغاية امتنانه بالذين أيدوا وتوافدوا على داره في مظاهرة ما كان أروعها وهي تتواصل، وتمتد حتى تودعه، وتصحبه وهم يفصلون عن الديار في رحلة ما أحبها من رحلة إلى النفس، والقلب، والعقل!!

رحلة ليست كأي رحلة من هاتيك الرحلات الكثيرة التي شرق فيها وغرب.. رحلة هيام للقلب.. ويقين للعقل.. رحلة هدى ونور.. تجلت فيها سبحات روحية كان يغرق في نبع سعادتها، ونعيم اتصالها.. ويعب من كأسها المترعة حتى الثمالة!!

ولو أوتي مجامع الكلم.. فلن يستطيع التعبير عن عظيم ما أحاطه، ويحيطه من بهاء وجلال وهو يقترب من صاحب الدعوة.. ومدينته التي باتت مزارا للرواد من المتقين، وملاذ المُؤَمِّلِين في نصر الله، ورضاه.. ومهبط الصالحين الذين نذروا أرواحهم، وأنفسهم في سبيل نصرة دين الله..

.. ماهذا الذى يعتريه، وهو يقترب من المدينة؟!

إنه صفاء لم يعشه لحظة واحدة في عمره المديد فيما مضى.. خال معه نفسه وروحه، وعقله، وقلبه تصل إلى السماوات العلا، وتدرك بلا تجسيد مهبط الوحي، وتحس عظمة الخالق المبدع فيما خلق، ويتبخر في هذا الصفاء كل أثر للحقد أو الموجدة، ولا يبقى إلا الغيرة على محمد، ودين محمد.. والحب الشديد له، ولإلهه الذى بعثه بالحق، والصدق..

لم يبق إلا الود يبذل بلا مَنٍّ ولا رياء!!

لم يكن طوال الرحلة يحس بما حوله أو بمن حوله ممن معه.. وغفل حتى عن نفسه، وما كان يتداركه بالطعام أو الشراب إلا خادمه عواد الذى كان يرعاه، ويشعر تجاهه بمسئوليته هى مسئولية الأمين فيما اؤتمن عليه.. المحب الصادق فى حبه.. وقد علمه دينه.. علمه إسلامه أنه عندما يحب لا يحب إلا الله.. وتنتقل العدوى لمسرد.. فيجد نفسه يحب..

لكن ماذا يحب؟! لا يدرى.. إنه يحب.. وكفى.. حتى غدا حبا صرفا.. حبا حقا، وصدقا!!

* * *

ويصير الوفد على مشارف المدينة.. وتعلو وجوه الجميع مسحة من رواء.. من فرط بهائها تتأبى على وصف الواصف مهما بلغ من دقة الصف.. وبلاغة القول فيه!!

وتسيطر على القلوب مسحة من سماحة.. من فرط جمالها تجعلهم يودون لو يعانقون الإنسان، والجماد يصادفهم فى طريقهم إلى المدينة.. وتسيطر على العقول مسحة من يقين من فرط جلالها تجعلهم يستعظمون ما بقى من الطريق، ولم يبق منه شىء ذو بال أو أهمية ليحتضنوا محمدا بأنفسهم وأرواحهم، وقلوبهم، وعقولهم.. ويذرفون الدمع على ما بدر منهم ومن أقوامهم، ويعتذرون مر الاعتذار على أن تأخروا هذا الزمن الطويل.. وما كان لهم أن يطيعوا الشيطان.. ويصادقوا الباطل.. ويعصوا الله، ولا يصدقوا الرسول!!

ويقترب الوافدون بعضهم من بعض، فلا يكون حديث إلا عن محمد.. ويبتعد

الواقفون بعضهم عن بعض، فلا يكون هيام إلا في محمد!!

«الله.. ماأعظمك!! يا محمد».

وتخضل الأجفان.. وتبتل العيون.. وينبض الشوق في النفوس.. ويهيم الحب في القلوب.. ويعجلهم اللقاء إلى اللقاء.. فيهرعون فور دخولهم المدينة إلى مسجد رسول الله ليرووا الظمأ بلقياه.. ويملأوا العين بمرآه.. ويشنفوا الآذان بعذب حديثه، ويرطبوا القلوب بحلو الإيمان ينهلونه من مصدره الفياض، ونبعه الصافي!!

ويسبح الرسول ﷺ بحمد ربه.. ويستغفره، وهو يتلقاهم بالنور يسري في القلوب فترى ما لا تراه العيون.. ويدرك ما لا تدركه الأسماع، ولا يستطيع صرد أن يتمالك نفسه فيسمعه القوم يصيح، وقد شرق بدمع غزير ذرفته عيناه..

«أتيتُ إليك يا حبيب الله.. فاقبل أوبتي.. وسل ربك الرحمن يقبل توبتي.. وخذ بيد سيدي يشرح الله صدره».

.. في المسجد يستقبلهم نبي الرحمة.. ويرى صرد بعين البصيرة ما لا تدركه الأبصار.. ويكاد يهتف:

– سامحني يا رسول الله.. تأخرت زمنا ليس باليسير.. حرمت فيه ما لا يعوض إلى يوم الدين.. جئت اليوم تائبا عن ذنوبي.. مبايعا عن نفسي وقومي بالإسلام وأرجو أن تدعو الله لي يقبل توبتي!.

ويسمع صرد بقلبه ما لا يسمع بأذنه.. يسمع ما يزيل الرهبة والخوف.. يسمع ما يقرب الرجاء ويحيي الأمل في عفو الله ورضاه.. يسمع كأن الرسول يقول قولا يُذهب الخوف من قلبه، ويطمئنه إلى حاضره، ومستقبله، وحاضر ومستقبل أهله وقومه.. كأن الرسول يقول: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»!

فيهتف في نفسه:

– بشرى.. بشرى.. وما أراني أكتفي بهذا..

فيسمع كأن قرآنا يُتلى عليه:

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس.. تأمرون بالمعروف.. وتنهون عن المنكر ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فيجد صرد نفسه يهتف:

- «وإن أقبل يا نبي الرحمة دون ذلك أبدا.. ولسوف آمُر بالمعروف، وأنهى عن المنكر وأجاهد في سبيل الله».

وتشرق الوجوه بنور الرحمة والرسول الكريم يتجلى عليهم.. وتصفو النفوس صفاء غير مسبوق بنظير والرسول يلاطفهم، ويمازحهم، وهو يمازحهم لا يقول إلا جدا..

وتحن الأرواح إلى خالقها.. والرسول الكريم يحدثهم عن خالق الأرواح، ومبدع الكائنات وما له من حق الطاعة.. وحق الفرائض على عِبَادِه.. حق الشهادة بأن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.. وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا..

وتستقيم العقول، وميزان العدل.. والرسول يحدثهم عن المساواة بين الناس.. فلا تفاخر، ولا تعالى.. ولا سيادة لأحد على أحد.. الكل أمام الله سواء.. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.. الميزان الجديد: التقوى، والعمل الصالح.

وتهفو القلوب إلى الرحمة والرسول يحدثهم عن الحلال والحرام.. المسلم على المسلم حرام دمه.. وماله.. وعرضه

ولا يشبعون من حديث الرسول.

ويسأل خالد بن ضماد الأزدي الرسول ﷺ كتابا، فيعطيه الرسول مايطلب:

«لخالد بن ضماد الأزدي: إن له ما أسلم عليه من أرضه على أن يؤمن بالله لا شريك له، ويشهد أن محمدا عبده ورسوله، وعلى أن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم شهر رمضان، ويحج البيت، ولا يؤوي محدثا، ولا يرتاب، وعلى أن ينصح لله ولرسوله، وعلى أن يحب أحباء الله، ويبغض أعداء الله.. وعلى محمد النبي أن يمنع منه نفسه وماله وأهله، وأن لخالد الأزدي ذمة الله، وذمة النبي إنْ وفى»(١)

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية

وسأل أبو ظبيان الأزدى رسول الله ﷺ كتابا مثل كتاب خالد، فكتب النبى صلى الله عليه وسلم، كتابا له.. أبو ظبيان عمر بن الحارث الأزدى :(١)

«أما بعد: فمن أسلم من غامد فله ما للمسلم.. حرم ماله، ودمه، ولا يعشر، ولا يحشر وله ما أسلم عليه من أرضه».

وسئل الرسول عن الثمار في الشجر فذكر أن للجائع الحق فى أن يكفى حاجته دون أن يأخذ معه شيئا، وإذا أخذ ثمارا فيغرم ضعفها، ويعاقب، وإذا سرق تقطع يده».

ويجد جنادة رغبة فى نفسه لأن يحصل على كتاب مثل رفيقيه، فيمنحه الرسول ما يرغب ويعطيه كتابه الذى يشتمل على الآتى:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لجنادة الأزدى وقومه، ومن تبعه، ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا من المغانم خمس الله وسهم النبى صلى الله عليه وسلم، وفارقوا المشركين، فإن لهم ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله».

وتقدم وفد بارق وهم جماعة من الأزد مثلوا فى وفدها الكبير، وقبلوا الإسلام وطلبوا من النبى ﷺ كتابا يضمن لهم حقوقهم فى الزرع، والمرعى، ويستجيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعطيهم كتابهم على النمط التالى:

«هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق:

ألا تجذ ثمارهم، وأن لا ترعى بلادهم فى مربع، ولا مصيف إلا بمسألة من بارق ومن مربهم من المسلمين فى عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام، فإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتثم»

* * *

وقد استراحت القلوب، واطمأنت النفوس.. وتلفت القوم إلى صرد كأنهم يستحثونه على أن يطلب من الرسول ﷺ ماطلبوا.. والرسول لا يبخل على أحد أو جماعة..

لكن صرد لم يسأل الرسول ماسألوا..

(١) المصدر السابق وأبو داود

كانت له رغبة واحدة.. أحسها رسول الله ﷺ بقلبه.. كما أدرك ببصيرته ماسوف يئول إليه أمره وما سينتهي إليه.. ومصيره.. وما سيترتب على مواقفه وتحركاته من خير للدعوة والمسلمين في كل مكان.. وهذا ليس بغريب على من قال فيه ربه ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾. [النجم: ٣ ، ٤]

ومن قبل حَدَّث عدي بن حاتم عندما لقي رسول الله ﷺ وسمع منه ما سمع.. قال عدي عنه: «إنه يعلم ما يُجْهَل»

لم يسأل صرد رسول الله كتابا.. وإنما كان يود لو يقبله ربه في المجاهدين في سبيله، ويتمنى لو يحقق له الرسول الكريم هذه الأمنية، ويأذن في مجاهدة الكافرين!!

ويستجيب الله سبحانه.. ويقبل صرد مجاهدا في سبيله، وذلك عندما يحقق له الرسول ﷺ أمنيته..

.. فقبل أن ينصرف وفد الأزد الكبير عن المدينة قافلا إلى الديار.. وفي آخر لقاء مع النبي يُؤَمِّرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم صرد بن عبد الله على من أسلم من قومه.. ثم يأمره بأن يجاهد بمن سلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن.

وتكتمل الفرحة في نفس وقلب صرد.. وخادمه هواد.

ولكن هواد يستأذنه في أن يبقى في مدينة النور بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على خدمته ما بقي فيه عرق ينبض.

وأذن له صرد.. وأكثر من هذا.. فلقد طلب من خادمه أن يسامحه، وأن يعفو عنه فيما بدر منه طوال فترة قيامه بخدمته، وأن يذكره في حضرة الرسول الكريم بالدعاء له.. وأوصاه ألا يغفل عن هذا الطلب فإن أحداثا جسيمة تنتظره هناك، وإن وعودا ضخمة قطعها على نفسه، ورجا الله أن يعينه على الوفاء بها!!

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾. [الأحزاب: ٢٣]

ولقد صدق صرد فيما عاهد الله عليه، وبر بما وعد فيه... وقاتل المشركين، وعبدة الأصنام.. عبدة الطاغوت.. وجاهد «خثعم» في الله جهادا مريرا، وأذاقها مر كأس

باطلها.. وما زال بها حتى ذهبت عنها غشاوة الضلال.. وانقشعت عنها سكائب الكفر.. وآبت إلى حظيرة الرحمن، ووفدت على المدينة، وقد شرح الله صدرها، وبايعت، وحصلت من الرسول ﷺ على كتاب أمانها، وهتافها:

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا* فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ [سورة النصر]

عائد من الغربة!!

عدى بن حاتم الطائى

لا يدرى أحد فى قومه ما الذى جعله فى الأيام الأخيرة لا يهدأ له بال.. أو يستقر له قرار!!

فهو لا يحدث أحدا فى قومه إلا علا بصوته عليه حد الصياح.. ونهره.. وسفهه.. وربما سبه.. ثم يشيح بوجهه عنه، وينصرف محنقا مغيظا، ضائق الصدر مكلوم الفؤاد.. فما الذى يحنقه هذا الحنق حتى جعله يغير طبيعته هذا التغيير المخيف!؟

يعرف الجميع أن عدى بن حاتم لم يكن يحنق على أحد فى الدنيا قدر ما كان يحنق على محمد بن عبد الله فى المدينة.

فمنذ بعث الله محمدا نبيا ورسولا، وهو لا يطيقه: يكرهه.. ويحقد عليه، ويكيد له فى الغدوة، والروحة، فى الصباح وفى المساء ويؤلب عليه الناس الآخرين.. مشاركا فى حملات الشك، والتشكيك، فى البوادى، والحواضر.. بل ومشاركا برجاله، وسلاحه فى أى عدوان عليه، وعلى المسلمين فى أى مكان.

لماذا يكره عدى محمدا هذا الكره الشديد؟ ويحقد عليه هذا الحقد الأسود المريع!؟

وماذا فعل محمد حتى يستحق منه هذا العداء السافر المر له، ولجماعة المسلمين!؟

كان عدى بن حاتم شريفا فى قومه من قبيلة طيئ.. وكان بينهم محل إعجاب، وتقدير، ولقد بلغ من إكبار قومه له أن جعلوه عليهم ملكا.. فكان يعيش فيهم بالمرباع[1] على عادة الجاهليين.. فيأخذ منهم ربع ما يغنمون... يقتطعون له وحده ربع ما عندهم، والقوم جميعهم الباقى.

وكان يعيش عيشة جاهلية، وإن كان يدعى أنه لا يدين دين قومه زاعما أن دينه دين نصارى أهل الشام، وكان لقومه صنم يعبدونه يطلقون عليه اسم «فلس» هو معبودهم الذى يدينون له، ويقدمون له القرابين، وينذرون له النذور..

وحقيقة أمره أنه ما كان يدين بدين الصابئين، ولا كان يدين بدين النصارى.. كان

---

(١) ابن هشام جـ٧، نشأة الدولة الإسلامية

ركوسيا(١) كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.. لكن تحكُّم حياته مع قومه عادات وتقاليد الجاهلية في كل الأمور الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

فهي حياة الإغارة.. والسلب.. والنهب!!

وهي حياة الخمر.. والميسر.. والربا!!

وهي حياة الشرك وعبادة الأصنام، والأوثان!!

وهي حياة الامتيازات الطبقية دون مبرر.. للقوي فيها الغلب.. وللغني فيها السيطرة والتحكم وللسيد فيها الاستعلاء، والتعالي.. حياة الفوضى البعيدة عن كل منطق، وعقل راجح، وفكر سديد.

حياة ليس للإنسان فيها من الإنسان أو الآدمي إلا شكله.. أما عقله.. وأما روحه فشيء آخر.. هكذا كان عدي مع قومه.. وكان قومه معه..

أما محمد فكان يقيم في المدينة بعد هجرته إليها من مكة.. وكان منذ بعثه الله نبيا ورسولا.. لا يفتأ بنشر دعوته، وبث عقيدته بين الأنام في كل مكان دون كلل أو ملل، ولا تثنيه عن دعوته أية عوائق أو تمنعه أية موانع!!

وعماد دعوة محمد التي أهالت عليه حجارة الجبال.. وقوام حياته وحياة الدنيا كلها معه أن المعبود الذي يدعو له واحد.. هو الأول وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، وهو على كل شيء قدير.. ومن ثَمَّ تنتفي معه حياة الشرك والكفر المتمثلة في عبادة الأصنام والأوثان!!

ودعوة محمد ترفض الإغارة على الآمنين، كما ترفض السلب، والنهب، والخمر، والميسر، والربا، وتجعلها أشياء محرمة تحريما قطعيا!!

ودعوة محمد تقنن القوانين.. وتسن التشريعات التي بمقتضاها لا تكون الحياة للأقوياء.. أو الأغنياء.. أو من يدعون السيادة فحسب، لكن لتكون الحياة للجميع بالحق والعدل..

ودعوة محمد تعيد للإنسان روح الإنسان وعقله، وقلبه، وتجعله يشعر أنه آدمي حقا

---

(١) ابن هشام جـ٢

إنسان محضا.

ودعوة محمد لا تمايز فيها لفرد على لفرد، ولا لجماعة على جماعة.. ولا لجنس على جنس إلا بالتقوى والعمل الصالح.

مفاهيم جديدة تتسق مع الطبيعة الإنسانية الأصيلة، والفطرة الصافية السليمة، والعقل الواعى المستنير.. ولا يرفضها إلا معاند مكابر!!

ابتدأ محمد دعوته، ورقعة الكفر متسعة فسيحة.. يستولى الكافرون فيها على كل مقدرات الحياة فى الجزيرة.. ورقعة الإسلام ضيقة محدودة، وليس فيها القلة من المسلمين من مقدرات الحياة إلا مايقيم الأود.. ويكسو البدن.. لكن محمدا بصبره، وخالص توجهه، وصدق دعوته جعل الحال يتغير، والخريطة تتبدل خطوطها ومعالمها، فتتسع باطراد رقعة الإسلام.. وتضيق رقعة الكفر..

* * *

كان عدى بن حاتم أول أمره بالدعوة بعيدا عن مصدرها، وكان ما يزال داخل رقعة الكفر المتسعة.. ولكن الدعوة سواء فى مكة، أو بعد أن انتقلت إلى المدينة تفزعه.. وكان أهم ما ترتب على هذه الدعوة وعى الإنسان، وإدراكه لحقيقة أمره، فى الكون والحياة، وتجرده من جموده وتحرره من إساره، وتحطيمه لأغلاله، وأصنامه، وسعيه الدائب لإزالة الحياة الجاهلية بأسرها، واستبدالها بحياة الإسلام.. وانتشاره.. وحينئذ لن يكون ثمة عدى ولا أمثاله.. وإن بقى فسيكون عديا آخر مختلفا كل الاختلاف عنه فى السابق.. ولو فتشنا فى أعماق عدى لنعرف سر هذا الكره الدفين لمحمد وسر رفضه قبول الإسلام وتحريضه الناس، وتأليبهم عليه فلا نجد إلا أن الدعوة ستسلبه امتيازاته الجاهلية، وهى كلها ماديات توفر له لونا من ألوان الترف، والرفاهية فى الحياة!! فضلا عن فقدان السيادة التى أوجبها له قومه، والتى بمقتضاها يمنح حق التحكم فيهم، وضمان ولائهم، وطاعتهم.

فلو استسلم عدى للإسلام فستنتهى تبعا لذلك كل هذه الامتيازات الجاهلية.. ولو وعى قومه سيتمردون عليه.. وسينتهى كل ما بينه وبينهم.. فإن كان ثمة علاقة فسوف تكون جديدة تحكمها المفاهيم الجديدة للحياة الإسلامية فى ظل مبدأ «الناس سواسية

كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، ذلك المبدأ الذي يحرص الرسول ﷺ على تعميمه بين الناس كمبدأ إسلامي يناهض مبدأ التمايز الجاهلي الذي يفرق بين الناس بحسب العقيدة، والجنس، واللون، والنسب، والجاه، والثروة، والسلطان، والسيادة!!

* * *

ونظرة بسيطة إلى واقع المسلمين في المدينة أو مكة أو في أي مكان على الأرض العربية، وإلى حياة المسلمين في ظل الدعوة، وما حقق لهم من تحرر فكري، وما ترتب على هذا التحرر من استقرار وهدوء بال، وراحة وجدان، وطمأنينة ضمير، وسلام مع النفس، غدا به الجميع أخوة متآلفين.. متوادين.. يعاون بعضهم بعضا، ويعطف بعضهم على بعض.. ويشد بعضهم أزر بعض.. متجافين عن الإثم والعدوان.. ومن ثَمَّ صاروا قوة فرضت نفسها، ولا تهزم أبداً!!

نظرة بسيطة إلى واقع المسلمين مقارنا بواقع المشركين أو من لا يزالون على شركهم، ومن لا يزالون على جاهليتهم، يعيشون في ظل عاداتها، وتقاليدها ونظامها الذي يفتقد إلى النظام، وقانونها الذي خلا من أي قانون.. يدرك المرء الفرق الكبير، والبون الشاسع بين ناس وناس، وبين حياة وحياة، مما جعل العقلاء، أو من يحاولون استعمال عقولهم الاستعمال الأمثل، ومن يُحكِّمون فطرتهم السليمة.. والمقهورين والمستذلين.. والعبيد.. جعل هؤلاء وهؤلاء ينسلون من بين جموع الجاهليين.. تاركين حياة الكفر والشرك معلنين إسلامهم.. ذاهبين إلى المدينة أو أي مكان آخر يأمنون فيه على أنفسهم.. معاهدين على نبذ الشرك في أي مكان أو موقع متى قدروا على ذلك!

* * *

وتزداد كراهية عدى للنبي ﷺ والمجتمع الجديد يزحف بتشريعاته رفيعة المستوى، وعاداته الصحيحة السليمة فيكتسح المجتمع القديم، ويقوض أركانه، ويقضي عليه باطراد، وعلى ما كان له من أثر أملا في تحطيمه، وإزالته من الوجود نهائيا.. ومن ثم تزداد اتساع رقعة الإسلام.. وتنكمش رقعة الكفر..

تزداد كراهية عدى للنبي ﷺ وهو ينظر فيجد مستقبله في ظل الشرك يوشك على

الضياع.. وامتيازاته في ظل الكفر مهددة بالانهيار..

وبدلا من أن يُعْمِل عقله كسيد، وكزعيم تملى عليه أصول الزعامة والسيادة أن يكون رائدا لنفسه ولقومه.. أغلق عقله، وقلبه من دون الله، وصد نفسه أو صدته نفسه عن دعوة الحق، وناصبها، وناصب صاحبها العداء وكان كما حدث عن ذلك بنفسه: «كنت في نفسي على دين.. وكنت ملكا في قومي، فلما سمعت بالرسول كرهته(١)».

وجهر بالرفض، وحرض قومه على عدم الانصياع.. والإذعان.. بل وحرض على محمد وألب عليه، واشترك هو وقومه على من كانوا يناوئونه، ويحاربونه حتى لقد أصبح مصدر قلق، واضطراب، وإزعاج للدعوة ، ولصاحب الدعوة، ولعموم المسلمين في هذه المنطقة من الأرض، ولم تفلح معه وسيلة.. أية وسيلة لإيقافه، وإبعاد أذاه، وأذى قومه فكان لابد من تأديبه، ومن أطاع الشيطان من قومه، واعتدوا على المسلمين!!

* * *

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد صبر على عدي وقومه من طيئ كثيرا رجاء أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودا إلى صوابهم أو يعود إليهم صوابهم.. ويحكموا العقل ويتبصروا في أمرهم، ويتفهموا الأمور، ويدركوا أن الزمن تغير، وأن الأرض دارت دورتها، وأن الواقع يتنكر لهذه الحياة التي يحيونها بعد أن غدت بغيضة.. مبغضة لا تتمشى مع منطق أو عقل، أو أية فطرة سليمة فطر الله العباد عليها!!

صبر الرسول ﷺ على عدي، وقومه متمنيا أن يشرح الله صدرهم للإسلام فيقبلوه، ويقبلوا عليه ينهلون من مورده العذب الصافي.. ويبغضهم في الكفر فيعرضوا عنه، ويفروا منه، ويتخلصوا من كدره، وطينه، وأوحاله، ودنسه!!

صبر الرسول ﷺ على عدي وقومه، عسى أن يكفوا عن وضع العراقيل في طريق الدعوة، وأن يمتنعوا عن تحريض المشركين، وتأليبهم عليه، وعلى أصحابه، وأن يتراجعوا عن إيذاء المسلمين..

والرسول لا يرغم أحدا على الإسلام، ولا يقهر عليه، فهو يمتثل لأمر ربه في الالتزام

---

(١) الطبري

بتعاليمه في آداب الدعوة: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل:١٢٥]

لكن الموادعة والمسالمة والخلق الطيب تغرى بصاحبها أحيانا، وهو ما حدث في موقف عدى بن حاتم الطائي الذي ظن الحسنى ضعفا.. والصبر قلة حيلة.. وعدم رد العدوان اعترافا له بالسيادة.. وتسليما له بأن يفعل ما يريد.

فكلما كان الرسول ﷺ يوادعهم، ويسالمهم، ويدعوهم بالحكمة، والموعظة الحسنة.. كانوا يعصون، ويتمادون في الشرك.. والكفر.. ويتسافهون على النبي، ويتجاوزون السفاهة والفحش في القول إلى الاشتراك مع الآخرين والتهجم والإيذاء.. بل والحرب وإراقة الدماء.. ويسمح الله لرسوله.. ويبيح له الرد.. ويحل له وقف المعتدى وكبح جماحه، وإزالة عدوانه ووقف أذاه: ﴿فمن اعتدى عليكم، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة:١٩٤]

ويكلف الرسول صلى الله عليه وسلم بطلا من أبطاله.. وفارسا من فرسان الدعوة، في مختلف مجالاتها: الدينية والعسكرية..

يكلف على بن أبى طالب بإعداد جيش.. والتوجه به إلى قبيلة طيئ لتأديبها، وتأديب ملكها، وزعيمها عدى بن حاتم.

ويصدع عليٌّ بالأمر.. ويعد جيشه، ويذهب لطيئ.. وزعيمها المغرور، ومعه رجال ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ [الفتح: ٢٩]

رجال أشداء بإيمانهم.. أقوياء بعقيدتهم.. هم مائة وخمسون رجلا لكنهم، واثقون من أنهم الأعلون، وأن من شقوا عصا الطاعة، وخرجوا على الجماعة، وباءوا بإثمهم وعدوانهم، وخسروا بجاهليتهم هم الأدنون!!

ويحس عدى باهتزاز الأرض من تحت قدميه.. وهو قبل غيره يدرك في أعماقه حقيقة أمره.. وأن الأرض لم تكن في يوم ما أبدا تحت قدميه صلبة إذ كان في أعماقه لا يرى في دعوة محمد ما يعاب.. وأن ما يباعد بينه وبين هذه الدعوة ليس ما جاء فيها كما يزعم الجاهليون.. لأن ما جاء فيها يحفظ الحرمات، ويصون الأعراض، ويحمى

الملكيات ولا يقر عبادة الشرك والأوثان، والأصنام!!

ما كان يباعد بين عدى، وبين الدعوة حقيقة ما اشتملت عليه، فقد كان فى أعماقه يدرك أن ما جاء به محمد حق، وصدق.. إنما كان يباعد بينه وبينها ماترتب عليها من أثر، وهو خوفه من أن يحرم مما امتاز به، وما أتيح له فى ظل الشرك من زخرف الدنيا، ومتاعها المادى!!

إنما كان يباعد بينه وبينها أنها تنزل الناس منازلهم الحقيقية من أنفسهم ومن غيرهم، ومن الكون كله بقدر منزلتهم من الخالق جل جلاله.. وسيحرمه هذا من الشأن.. والسلطان، وسيعصف بكل ما له على قومه من هيمنة، ومن سلطان.. وسوف لا تبقى له إلا شيئا واحدا يتميز به إن أراد، وهو التقوى والعمل الصالح.. ميزان القرب أو البعد من الله..

ومنذ ناصب محمدا العداء، وهو يوهم نفسه بالقوة.. ويحاول أن يعمق لدى الناس من حوله هذا الوهم على أنه حقيقة.. ويؤكد ذلك بكثرة عدوانه على المسلمين، وإظهار بغضه لمحمد، وكراهته، مستغلا سماحة الرسول، وكرم قلبه..

كان عدى فى قرارة نفسه يشعر بضعفه.. وكان يرتجف وجلا عندما يتصور محمدا يتخذ منه موقف المؤدِّب.. لأنه يثق تمام الثقة أن محمدا قادر وبكل المقاييس على تضييق الخناق عليه لو أراد، والإمساك به وعدم إفلاته.. بل والإجهاز عليه فى أية لحظة من اللحظات وفى أي مكان من الأمكنة!!

وبدا له فى الأيام الأخيرة أن محمدا يعد للفتك به، والإجهاز على شركه وأذاه، وقومه، ومن ثُم فقد توازنه، وامتلأ قلبه بالرعب، وصار لا هم له إلا ملاحقة أخبار خيل محمد.. فيتوهمها مرة فى جنوبه، وأخرى فى شماله.. أو تتحرك شرقه أو تسير غربه!!

وأخذ يَفْرَقُ الفَرَقَ، ويستولى عليه الهلع، وهو يوقن أن يوم الحساب قريب وأن محمدا لن يفلته.. وهو لابد آخذ بناصيته، وناصية قومه.. ولن يعصمه منه أحد، وبخاصة أن حلفاء السوء تابوا، وأنابوا، وأخذت وفودهم تتوالى على المدينة مذعنة، مبايعة بالإسلام.

استبد بعدى خوف أذله من نفسه، وأنساه مركزه، وفى غمرة شعوره بالأسى

والحزن للمصير الذى ينتظره فكر بطريقة عشوائية على عادته الجاهلية.. ونادى غلاما له عربيا كان يعمل عنده راعيا..

وحضر الغلام مفزعا:

– لبيك سيدى..

فقال وهو ذاهل عن نفسه:

– بل قل القطران عليك ياسيدى..

فوجم الغلام.. وألجمته المفاجأة.. فما هكذا يكون كلام الملوك، وما هكذا يكون مظهرهم.. فلم ير أبهة، ولا خيلاء.. بل رأى تخاذلا، وانكسارا يشوبه إحساس بالعجز والمرار.. فسأل بعد لأى:

– ما بال سيدى؟!

فأشاح بوجهه عنه، وأشار بيديه إشارات غير مفهومة.. ثم قال:

– اقدم يا غلام.. واستمع إلىَّ جيدا.. ولا تخبر أحدا بما سوف أطلبه منك... وسكت قليلا، ونظر إلى غلامه نظرات غير مستقرة:

– ما أرانى بعد قليل إلا مكبلا بسلاسل.. أساق سوق العبيد إلى محمد.. وإنى والله تارك الديار.. مباعد ما بينى، وبينها، فلا يصل إلىَّ محمد أبدا!!

يا غلام.. أعدَّ لى مجموعة من الجمال السمان القوية.. واجعلها فى متناول يدى عند طلبها.. وأعدَّ راحلتين لى ولأهلى وأولادى.. وجهزهما بكل ما تحتاج إليه لسفر طويل.. وتلمس أخبار خيل محمد.. وما أراها إلا قريبة.. فإن وجدتها فأنذرنى بأسرع ما تستطيع..

وقبل أن يجيب الغلام بشىء، والدهشة والحيرة تعقدان لسانه مما يسمع، ومما يرى برزت من جانب الدار أخت عدى.. سفانة بنت حاتم الطائى.. الباقية من أولاد حاتم، وهى أشد حيرة، وأكثر دهشة من الغلام، وحاولت السيطرة على نفسها وهى تسأل أخاها الملك الهارب عن حقيقة ما تسمع وترى:

– لِمَ تعد الجمال يا أخى وتجعلها قريبة منك، وفى متناول يدك!! أالضيفان يطرقون

بيتنا أم تراك تريد بيعها؟.. وماحاجةٌ بك إلى بيعها؟!

ولِمَ تعد الراحلة لك، ولأهلك وولدك.. تراك ذاهبا فى رحلة صيد.. إن كان كذلك فلم تصحب معك جِمالك؟!

كانت سفانة تدرك- أمر أخيها، وتعرف سره، وكانت الوحيدة القادرة على تفسير التغير الذى حدث له فى الأيام الأخيرة.. لكنها ما كانت تتصور أبدا أن يهرب.. هذا الأخ الملك؟!

وارتبك لظهور أخته المفاجئ ولم يستطع أن يخفى الحقيقة.. وإن أخفاها على الدنيا كلها فلم يقدر على إخفائها عن أخته..

– ما أرى محمد إلا قريبا.. وإن هو وحق الإله إلا قاصدى.. وما أشك فى اقتراب منيتى إن بقيت!!

فقالت فى عجب واستنكار شديدين:

– أشم ربحا لم تكن يوما فى آل حاتم.. أتعد للهرب يا أخى؟!

– وما الذى يبقينى؟!

– قومك.. وأهلك.. وولدك..

– قومى يتدبرون أمرهم.. أما أهلى وولدى فسأحملهم، وسأذهب بعيدا.. بعيدا.. إلى الشام مع أهل دينى.

فى سخرية وتحد:

– ومنذ متى كان لك دين؟! وإن أبيت إلا الرحيل فأعِدَّ لى راحلة تحملنى معك على إلى الشام!!

ففاجأها بما كاد يصعقها.. أو يصيبها بالشلل التام:

– بل ستبقين هنا.. ستبقين مع كل القوم هنا..

– أوتهذى يا أخى الملك من حمى أصابتك.. أم أنك أفرطت فى الشراب؟!

– لا هذا ولا ذاك.. هذا قرار اتخذته..

– إنه قرار خاطئ .. أن تترك قومك، وتتركني.. هذا قرار خاطئ !!

فسكت ولم يرد.

فأردفت:

– أولا تخشى عليّ إذا هجمت خيل محمد، وأصابتني فيمن أصابت!؟

فصمت ولم يرد:

فأردفت:

– أوتترك عرضك.. وشرفك!؟

فأحجم ولم يرد..

فأردفت:

– أولستُ عرضك!؟ أولست شرفك!؟

فتبلد ولم يرد:

فأردفت:

– إذن فاذهب.. لا كُسيت ، ولا أُطعمت.. وليتولاني إلاله «فلس» وولت عنه خائبة حزينة

* * *

والغلام يغادر المراعي إلى الديار.. وفي ثنية من ثنيات الوادي رأى خيلا تستتر هناك استعدادا للإغارة.. فولى هاربا إلى سيده.. وأخبره الخبر ثم عاونه بتقريب الجمال.. والراحلتين.. فحمل عليهما أهله وولده، وانصرف موليا الأدبار تحت جنح تلك الليلة قاصدا الشام لينزل على قومه ممن اعتبرهم من أهل دينه من نصارى الشام.

وحاولت أخته إثناءه.. أو أن يأخذها معه.. لكنه لم يستجب.

تعلقت بحمائل راحلته باكية متوسلة أن يدفع عنها العار، فباعدها وركض وكأنها ليست بأخته.. وكأنه ليس بأخيها!!

لم تشفع عنده توسلاتها.. ولا رجاؤها.. كما لم تلن دموعها، ولا نشيجها، ولا تذكيرها له بأنها أخته، ولا خوفها من مصيرها الذى ينتظرها، وأنها لن تكون إلا سبية.. كل هذا لم يلن قساوة قلبه.. فصاحت نادبة:

– واحسرتاه.. واحر قلباه!!

وجعلت تولول، وتندب حظها فى أخيها.. وفى دنياها كلها.. بينما هو يتخلص منها ويهرب!!

* * *

واجتمع القوم من طيئ على ولولة سفانة بنت حاتم الطائى.. ولم يصدقوا ما روت من هرب أخيها كما لم يصدقوا ما قيل عن خيل محمد خلف الوادى تنتظر لحظة الإغارة..

وبعد الفجر بقليل أفاق القوم على سيوف الفرسان تعمل فى رقابهم..

وأدركوا الحقيقة المرة من هروب الملك، وإغارة الجيش..

وكان يوما لم تطلع عليهم فيه شمس.

هجم على بن أبى طالب بكتيبة الإيمان.. هجم عليهم فى عماية الصبح.. وأخذهم الرعب من كل جانب، وسيطر عليهم الوجل فاستسلموا بعد أن هرب فرسانهم معتقين بهربهم أرواحهم من الإزهاق..

عرفوا الحقيقة، وهم يسيرون رجالا ونساء مكبلين فى الأصفاد.. يُساقون أسرى سوق القطيع إلى محمد فى المدينة.. وتُساق معهم أموالهم غنائم غنمها الجيش المنتصر!!

وعاد على بن أبى طالب منتصرا غانما.. بعد هدم صنمهم «فلس» وأخذ سيفين كانا عنده ضمن النذور، والقرابين التى كانت تُقدم له.

وتمشى سفانة ترسف في أغلالها.. محكوما عليها بما حكم على قومها.. تمشى ذليلة مهينة.. أفقدها الكفر كبرياءها وعزة نفسها، وأهانها الشرك.. ولطخها، وقومها وأخاها الهارب بالعار!!

تمشى سفانة تندب حظها العاثر، وحملها الثقيل من العار تنوء بحمله العشيرة.. بل القبيلة كلها.. عار أخيها الملك الفار.. الملك الهارب من حماية العرض والشرف بقطيع من الجمال صار عنده أغلى من شرفه وعرضه.. وسوف لا ينفك عنها هذا العار أبد الدهر.

تحولت بنت أجود العرب إلى جارية تُباع، وتُشترى كما تباع الجوارى وتشترى فى سوق الرقيق!!

يا للعار.. لولا أن يديها مغلولتان لهالت التراب على رأسها تعبيرا عن فجيعتها التى ما فجعتها امرأة عربية من قبل.. ولن تفجعها امرأة عربية من بعد!!

تسير سفانة وسط قومها، ونظراتهم تكاد تخترقها فتنفذ إلى قلبها، وكبدها فتمزقهما كأسياف مسنونة.. أو خناجر مسمومة، أو سهام رزق حادة كأنياب الأغوال وكأنه ما كان يكفيها عار أخيها وعار أسرها.. فزيد عليها تعذيب قومها لها بنظراتهم الحادة النفاذة!!

* * *

يعود البطل منتصرا بأمر الله، ويقبل على قائده مستبشرا بما أفاء الله عليه حامدا ربه.. شاكرا فضله!!

ويستقبله الرسول الكريم عاليا جبينه.. ميمما وجهه صوب السماء.. مبتهلا حامدا أنعم الله مسبحا له.. مستغفرا.. شاكرا ما منحه من نصر.. وما أذكى من تثبيت، وإعلاء.

ويأمر النبى صلى الله عليه وسلم بحظيرة تقام أمام المسجد، ويترك فيها الأسرى ويضرب من حولهم سور.. وتقام عليهم الحراسة ليلا ونهارا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

* * *

ويتفتح عقل سفانة.. ويتكشف لها بعض من جوانب الحقيقة.. وتستطيع أن ترى على أضوائها بعضا من خلال نبي الرحمة.. وتدرك أنها عند محمد في الحظيرة ليست أسيرة بقدر ما هي معاقبة.. وقومها على ما ارتكبوه في حق محمد وأصحابه، وما اقترفوه ضده، وضد أصحابه من إساءات، وبذاءات تكررت في سنوات طويلة، مضت..

نعم تدرك على ضوء هذه الحقيقة أنها في الحظيرة ليست أسيرة.. فلا تتناسب الحظيرة إلا مع البهائم.. ولعل هذا يكون آخر درس يقدمه محمد لهم لعلهم أن يفيقوا من غشية الجاهلية!!

ولعلها فهمت الدرس جيدا، ووعته.. وعرفت من خلال تفكير عميق أتاحه لها حبسها في الحظيرة أنهم جميعا ماكانوا يعيشون عيشة آدمية.. ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الفرقان:٤٤]

ومحمد إنما ينزل الناس منازلهم التي يستحقونها، والتي تليق بهم!

أحست سفانة أن بقاءها في الحظيرة مرهون بتغيرها.. من قبل لم يفد أبا سفيان إلا الحظيرة.. إلا أن ربط مع الحمير والبغال!!

ولو أفاقت، وتغيرت.. لتغير حالها.. ولتغيرت منزلتها!!

لقد قالت لأخيها إن الإله سيحرسها.. وسيحميها، وها هو ذا الإله يتحطم، ولا يقدر على حماية نفسه.. فمن يحميها!؟

وتزداد الأضواء إنارة للنفوس.. والقلوب، والعقول..

ويمر الرسول بين حين وآخر يتفقد الأسرى.. يتفقدهم تفقد عليم بأحوالهم.. شفيق لهم.. عطوف عليهم.. رحيم بهم..

وتطمئن سفانة إليه.. وتأنس إلى جانبه.. وتطمعها رحمته في الإفضاء إليه بدخيلة نفسها.. ما عادت تحس به قائدا منتصرا.. بل أحست به أبا ينزل العقاب بأبنائه عندما يخطئون.. ويرفع العقاب عندما يستقيم أمرهم، وينصلح حالهم.

وتقترب سفانة من الصلاح.. فتقوم إلى الرسول الكريم وهو يمر بجوارها.. وتحدثه حديث مكلومة في أخيها، وقومها.. لا حديث سبية!!

– يا طبيب النفوس والقلوب.. يا أرحم الناس بالناس، وأرفقهم بهم، وأكثرهم عطفا وحنانا لهم.. يارسول الله: هلك الوالد.. وغاب الوافد فامنن عليَّ مَنَّ الله عليك».

وتغمر قلبها السعادة، ويحيط بها الأنس من كل جانب، ويشرق في نفسها الأمل وحبيب الرحمن يجيبها:

– ومن وافدك؟!

فتقول في لهفة وشوق:

– عدي بن حاتم.

فيقول الرسول ﷺ في نبرة أسف وإشفاق:

– «الفار من الله ورسوله»؟(١)

ويتركها، وينصرف إلى ما هو أهم ممن هم في الحظيرة جميعا.. فما يزال لهم وقت يقضونه حتى تنكشف الغشاوة التي رانت على القلوب والعقول.

وتحزن سفانة.. لأن الرسول اقتضب حديثه معها وتركها.

كانت تتمنى لو يطول.. ويطول إلى الأبد فلقد اكتشفت أنه ليس أفضل، ولا أحب ولا أحلى من الحديث مع رسول الله.. ولولا عار أخيها الذي ما فتئ يطاردها، ويتفوق في مرارة وألمه على مرار وألم الأسر في الحظيرة

* * *

ويمر الرسول ﷺ في اليوم التالي يطمئن على حال الأسرى كعادته، ولما يأذن الله له فيهم بشيء.

وتعاود سفانة الحديث.. أو الحوار الشهي.. حوار اللسان ينفذ عبيره الطيب إلى سويداء القلب، وأعماق الفؤاد.. وتتردد أصداؤه في جنبات النفس فتخشع وتفيء إلى أمر الله!!

---

(١) ابن هشام جـ٢

تقول سفانة ما قالته بالأمس.. وتسمع من الرسول الكريم في جوابه ما أجاب به بالأمس!!

ويمر اليوم ولاتعلم إن كانت تواتيها فرصة أخرى أم لا.. ولا تدرى سفانة أتفرح لأن قلبها تفتح لنور اليقين.. أم تحزن لأن أملها الذى كانت تؤمله، وتفتحت له نوافذه بل وأبوابه.. قد غلقت منه نوافذه، وأحكمت أبوابه من دون تحقيق رغبتها! إلا أن الرسول ﷺ يمر في اليوم التالي، وهو اليوم الثالث على التوالي..

فما كان يمل السعي من أجل تبليغ رسالة ربه، ولا في الاطمئنان على الناس والعباد!!

وهمت أن تعاود الحديث.. لكن توهمها بعدم استجابة الرسول في المرتين السابقتين كاد يثنيها فتقعد متحسرة حزينة.

إلا أن رجلا كان يمر مع الرسول.. يسير خلفه.. ولا يتقدمه.. يحرضها سرا على الحديث.. ومعاودة الطلب.. يحرضها على أن تعاود الحوار، ولا تيأس.. فاليأس ليس من طبيعة المؤمنين.. ولا الذين يتعاملون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من استطاع فهمه، وأحس حدبه على الناس.. كل الناس على السواء.

ويعاود سفانة الأمل.. وتتحرك أوتار قلبها برجاء اعتقدت تحققه.. فقالت للمرة الثالثة في اليوم الثالث على التوالي:

– يا رحمة مهداة.. ولسان صدق في العالمين.. وملاذ الخائفين، وأمل المجهدين، ومحرر العبيد.. يا من تحمل الكلَّ.. وتقرى الضيف.. وتعين على نوائب الدهر: «يا رسول الله.. هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن عليَّ مَنَّ الله عليك».

وتوهجت في قلبها شعلة من نور.. وأفعم صدرها بسعادة غامرة والرسول الكريم يقول:

– «قد فعلت.. فلا تعجلى حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى»(١)

---

(١) ابن هشام جـ٢ – آذنينى: أعلمينى أو أخبرينى.

وبقدر ما ملأت جوانحها السعادة لقرب الخلاص مما ظنته أسرا.. شعرت بضيق، ودبيب خواء إلى النفس والقلب، وكانا قاربا على الامتلاء رأفة، وأنسا، وحنانا من حضرة رسول الله.. وتحدث نفسها: «يا لك من نبي رسول حقا وصدقا!! تخشى على وأنا أسيرتك، وتحفظ كرامتي وأنا سبيتك، وتصون كبريائي، وتخاف على عرضي وشرفي من أن يمسا وأنا في الحظيرة.. فتشترط لك ما ظننته قيدا، وإطلاقي مما اعتبرته أسرا، وجود الأمين من قومي.. ومن أثق فيه ليوصلني إلى بلادي لتضمن نقاء ثوبي، ونظافة ذيلي، وطهارة عرضي وشرفي، وقد هرب منهما أخي.. ابن أبي وأمي.. حامي عرضي وشرفي!!

يا لك من نبي ورسول حقا وصدقا.. والله الله على من كذبوك وآذوك.. لهم النكال والخسران المبين..»

وبقيت تنتظر من يَقْدُمُ من قومها علَّه يكون ثقة..

وكلما أحست بقرب قدوم من يحملها كما وعد الرسول الرحيم، اعتراها إحساس بالغربة، وشعور بالكآبة، وإقرار بأن حظيرة الرسول خير من الدنيا كلها.. لكنها رغم ذلك كانت مدفوعة بخاطر كان يحملها قسرا على أن تخرج وتذهب لا إلى ديارها.. وإنما إلى من تنكر لها.. إلى أخيها بالشام!!

أما لماذا تود البقاء حتى ولو ظلت في الحظيرة بقية عمرها!؟

قلبها يقول، وينطق: إنه رسول الله.. تبقى بجواره، وتراه في غدوه ورواحه..

ويقدم على المدينة ركب.. قالوا لها: إنه من قضاعة.. وقال فريق: إن الركب من بلى.. لا يهم.. فلها في قضاعة أهل وثقة.. ولها في بلى كذلك من يأنفون الذل، ويفرقون من العار.. ويحافظون على العرض والشرف محافظتهم على أرواحهم.

ثم جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبرته بما كان طلبه منها:

– يارسول الله.. قد قدم رهط(١) من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ.

وجاشت عواطفها.. وانخرطت في بكاء عظيم ورسول الله ﷺ يخرجها من

(١) رهط: جماعة

محبسها، ويحنو عليها، ويرق لها.. ثم يكسوها كسوة تليق بكرم محتدها، ونبالة أصلها، وكأنه يقول للناس: «أكرموا عزيز قوم ذل!»

ثم يعطيها المال الذي تنفق منه على نفسها.. بل وعلى من معها طوال رحلتها إلى الشام.. ويمنحها الراحلة التي سترحل عليها.. والتي ستحملها حتى توصلها ما ترجو، وتقصد ..

وخرجت سفانة من عند رسول الله ﷺ عروسا في أبهى حللها، وأروع زينتها: النفسية، والروحية، والوجدانية، وكأنها لم تُسَقْ إليه أسيرة يجللها وقومها العار!!

خرجت سفانة من عروس المدائن «يثرب» عروس الأسارى تحفظها عناية الله وتكلؤها رعايته، على يدي النبي الأمين، والرسول الكريم محمد بن عبد الله!!

* * *

منذ ترك عدي الديار هاربا لا يلوي على شيء.. ومنذ وصل إلى من يدعي أنهم قومه من دينه، وهو لا يفكر في شيء.. لا يعبأ بشيء.

كان يدرك أن الدائرة تدور عليه، وعلى قومه، وكان يرى الطوفان قادما من بعيد يكتسح أمامه أي شيء.. ويغرق بعده كل شيء..

وكان الحال والعرف يقتضيانه أن يبقى مع قومه الذين نصبوه ملكا عليهم وأباحوا له ما حرموه على أنفسهم، وأن يقاسمهم متاعهم، ومالهم.

لكنها الجاهلية بكل ما تحمله بين طياتها من أنانية، وغدر، وخلف الوعد، ونكث العهد.

لم يهرب عدي من قومه فحسب.. وإنما هرب من عرضه، وشرفه عندما ترك أخته الوحيدة.. وداس على كل شيء في سبيل أن ينجو، وأهله، وولده وقسطا زهيدا من ماله.

وعدي في الشام ينعم بالاستقرار، والراحة، وهدوء البال لاعتقاده في بعد ما بينه وبين محمد من مسافات تقطع الطريق على أي أذى يلحقه أو ضرر يمسه أو يمس أهله وولده!

وعدى فى الشام يوهم نفسه ببعد الخطر.. وهو يجلس بين بنيه فى دعة يفاجأ بما لم يكن فى الخاطر أو فى الحسبان.

ينظر فيصطدم بصره براحلة.. عليها هودج يقودها، ويتبعها أناس عرف من ملامحهم إلى أى القبائل ينتمون.. فدقق النظر، وقد هجس به هاجس.. وتأمل الركب وهم ينيخون الدابة أمامه بعد أن عرفوا أنه عدى.. ثم ينزل من الهودج امرأة فى أحلى ملبس.. وأكمل مظهر.. امرأة كأنها عروس فى يوم زفافها.. لولا أن لها ملامح أخته سفانة..

ويضطرب قلبه اضطرابا عظيما.. ويخفق خفقانا شديدا، وهى تقف غير بعيدة عنه، وتصوب إليه نظرات حادة.. يقدح منها الشرر.. ثم تقدم عليه فى حدة تكاد تفسد الشكل والروح معا..

ويعلم أنها أخته.. وهى تقترب منه.. وتندفع فى كلامها، وتعنيفها، ولومها دون أن تعبأ به أو بمن يستمع من القوم المرافقين.

تقول سفانة فى غيظ وجفاء:

– القاطع الظالم.. احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك.. عورتك.. كلام قاس.. وشديد.. ولعلها وهى تشتد عليه وهى من صلبه تحاول أن تبين له جرم ما ارتكب لا فى حقها فحسب، ولكن فى حق محمد أيضا..

وكأنها تقول له إذا كنت ظلمت من هم من لحمك، وأهدرت كرامتهم دون مبرر.. أفيبعد عنك أنك قد ظلمت محمدا.. وغررت بقومك، وهم يتبعونك على كراهيته والحقد عليه؟!

وكان تقريعها، وتعنيفها أشد ألما من لسع السياط.. أو الحرق بالنار، وقد بدا يفيق من سكرته التي أغرقه فيها شيطانه.. فقال:

– أى أخية.. لا تقولى إلا خيرا.. فوالله ما لى عذر.. وأعترف بذنبى، وخطيئتى.. وأقرر أنى صنعت ما ذكرت، ولن أكون نذلا مرتين، ولا جبانا أو عاقا فى الحالتين.. ولأنت الآن بين أهلك.. تقيمين معى على الرحب والسعة ، وما أرجو إلا أن تغفرى لى زلتى.. وتصفحى عن إساءتى، فوالله ما أنا فى حاجة أشد مما أنا في حاجة إليك الآن.

أعرف حزمك، ورجاحة عقلك.. وإنى مستشيرك فلا تحنقى على وتكذيبيني.. إنى مستشيرك، ومستنصحك، فاشيرى علىّ وأخلصى النصح!!

فقالت وقد أخذ قلبها المفعم يرق له.. ويحنو عليه.. إذ أخذ يحس بمدى ما هو فيه من تورط.. ومن يئس وخذلان، وهى ما تزال واعية الدرس: «أكرموا عزيز قوم ذل».

قالت:

– هات يا أخى ما عندك.. وإنى والله ماقدمت عليك إلا رجاء الخير لك، وما عتبت إلا لأنك أخى، وأمرك يهمنى، وفى المدينة يقولون: ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ [المائدة:٩٥]

فقال فى لهفة شديدة:

– مـاذا ترين فى أمر هذا الرجل؟! لقـد كنت قريبـة من محـمـد.. ولك نظر ثاقب وبصيرة نافذة.. فما ترين فى أمر محمد؟!

فأجابت فى حزم وبلا تردد:

– أرى والله أن تلحق به.. وأن تذهب إليـه.. وأن يكون ذلك سـريعـا فـلا تتمـهل، ولاتتريث، وإن رأيت ما رأيت، وكان نبيا، يكون لك فضل السبق إليه وإن كنت تأخرت زمنا طويلا مـا كـان يحق لك.. ولك أنت بالذات يا بن أجود العرب، وأفهمهم للناس.. ماكان يحق لك أن تتأخر..

ثم غمغمت:

– وإن يكن ملكا.. فلا يذل أحد بقرب مليكه.. وإنما له العز وأى عز!!

لم ترد سفانة أن تفرض عليه رأيا معينا مخافة أن يترك هذا رد فعل لديه.. فيتهمها فى أبهتها التى صنعها لها محمد بالتحيز له.. وإنما تركت له الخيار.. فلم تنس أنه كان ملكا، وكانت له الكلمة.. ولم يتعود إلا أن يقول هو، وأن يرى هو.. لذا قدرت بعد أن يذهب إلى محـمـد.. وأن يرى مـا رأت، وأن يدرك مـا أدركت.. فإن أضواء الحقيقة ستخالط عقله، وقلبه، وسيصل إلى ما وصلت، وسيذوق حلاوة كلمة «رسول الله» عندما ينطقها.. مجرد أن ينطقها فى حضرة النبى ﷺ!!

تركت الخيار له.. وهى واثقة من أنه سينتهى حتما إلى ماانتهت إليه.. وسيصدق

بمحمد نبيا، ورسولا، وسيؤمن كما آمن الناس، ويذعن للدين الجديد، ويبايع بالإسلام!!

ولسوف يعود من عند محمد أكثر منعة.. وأوفر عزا.. وأمانا.. وسلاما.. بما لا يقاس بما كان عليه قبل الإسلام.

سعدت سفانة، وأدركت حكمة الله في أنها رغم حبها البقاء الطويل بجوار رسول الله حتى ولو كان في حظيرتها.. أدركت حكمة الله في إصرارها على أن تلحق بأخيها في الشام رغم ما أحسته من خواء نفسي وروحي، وهي تفكر مجرد التفكير في ترك الرسول بعد أنْ كانت قاربت على الامتلاء، وهي في الحظيرة!!

سعدت وأدركت الحكمة.. وازدادت يقينا، وهي تسمع رأي أخيها، وقراره الأخير:

– وحق الإله إن هذا إلا الرأي.

* * *

وعدي يتجه إلى المدينة رسم لمحمد صورا كثيرة.. تخيلها ذات أشكال، وألوان، وكانت تتلاشى هذه الصور واحدة تلو الأخرى، وهو يقترب من المدينة.. ما عدا صورة واحدة علقت بذهنه.. هي صورة الملك.. قد يكون محمد ملكا..

ويخفق قلبه كلما اقترب خفقانا غريبا لم يألفه من قبل.. خفقانا مفعما بحب غريب انمحت به كل أثرة لكراهية..

وكانت نفسه تهفو بالإيثار.. حتى لقد انسلت منها وهو يقترب من المدينة آخر شعرة للحقد!!

وكانت روحه تحلق في سماوات بعيدة ثم تعود متقمصة جسده بالطهر، والسمو، والعفة.. حتى لقد غدا وهو يدخل المدينة.. منجذبا.. ويذهب من فوره إلى المسجد.. يريد أن يسلم على محمد.. فلقد غدا من اللحظة روحا.. وروحا فقط لا يدري من أمر دنياه شيئا كبيرا كان أم صغيرا، وهو الأمر الذي جعله لا يحس بمن لقيه، ولا بمن قابله في طريقه إلى رسول الله، ومن تقدمه ليدله على مكانه.. غدا روحا.. روحا فقط تحلق في سماوات عالم جديد.. أخذت تستبين له معالمه.. وطرقاته.. ويا لها من معالم، وطرقات كلها نور في نور!!

– «وياه!! ماذا كنت.. وكيف كنت؟! يا لك يا سفانة.. إن كان نبيا فسيكون لك فضل السبق.. والله لهو النبي»!

ويلقى الرسول في مسجده.. ويسأله رسول الله ﷺ:

– من الرجل؟!

ويقول:

– عدي بن حاتم الطائي!

وينهض الرسول ﷺ من مجلسه في المسجد.. ويأخذ عديا الضيف الذي طالت غيبته ويذهب به إلى بيته.. ليقوم له بحق الضيافة.. وحق التكريم، فهو ضيف الرحمن

وهما في الطريق تلقى الرسول امرأة بسيطة.. ضعيفة.. مسنة.. وتستوقفه.. وتحدثه عن حاجتها حديثا طويلا.. ويذهل عدي بما يرى عما يدور بينهما.. وتطول الوقفة، والرسول يستمع إليها، ويرفق بها دون ملل من الاستماع أو الوقوف..

ويستيقن عدي من أنه ليس ملكا.. فما هكذا الملوك في أقصى حالات تواضعهم!

وتنتهي المرأة من عرض حالتها، وطلب حاجتها من الرسول.. ولا ينصرف الرسول قبل أن تنصرف هي..

ثم يواصل الطريق بضيفه إلى بيته.. ذلك البيت البسيط الذي لا يزيد في شكله ولا تصميمه عن أقل بيت لأفقر إنسان في المدينة!!

ويدلفان إلى الداخل..لا أثاث.. ولا رياش.. إن هي إلا وسادة محشوة بالليف يعطيها الرسول لعدي يجلس عليها.. ثم يجلس هو على الأرض!!

ويستقر المجلس.. ويسامر الرسول ضيفه، فيقول له بما يعالج نفسه.. وقلبه وعقله.. وروحه أيضا:

– إيه ياعدي بن حاتم.. ألم تك رَكُوسيًا (١)؟!

فيجيب عدي:

---

(١) الركوسي من الركوسية: وهم قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين.

– بلى!!

فيقول الرسول الكريم:

– أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع!؟

ويجيب عدي:

– بلى!!

فيقول الرسول الكريم:

– فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك!

فيقول عدي:

– أجل والله!

وهنا وصل عدى إلى نهاية الشوط.. ووقف به جواده عند آخر المضمار.. وتيقن من أن محمد نبيا ورسولا.. لأنه على حد تعبيره.. «يَعْلَمُ ما يُجْهَلُ».

وكان طبيب النفوس والقلوب يعلم أن الذى باعد بين عدى وبين الإسلام.. لم يكن عدم اقتناعه بما جاء به الإسلام.. إنما كان متاع الدنيا، وزينتها.. وميزاتها المادية الرخيصة.. كما كان يدرك أنها ستجرده من هذه الميزات يوما إلى شىء لا يدرى قيمته إلا الله..

لذلك أردف طبيب القلوب، والنفوس موضحا أن الإسلام سينتصر فى كل مجال.. وسوف تتجلى هذه الانتصارات فى اهم ما يسيطر على البشر منذ الخلق الأول.. وهو المال.. لكنه المال الحلال.. المال الذى يفيد ولا يفسد، ينفع، ولا يضر.. المال المصحوب بالعرق.. والجهد.. والبذل.. المال الذى فيه حق معلوم للسائل والمحروم..

فقال صلى الله عليه وسلم:

– ولعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم –المسلمين– فوالله ليوشكن المال أن يفيض عليهم حتى لا يوجد من يأخذه!!

ولعله إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم.. فوالله

ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف!! ولعله إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الحق ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم(١)».

ويكاد عدى بعد أن رأى ما رأى.. وبعد أن سمع ما سمع.. يكاد يجأر حتى ليسمعه كل إنسان في كل مكان..

- لقد نطقت صدقا.. وقلت حقا.. وايم الحق إنك لنبي الله.. وإنك لمرسل من عند الله.. وايم الحق ما قلت إلا ما كنت أخفيه بين جوانحي، ولا يصل إليه أحد.. أو يعرف كنهه مخلوق على وجه الأرض..

ثم يهمس وكأنه يستعرض حياته السابقة، وما فيها من كفر، ودنس.. وهل يستطيع التكفير عنها.. يهمس في وضوح خاشع:

- يارسول الله.. أشهد ألا إله إلا الله، وأنك يا محمد رسول الله!!

* * *

ويعود عدى.. ويقع ما حدث به الرسول الكريم.. ويطول العمر بعدى حتى يخبر بما كان أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم.. ويرى القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت.. ويرى المرأة تخرج من القادسية في العراق على بعيرها لا تخاف الطريق حتى تحج البيت.. ويحدث عديٌّ فيقول:

- «وايم الحق لتكونن الثالثة: ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه!!»

* * *

---

(١) ابن هشام جـ٢

خير الماكرين!!

عامر بن الطفيل

قال «حُصَيْن» لرفيقه «نَمِر» وهما عائدان من المراعي يسوقان أمامهما أجمالاً، وأغناما كثيرة لسيدهما من بني عامر:

– لم أعد أطيق يا رفيقي!!

فقال «نمر» في نبرة حزن واضحة:

– ولا أنا والله يا «حصين»!

فقال حصين في ضيق:

– لماذا نبقى في هذا الذل.. وقد منحنا الله أعظم قوة للتحرر، والخلاص من هذا القيد اللعين!؟

إن العقل والمنطق يرفضان هذه المقولة التي يعيش على أنغامها سادة بني عامر كما عاش على أنغامها السادة من قريش في مكة زمنا.. تلك المقولة التي تصنف الناس إلى عبيد وسادة، وإلى أقوياء وضعفاء، وحكمت بذلك على من اتصفوا بالعبودية أن يظلوا يرسفون في أغلالها إلى الأبد!!

لقد جاء محمد، وحطم هذه المقولة، وقضى على كل بواعثها، ودوافعها.. وما عناد بني عامر إلا من أجل مصالحهم هم.. ما عناد بني عامر أو السادة في بني عامر إلا نوع من الأنانية البغيضة الآثمة.. يريدون أن يظلوا سادة ولو بقي الناس كل الناس عبيداً!!

فقال نمر، وما تزال نغمة الحزن تغلف صوته:

– دانت الجزيرة كلها أو كادت تدين لأمر الله.. والذين وفدوا على رسول الله ممثلين لقبائلهم وعشائرهم تعلن قبول الدعوة، والإيمان بالله، والتصديق برسوله الكريم.. لم يفدوا جزافا.. أو عفو خاطر.

فقال وما زال شبقه ظاهرا:

- بل كانت وفادتهم مقرين بالدين الحنيف خالعين حياة كاملة إلى حياة جديدة كل الجدة، متحملين تبعات ما أمر به الدين، وما نهى عنه.

كانت هذه الوفادة بكل ما ترتب عليها قائمة على حسابات دقيقة.. بل غاية في الدقة.. لعب فيها المنطق بعد تجارب عديدة مريرة دورا لا يخطئ في جليلة، ولا في دقيقة، وكانت النتيجة مقنعة أقرَّ بها العقل عن يقين لا يقبل الجدل أو الشك!!

فقال نمر:

- وما المفاخرة التي سمعناها من بعض الوفود في حضرة محمد إلا النزع الأخير في جسد الشرك المنهار، وإلا احتضاره المحتضر، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

فقال حصين في أسًى:

- إن كان شذ عن جادة الصواب وفد بني عامر، وانحرف عن الطريق السوى واطرح المنطق، وابتعد عن العقل البصير، فإن بني عامر آتون حتما للنور، وهم بلا شك سيُغلَبون في النهاية صوت العقل، وسيدركون أن النجاة ليست في أنفة زعمائهم، وتعصبهم لأنفسهم، وتعلقهم بزعامة واهية، وعبادة يعلمون قبل غيرهم أنها عبادة لا تحترم في قليل، ولا في كثير.. وأن عقيدتهم التي يعتقدونها ليست إلا غطاء زائفا لحياة لا حياة فيها.

فقال نمر، وكأنه يعزي نفسه:

- إن كان عذر بني عامر أنهم تأخروا عن الإسلام زمنا، وإن كان يسيرا بسبب اختيارهم من يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمثال عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس وجبار بن سلمى، وهم الثلاثة رؤساء القوم، وشياطينهم.. إن كان عذر بني عامر أنهم تأخروا عن الإسلام لأنهم لم يحسنوا اختيار من يرتادون لهم طريق الحياة الصحيحة، وقد واتت الفرصة لذلك فإن أقبح من هذا العذر أنهم سلفًا صمّوا آذانهم عن الصيحة التي ترددت أصداؤها في جنبات الجزيرة لتصبح الحق في نصابه وتدحض الباطل الذي استشرى، وطال به الأمد في هذه الأماكن ذات السوابق الدينية

السليمة منذ ابراهيم وولده اسماعيل، والتى بقيت فيها الكعبة شاهد صدق على التوحيد والإقرار بربوبية الواحد، الأحد، الفرد الصمد.

وتوقف عن الكلام وحصين يجرى خلف نعجة شذت عن القطيع.. ثم يعيدها .. وتهدأ أنفاسه ثم يقول لنمر:

– نعم.. صمت بنو عامر آذانها، وأغلقت عقولها، وقلوبها من دون هذه الصيحة.. وكأنهم بهذا الاختيار يجازون أنفسهم بأنفسهم.. ويوقعون العقاب على أنفسهم بأنفسهم.. فإنهم وقد علموا بَعْد أن تأخرهم فى قبول الإسلام كان هو العقاب المر، وأن هذه الفترة اليسيرة فى عمر الزمن كانت عليهم أطول من دهر.. عاشوها لا يفرقون فيها بين حق، وباطل، ولا بين إنسان وحيوان!

فقال نمر:

– كان على بنى عامر أن يعرفوا منذ اللحظة الأولى أنهم لن يدركوا بهذه الرفادة خيراً، ولن يدركهم خير.. فقد رفض ممثلوهم الانصياع، والانقياد، والإقرار بالإسلام.

فقال حصين.. وهو يتنهد فى مرارة وألم:

– رفض ممثلوهم أن يحبوا من الحياة الحقيقية يستقونها من رسول الله.. ثم ينقلونها لمن ملكوهم زمام أمرهم، وائتمنوهم على أعراضهم وأموالهم وأنفسهم من بنى عامر!

فقال نمر فى ضيق وحزن شديدين:

– لقد تمادى الرفض فيهم حد التآمر على هذه الحياة يبغون طمسها، والقضاء عليها.. فغدوا يمكرون بنبعها، وهم يحاولون الكيد لرسول الله.. والتآمر عليه.. وهيهات أن يغيض النبع.. وهيهات هيهات أن يصلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فقال نمر فى توسل:

– ليتهم أرهفوا السمع لبلابل الحق تشدو بأغاريده الصادقة، وليتهم تركوا البصر فى رؤاه ترصده أنوار الهداية.. بل ليتهم تركوا للقلوب نوافذ مفتحة تغمرها أضواء الحقيقة!!

فمنذ اللحظة الأولى رفض عامر بن الطفيل الانصياع.. منذ اللحظة الأولى رفض عامر بن الطفيل الحياة.

فقال حصين:

– ما أشقاه وهو يرفضها.. بل ما أنكده وما أتعسه وهو يحزم أمره، ويعزم على قتل الرسول،.

قال له قومه، وهو يتجه إلى المدينة:

«يا عامر.. إن الناس قد أسلموا فأسلِم»!

فأجابهم في صلف، وغرور، وكبرياء هو صلف، وغرور وكبرياء الأحمق:

«والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي.. أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش»؟!

فقال نمر في حدة:

– خسئ والله.. يحلم بزعامة.. هي زعامة ضالة، ومضلة معا.. يحلم بزعامة العرب جميعا.. ويستكثر.. بل يرفض في وهم هذه الزعامة أن يسير خلف محمد..

فتشاغل حصين بأجماله قليلا.. ثم عاد وقال في دهشة:

– تصور.. حتى اسم محمد لا ينطق به!؟ فما هو عنده إلا فتى!! مجرد فتى من قريش!!

فقال نمر في تقزز:

– أي صلف هذا، وأي غرور أحمق يتمكن من هذا الرجل.. وأي حقد أسود يسيطر على عقله، وقلبه، وكل كيانه!!

فقال حصين:

– إن ما حدث كان فظيعا..

لقد دبر عامر، وأربد خطة لقتل محمد.. وهما في الطريق إلى المدينة.. يدنو عامر من النبي ويقترب منه أربد.. والطيور على أشكالها تقع..

يبسط عامر لأربد خطته.. وأربد هو الأمين على تنفيذها..

فقال ثمر في إنكار:

– اعتقد الوغد أنه يتخلص من محمد في هذه الرحلة!!

فقال حصين في أسف بالغ:

– يضع عامر الخطة متصورا أن عقله الفارغ، وقلبه الخاوي يمكن أن يمنحاه خطة تجوز على محمد.. كما جازت على غيره ممن تعامل معهم من قبل في ستر الجاهلية.. غير عالم أن ظلمات الجاهلية انقشعت أو بسبيلها إلى أن تنقشع إلى غير رجعة، وأن ما جاز بالأمس على غير محمد يستحيل أن يجوز على محمد لسبب بسيط وخطير في الوقت ذاته، وهو أن محمدا مؤيد من قبل ربه.. وربه حاميه، وراعيه وهو الذي يتولى الدفاع عنه.

فقال ثمر في زهو ورضا:

– نعم والله حاميه وراعيه، ولن يضيعه الله أبدا!!

فقال حصين:

قل لأربد تفاصيل الخطة.. أو تفاصيل المؤامرة.. ويا لها من جريمة.. إنها سموم ناقعة امتلأ بها جوف الشيطان، وأراد أن يفرغها في محمد!!

فعلق ثمر في حنق:

– بئس ما اقترفا!!

فأكمل حصين:

قال عامر لأربد:

إذا قدمنا على المدينة باعتبارنا وفد بني عامر الذي جاء يبايع بالإسلام.. سينخدع بذلك محمد.. وسأستغل أنا الموقف.. وأعمل على استدراجه.. ولسوف أشاغله حتى أصرفه عنك بحديثي، ومحاورتي.. سأجعله يتجه إليّ بكل كيانه.. فيكون وجهه في وجهي.. وعيناه في عيني.. سأجعله لا يبصر ما عن يمينه ولا عن شماله.. وعندئذ تأتي أنت من خلفه، فتقفز عليه.. وتهوي بسيفك على رقبته.. فتقتله، وأقتله، وأفرغ أنا وأنت منه..فلا يكون محمد، ولا يكون دين محمد.. بل لا يكون إلا أنا وأنت، ونبقى ويبقى لنا دين الآباء والأجداد.. وتصير لنا القيادة والزعامة على العرب جميعا!!

فقال نمر:

- ﴿ ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾ [الأنفال: ٣٠]

فعقب حصين:

- نعم.. وصدق الله العظيم..

ويسكت قليلا كأنه يتدبر معنى كلام رب العالمين ثم يردف:

وقدموا ثلاثتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والتقوا به.. ويبقى جبار يحرس الدواب..

ولم يكذب عامر بن الطفيل خبرا.. أو يضيع وقتا.. وشرع منذ اللحظة في تنفيذ خطته الشيطانية.. ونادى على رسول الله:

- ويامحمد خالّني(١) أريدك أخا وصديقا.. أكون لك خليلا.. وأكون وإياك بحكم الصداقة في خلوة.. أكون أنا وأنت على انفراد في خلاء

فيعلق نمر في لهفة:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله!!

ويعقب حصين عليه مرددا مثل قوله.. ثم يردف:

- لايستسيغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منطق عامر.. ولا يستريح لهجته ويعلن رفضه مؤاخاة مشرك قائلا:

- «لا والله حتى تؤمن بالله وحده»

فيسعد نمر.. وتبدو رنة السعادة في صوته وهو يعلق:

- فداك أبي وأمي يا حبيب الله.

ثم يردف:

- ويعود عامر بن الطفيل.. يعود عدو النور ويكرر: يا محمد خالّني..

---

(١) خالّني: اجعلني لك خليلا.

وجعل يكلم الرسول، وينتظر من أربد أن يقوم بدوره الذى رسمه له فى الخطة الشيطانية كما قدر وأراد..

وأخذ فى إصرار يشاغل رسول الله، وهو يتوقع من أربد أن ينفذ ماكان أمره به.. وأربد يقف مكتوف اليدين كأنه غُلَّ بقيود من حديد.. ذاهلا حتى عن نفسه وعمن حوله.. لا يحير شيئا من أمره.. ينظر فى دهشة، وحيرة معا.. وقد فغر فاه وجحظت عيناه دون حراك.

وحار عامر من صنيع صاحبه.. ما له لا يتحرك؟! ما له لا ينفذ ما اتفقا عليه وقد أتاح له كل الفرص، وهيأ له كل إمكانيات الغدر، والفتك، والقتل؟!

ورغم حيرته من صاحبه ما يزال يطمع فى تنفيذ خطته.. ويلح على الرسول قصد مشاغلته به عن تنفيذ ما يدبر له.

فعلق ثمر:

– يزعم هذا اللعين أنه يستطيع إطفاء نور الله، وهو لا يدرى أن الله متم نوره، ولو كره الكافرون!

فيقول حصين:

– يلح.. يا محمد خالنى.. ويرد الرسول رده الذى لا يتغير، ولا يحيد عنه.. رده الواثق من ربه، وصدق نبوته ودعوته، ويقينه أن الله راعيه.. وحاميه.. ومؤيده، وناصره، ولن يضيعه:

« لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له».

واستعصى على عامر أمره.. وخشى افتضاح موقفه وهو بين يدى محمد.. فانهزم فى خزى وبهتان وأدبر على عقبيه فارا من أمام رسول الله.. وظلام شرك الجزيرة كلها يتجمع ليتكور فى عينيه، وعينى صاحبيه.. ويهرع إلى جواده يمتطيه ويولى الأدبار قائلا للنبى فى نزع أخير: «أما والله لأملأنها عليك يامحمد خيلا.. ورجلا!!»

ويتبعه صنواه: أربد بن قيس، وجبار بن سلمى.

* * *

ويتوارى ثلاثتهم في غبار أثارته الخيول بحوافرها.. وتبتلعهم ضبابات الصحراء، كما ابتلعهم ظلام العصيان.. ويجد الرسول ألا أمل في عامر.. فيضرع إلى الله قائلا:

«اللهم اكفني عامر بن الطفيل».

* * *

فقال نمر:

- غادروا.. وفارقوا.. لا ردُّوا، ولا عادوا.

فقال حسين:

- ما ابتعدوا كثيرا عن أرض الرحمة حتى جعلت لعنة الله تطاردهم.. وكانت بداية ملاحقة لعنة الله لهؤلاء الجاحدين أن أخذ عامر يعاقب أربد محنقا مغيظا، والشر يتقد في عينيه.. وجعله الغيظ يتهم صديقه بالتقصير.. بل التآمر عليه والخيانة له.. وإفشال الخطة والتدبير..

ويدب الشقاق في قلوب الرفاق.. وصدق الله.. ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾ [الحشر:١٤]

ويحتدم الخلاف بين عامر، وأربد، وبوادر التصدع تعزل كلا منهما عن الآخر، فيصرخ عامر في وجه صديق غدره، وكأنه وهو يصرخ يَخْرُجُ من جوفه ريحٌ حاقدة تحمل فحيحا كفحيح الأفعى:

- ويلك يا أربد.. أين ما كنت أمرتك به؟! والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف على نفسي منك.. وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا!!

ويلقى أربد الجفاء بأشد منه.. والقسوة بأعنف منها، وأواصر الصداقة والدم تتقطع، وتتآكل وهو يحاول دحض تهم عامر له بالعجز والجبن والخيانة .

وشغلته أنفته وغروره، كما شغلا صاحبه من قبل، وأعماه كبرياؤه عن تبين حقيقة مذهلة عاشها واقعا ملموسا، ونطق بها وهو يدافع عن نفسه دون أن تحظى منه ولو بلحظة عابرة من الفكر الصادق، والقلب الواعي اليقظ.. أعماه كبرياؤه عن تبين برهان ساطع لجلاء الحق، وطمس الباطل.

قال أربد:

– لا أبا لك.. خسئت والله، وخسئت همتك مروءتك.. تصفني بالعجز وتتهمني بالجبن وأنت العجز نفسه.. والجبن كله.

إليك هذه الحقيقة التي كنت حاولت إخفاءها حتى لا يطمع فينا الطامعون.. والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا وجدتك تدخل بيني وبين الرجل.. فما كنت أنظر عن يميني ولا عن شمالي ولا أمامي، ولاخلفي أتبين محمدا أين هو إلا كنت أراك أنت أفكنت أضربك بالسيف!؟ أفكنت أقتلك أنت!؟

فكاد نمر يصيح معجبا:

– يا رحمة الله!! لم يكونوا يواجهون محمدا ببغضائهم.. ولم يكونوا ينفثون فيه سمومهم فقد احتوت محمدا عناية ربه.. وحجبته عن أنظارهم، وأبعدت عنه غدرهم، فراحوا يواجهون بعضهم البعض بهذه البغضاء.. وينفثون حقدهم، وسمومهم في أنفسهم.. ومحمد الطبيب النصوح يكافح في دأب ليستل الضغينة، والحقد.. يستل الداء من عقول وقلوب مريضة.. استشرى مرضها.. فلم يعد ينفعها إلا علاجه يمنع به الداء، ويحفظ على الجنس البشرى كله كرامته المهدرة، وإنسانيته المفقودة، وآدميته التي أودى بها الجهل، وأهاضها.. وحطها في الدرك الأسفل!

نزع محمد الأقنعة عن وجوههم فبدت قبيحة.. بدت شائهة.. وأراد أن يعيد لهذه الوجوه طبيعتها الحلوة.. طبيعتها الفطرية السليمة التي أوجدها الله عليها يوم أوجدهم على ظهر الأرض، وقد كانوا عدما.. أراد محمد بدعوة الحق أن يزيل عنها مسخ الجاهلية.. وشوه الباطل، وزيف الكفر.. وأرادوا إلا أن تظل هكذا صورة مجسدة للضلال والبهتان!!

وسكت نمر متأملا..

فقال حصين:

– تواروا عن محمد في ترابهم المثار من حوافر الخيل.. لكنهم لم يتواروا عن خالق محمد ومرسله.. كان المجهول في انتظارهم ليواريهم الثرى المثار بفئوس البشر.. يواريهم بطن الأرض حيث لا خير فيهم على ظهرها.. يواريهم بحقدهم ومرارتهم..

وأعد المجهول لهم أكفانا تليق بهم.

حقدهم الأسود الذي صبوه على محمد كان هو السلاح ذاته الذي ارتد إليهم وأرداهم

أرادوا أن يطوقوا به محمدا.. فطوقوا به أنفسهم.. وظل يضغط على أعناقهم لتجحظ عيونهم في رعب لم يعيشوا مثله من قبل.. وتزهق أرواحهم في صورة مهينة لم يشهدها عربي من قبل.

لم يبتعد عامر بن الطفيل كثيرا عن النبي.. وحين ظن أنه بمنجاة.. وهو في أرض غربته، ولمّا يصل إلى دياره، وأرضه، وقومه، ولم يكد يتنفس الصعداء، وهو في هذه الأرض حتى أحس أنه سيظل غريبا.. وإلى الأبد.. فلن يصل أرضا يحس فيها بالراحة.. أو الطمأنينة، وكتب على نفسه الاغتراب..

الاغتراب عن الأرض.. والاغتراب عن النفس، والقلب.. والعقل.. والاغتراب عن الأهل والولد.. الاغتراب عن الروح الإنساني!!

تاه عامر توهانا جديدا.. وتلقاه الله في توهانه.. تلقاه في غربته بطعنة قاتلة: سلط الله عليه الطاعون.. أصاب رقبته.. وصار طوقه الذي يضغط عليه في تؤدة.. فيجعله يبرك كما يبرك البعير الأجرب المنبوذ..

ولا يجد أحدا يؤويه في غربته غير امرأة ليست فوق مستوى الشبهات.. تعطف عليه وتؤويه.. امرأة من بيت في بني سلول..

ويبرك هذا الصنديد العنيد.. وتخور قواه.. وأين؟ في بيت سلوليه يتمرغ في وحله، ووحلها.. وهو في وطأة مرضه.. وشدة طعنته.. وألم معاناته لا يفيق من غيبوبة آلامه إلا ليدرك حقيقة واحدة أرادها الله ليعيشها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. فتصير الثانية الواحدة في ظل هذه الحقيقة عذابا يعدل عذاب دهر بأكمله.. وتلك الحقيقة التي أراد الله أن يعيشها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة هي أنه كم هو مهين.. وكم هو حقير، وأين هو من نبي الرحمة.. الذي تآمر عليه.. وهاهو ذا الظلام يلفه بأرديته السوداء، وقد كان النور يسعى إليه فيهرب منه.. ثم يتآمر عليه عندما ران عليه الجهل، فلم ير منه بصيصا، قد كان في مكنته لو أراد أن يسعى به البصر إليه.. وتأوى إلى ضوء هداه البصيرة!!

ويجأر عامر، وهو يعيش اللحظات الأخيرة مع هذه الحقيقة.. يجأر في صوت حبيس، وكل نبرة تخرج من فمه تحمل وجعا وألما، لو وزعا على الجزيرة كلها لأوجعها وألمها..

يجأر عامر وهو يرى مقدار ضآلته، وحقارته، وهوانه:

– يا بني عامر.. أغدة كغدة البكر؟!

يا بني عامر.. أغدة كغدة الإبل.. وموتا في بيت سلولية؟!

ويسدل الستار على عامر بن الطفيل، وإلى الأبد.. وما كان قد ارتفع عنه ستار منذ رفضه الإسلام.. هو الذي كان توهم ذلك!!

* * *

ويعاد صاحباه من دونه بعد أن وارياه التراب بعيدا عن قومه.. ودياره.. وما كان إحساسهما بالضياع منذ تركوا رسول الله ﷺ بأقل من عامر.

ولم يجد القوم إلا أربد، فاجتمعوا عليه.. وسألوه ما كان.. واستفسروا منه عما حدث.. ولم يعتبر الشقي مما حدث لصنوه، ولم يهده أي تفسير... ولو لظهر واحد مما مر به

أجاب في غطرسة:

– لا شيء والله.. لقد دعانا - يقصد محمدا– إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله!!

ولا يمضي وقت طويل.. ما هما إلا يومان.. يومان فقط بعد هذا الافتراء ويشرد جمل لأربد.. ويتبعه ليسترجعه.. يقبض عليه، ويعيده إلى معطنه، لكن الله يستدرجه بهذا الجمل إلى حيث لا يدري.. ولا يعلم ماذا سيصيبه، ويبعد عن الديار.. ويرسل الله عليه، وعلى جمله صاعقة فتحرقهما، وتطوى صفحة شقيين حادا الله ورسوله.. ومن يحادد الله ورسوله فإن الله شديد العقاب وينزل الله سبحانه في ذلك قرآنا:

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار* عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال* سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو

مستخف بالليل وسارب بالنهار* له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال* هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال* ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال. له دعوة الحق* والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ [الرعد: ٨ – ١٤]

* * *

ويقترب الشابان من الديار وهما يسوقان أمامهما النعم.. يسقيانها من قليب قريب وعند مجتمع القوم حول القليب.. انفلت حصين من رفيقه نمر، وانتزع من كتفه قوسة ووضع فيها سهمه، وصعد مرتفعا قريبا.. وهو يصيح:

– يا قوم.. سحقا لكم أيها الكفرة.. والله الذى لا إله غيره لقد أسلمت من وراء ظهرانيكم.. ولقد تعلمت من مبادئ الإسلام الكثير، وحفظت سورا بأكملها من القرآن الكريم وحفظت ما أنزل فى شأن أشقيائكم الثلاثة.. وأنا منذ اليوم مفارق لكم.. وتعلمون مقدار مهارتى فى الرمى.. فمن يرد أن تفاجئه منيته فليقف حائلا بينى وبين ما أريد..

وهاله أن أحدا لم يهتم.. وإنما نظروا إليه معجبين بمنظره.. وهم يتضاحكون..

لقد اتفقت بنو عامر فى هذا اليوم.. وقبل أن يصل حصين ورفيقه من المراعى على تكوين وفد يتحلى بروح جديدة.. يذهب إلى المدينة.. ويلقى محمدا.. ويعتذر عما سلف.. ويبايع عن نفسه.. وعن كل بنى عامر بالإسلام.

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا* فسبح بحمد ربك واستغفره* إنه كان توابا ﴾ [سورة النصر]

* * *

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- صحيح البخارى طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية -نهضة مصر

٣- تفسير القرطبى

٤- تفسيرالكشاف

٥- صفوة التفاسير.

٦- السيرة النبوية لابن - هشام القسم الثانى

٧- محمد رسول الله د.عبد الحليم محمود.

٨- تهذيب سيرة ابن هشام تحقيق عبد السلام هارون

٩- الإصابة لابن حجر

١٠- مقدمة ابن خلدون تحقيق د. على عبد الواحد وافى.

١١- قصص الأنبياء لابن كثير.

١٢- قصص الأنبياء عبد الواحد النجار.

١٣- عيون الأخبار لابن قتيبة

١٤- أدب الدعوة فى عصر النبى د. عبد الصبور شاهين

١٥- نشأة الدولة الإسلامية على عهد النبى د. عون الشريف قاسم.

١٦ حكم الأسرة فى الإسلام محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى

١٧- سيرة سيد المرسلين

١٨- سيرة الرسول محمد عزة دروزة

تابع المراجع

١٩- من أخلاق النبى	د. أحمد الحوفى
٢٠- محمد رسول الله والذين معه	عبد الحميد جوده السحار ج ١٨
٢١- عبقرية محمد	
٢٢- عبقرية الصديق.	عباس محمود العقاد
٢٣- عبقرية على	
٢٤ عبقرية عمر	
٢٥- الصديق أبو بكر	د. محمد حسين هيكل
٢٦- دولة القرآن	طه عبد الباقى سرور
٢٧- حقوق الإنسان فى الإسلام	د. على عبد الواحد وافى
٢٨- بحوث فى الاسلام والاجتماع	
٢٩- الإسلام ظهوره وانتشاره	على عبد القادر
٣٠- الأمثال من الكتاب والسنة	تحقيق على محمد البجاوى
٣١- الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى	د. محمد البهى
٣٢- شريعة الله حاكمة	السيد على جريشة
٣٣- تفسير آيات الأحكام	عبد المجيد عبد الله دراز
٣٤- مع القرآن الكريم	د. أحمد الحوفى
٣٥- تاريخ القضاء فى الإسلام	محمود بن محمد بن عرنوس
٣٦- معالم الطريق إلى الله	محمود أبو الفيض المتوفى الحسينى

محتويات الكتاب

مطابع
ت ٩٣٢٧٠٦